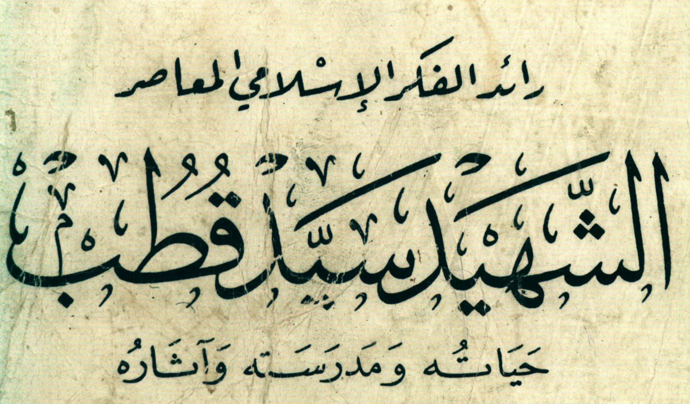
أعلام الدعاة المعاصرين

٢

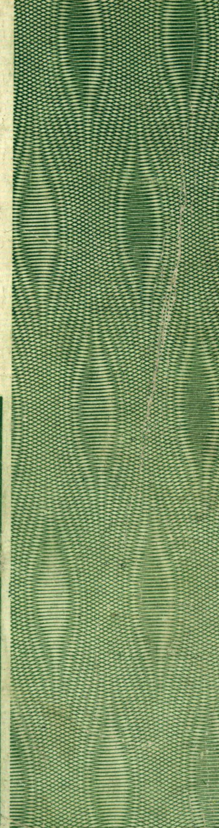




رائد الفكر الإسلامي المعاصر

الشهيد سيد قطب

حياته ومدرسته وآثاره



بقلم

يوسف العظم

دار القلم
دمشق - بيروت

أعلام الدعاة المعاصرين
٢

رائد الفكر الإسلامي المعاصر

الشهيد سيد قطب

حياته ومدرسته وآثاره

١٣٢٤ - ١٣٨٧ هـ
١٩٠٦ - ١٩٦٦ م

يوسف العظم

دار القلم
دمشق - بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

دار القلم
دمشق - بيروت

الإدارة : دمشق - حلبوني - ص.ب ٤٥٢٣ - هاتف ٢٢٩١٧٧

سيّد قطب

- الاديب الموهوب
- الناقد المنصف
- السياسي الواعي
- المفكر الاسلامي الرائد
- المفسر الملهم
- الداعية الشهيد

الإهداء

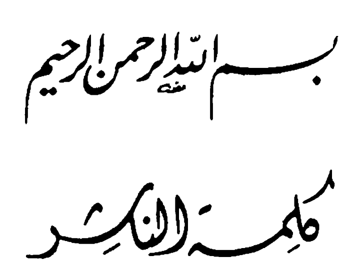
- إليكَ أخي ومُعلّمي .. سيّد قطب
أهْدِي هذه الصّفحاتْ ..

- إلى نفسِكَ المُطمئِنّة ورُوحِكَ الرّاضيةِ المرضيّة بإذنِ الله .

- وإلى ذكراكَ العطرةِ الّتي تُضمّخُ دُنيانا بعبَقِ الإيمانِ وتُضيءُ ظلماتِ حياتنا بنُورِ اليقِين .
وخصُومُك وجلّادُوك وشانئوكَ على الفُتاتِ يَصْطَرِعُون ، وفي الصّغارِ يتمرّغُون .

الوفي

يوسف العظم



ليس أولى بالكتابة عن « سيد قطب » من « يوسف العظم » ... فلقد استمع إليه في مختلف الندوات الفكرية والاحاديث السياسية يوم كان صاحب هذا الكتاب يتلقى العلم في القاهرة طالباً في كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية ، ثم طالباً بمعهد التربية العالي بجامعة « عين شمس » .

ولقد قرأ عليه بعض كتبه فاخذ عنه الراي والفكر، وهو يتردد على منزل الشهيد « بحلوان » في امسيات كثر ، في جمع من الشباب المسلم المتعطش للمعرفة الباحث عن الحقيقة .

ثم عمل معه في الحقل الصحفي بالقاهرة يوم صدرت صحيفة الاخوان المسلمين، وكان سيد رئيس تحريرها ويوسف العظم احد محرريها ، يكتب فيها المقال والخاطرة حيناً باسمه الصريح وطوراً باسم « بيدبا الصغير » ...

وهو الذي يقول عنه سيد قطب في تقديمه لاول كتاب فكري يقدمه قلم الكاتب المسلم الشاب .. (الإيمان واثره في نهضة الشعوب) :

« يسرني أن اقدم هذا الكتاب إلى شباب العالم الإسلامي من قلم شاب تتوقد في روعه شعلة الإيمان ، ويدرك حقيقة الإسلام عقله موشّعة بحرارة القلب وحماسة الشباب .

إنه يجلو في كتابه جوانب من الفكرة الإسلامية ، وجوانب من حياة هذه الفكرة في عالم الواقع . كما يعرض لبعض الحركات الإسلامية الحديثة ، وبعض الشخصيات التي قادت هذه الحركات ... ولقد عني صاحب هذا الكتاب بالتفرقة بين الإسلام في حقيقته الناصعة ، والإسلام كما يصوره الطغاة والمحترفون والمستعمرون .

كما عني بتزييف الآراء التي تحاول ان تتخذ من الاسلام مجرد راية سياسية ، لاَ منهاج حياة كاملة ، يشمل التربية والاخلاق والسلوك في حياة الفرد والجماعة والدولة على السواء » .

ثم يختم سيد قطب تقديمه لكتاب يوسف العظم بقوله :

« إن هذه الباكورة الطيبة لتومىء بان وراءها جَنَي اوفر . وفق الله صاحبها الى ما فيه الخير والصلاح » .

كان ذلك في الخامس والعشرين من ربيع الثاني سنة ١٣٧٣ هجرية ، واليوم وقد استجاب الله للمفكر الاسلامي الشهيد دعاءه ، فوفق الكاتب المسلم يوسف العظم ان يقدم عدداً من كتب الفكر الإسلامي ، في سلسلة « المنهزمون » وعدداً من كتب التربية في سلسلة « مع الجيل المسلم » وعدداً من الدواوين والمجموعات الشعرية ، وان يلتقي مع الجماهير المؤمنة في عطاء فكري غزير عبر المواسم الثقافية والندوات التلفزيونية والاحاديث الاذاعية والمقالات الصحفية ...

يسر دار القلم ان تقدم كتابه هذا عن الشهيد سيد قطب ليملأ فراغاً في مكتبة التراجم العربية الإسلامية ، وقد جاء دراسة وافية عن حياة الشهيد واعماله الادبية والفكرية وآثاره في بناء الجيل المسلم الصاعد المتفتح على مرارة الواقع ورحابة الأمل ، مما نرجو معه ان يكون إنصافاً للداعية الشهيد من تجني الأعداء والأصدقاء على السواء .

والله يتولانا بجميل رعايته ، ويلهمنا الصواب بإذنه ،إنه نعم المولى ونعم النصير ...

الناشر

بين يدي الكتاب

حين تناولت القلم لأخـط أول كلمة في كتابي هـذا عن « الشهيد سيد قطب » كنت أحس برهبة وأتوجس خيفة ، ولا أكتم القارىء إذا صارحته وقلت : إن لسيد في نفسي مكانة لاتعلوهـا إلا مكانة الرعيل الأول ممن تربوا على يـد الرسول الأعظم في مدرسة القرآن .

كنت والقلم في يدي بين شعورين : شعور من سيعاتبه سيد يوم لقاء الله عن كل ثناء عَطِرٍ وتزكية حميدة ، لأن الرجل ظل يسعى للشهادة الحقة حتى نالها بإذن الله ، فما يضيره بعد ذلك أن يظلمه متجنٍ أو أن ينصفه حبيب . وشعور من سكت على ما يعلم ويصمت على مالا يعرفه الكثيرون من حياة « سيد » .

وصممت أن أكتب شيئاً ، وأمامي تراث من الكتب والصور والذكريات ، تبدأ من القرية التي حبا فيها سيد طفلاً ، وعدا في دروبها صبياً ، والمدينة التي احتضنته طالباً مجداً ، وتنتهي بأشرف نهاية لرجل أكرمه الله بالخلود ، ومنّ عليه بالشهادة .

عرفت أستاذي سيداً محاضراً في الندوات والجامعات ، والتقيت بأستاذي في « حديث الثلاثاء » وجمعني بأستاذي عمل صحافي مشترك ، وترددت على أستاذي في بيته في حلوان ، ألقاه ساعات من نهار في كثير من أيام الجمع ، وعرفت من « سيد » مالم يعرفه الكثيرون ممن يجدر بهم أن يكتبوا اليوم جانباً من تاريخ الداعية الشهيد .

ترى . أيغفر لي الناس بعد ذلك ألا أكتب عن سيد : أديباً موهوبـاً ، وناقداً منصفاً ، وسياسياً واعياً ، ومفسراً ملهماً ، ومفكراً رائداً ، ومربيـاً فذاً ، وأخيراً داعيـةً شهيداً يلقى وجه ربـه الأكرم ،ويحتل مكانة الشهداء في الفردوس الأعلى بإذن الله ؟!.

وقد حاولت أن يضم الكتاب ما هتفت به القلوب والحناجر ، وما سطرته الأقلام وعلا من فوق المنابر التي حزنت على سيد وبكته بدموع الحسرة والإكبار ومداد الأسى والإجلال ، لأنها تبكي بذلك الكرامة المهدورة ، والحق المضيّـع ، والمؤمن المهان على ايدي السفاحين والطغاة ، غير اني خشيت ان تكثر صفحات الكتاب وان يصبح حجمه فوق ماقد اتفق عليه ، وتعارفت دور النشر على إخراجه ، فارجات ذلك الى كتاب آخر ويوم موعود لا اخلفه بإذن الله في اقرب فرصة تتـاح ، واول سانحة تمكنني من الوفاء بالوعد المضروب والعهد الذي كان مسؤولاً .

واعود إلى الحديث عن سيد من بداية الطريق ، فاقول :

لست مـع الذين يعلنون في كل مقـال ـ وهم يتحدثون عن « الشهيد المفترى عليه » ـ براءته من عدد من كتبه ، إلا حين يكون الحديث عن فكر الرجل الذي نضج ورأيه الذي آتى اطيب الثمرات ، عندها فقط نلقي الضوء على الكتاب الذي يتبنى ، والكتاب الذي تبرأ منه او تخلى عنه .

ولئن قبلنا ببراءة الكاتب مما كتب دَفْعاً لفكر تخلّى عنه وتبياناً لراي استقر عليه ، إلا ان المنطق والحق لايقبلان بحال بتر جزء او جانب من حياة إنسان له في حياة الجيل الإسلامي المعـاصر أعمق الأثر ، ذلك ان كل جانب من حياته يمثل صورة أو فصلاً لابد من معرفته وإدراك خفاياه .

وفي تاريخنا الإسلامي المشرق امثلة على ذلـك ، مازلنا نعرفها ونعرضهـا عن « جاهلية » عمر وحمزة وحسان ، ما يمثل الجانب النفسي والإطار الحياتي لاولئك الرجـال قبل ان ينير الإسلام قلوبهم ، ويملأ الإيمان جنبـات الحيـاة لديهم بالنور والإشـراق .

إن كائناً من كان لايملك ان يلغي من حياة « الشهيد » كتاب « طفل من القرية » ذاك الذي يصور طفولته ويلقي ضوءاً على مستويات التربية والتعليم واساليبها في تلك الفترة من حياة أمتنا في جزء من ديارها . وكتاب « اشواك » ذاك الذي يصور مرحلة

مـن حياته العاطفية الوجدانية التي لاتخلو منهـا حيـاة إنسان ، ولا كتاب « المدينة المسحورة » ذاك الذي يتناول فيه برمزية هادفة لاغموض فيها ولا معميّات حيـاة الإنسان وقيم الحياة ، ويعرض فيه نماذج إنسانية فريدة تمثل كل طبـاع الإنسان المنطوية على شتى النزعات والرغبات والدوافع هبوطاً في تراب الأرض ، وتسامياً مع تلألؤ النجم وانسام السحر وإشراق الروح الشفيفة الصافية .

لقد حاول كتاب فضلاء قبلي ان يقدمـوا شيئاً عن سيد قطب ، وان ينصفوه فيما يقدمون ، وقد صدر حتى الآن عن الشهيد ثلاثة كتب اعترف اني قد افدت منها وانتفعت بها ، غير انها جاءت دراسات غير شاملة ولا متكاملة ، وإن كانت جميعاً نابعة من وفاء اصيل وغاية نبيلة .

ففي الوقت الذي تناول فيه السيد (محمد علي قطب) من لبنان جانباً من عطاء الرجل الفكري وجانباً من ابعاد شخصيته كما سماها ، عرض الاستاذ الشيخ (العشماوي محمد سليمان) من مصر لجانب من اخلاق الشهيد وصفاته الكريمة ، بينما تنـاول السيد (محمد توفيق بركات) من سوريا منهج الشهيد في الحركة ، واهتم بما كان يوجه للشهيد من نقد ، ورد عليه ردوداً احسبها موضوعية موفقة ...

اما هذا الكتاب الذي اقدم اليوم ، فإن فيه من الشمول والتكامل ما يجعله اكثر وضوحاً واوفى بالغاية التي من اجلها توضع الكتب وتقدم التراجم .

ومن هنا جاء حرصي على ان يكون الكتاب شاملاً متكاملاً ، تناولت فيه تاريخ حياة الشهيد منذ ولد إلى ان لقي الله في حدود ما اعلم ، وقمت بتقديم عطائه وعرض إنتاجه في مختلف الميادين التي خاض فيها معركة الحق مع الخطأ والارتجال والمؤامرة والضلال ، فجاء حديثي عنه : اديباً موهوباً ، وناقداً منصفاً ، وسياسياً واعيـاً ، ومفسراً ملهماً ، ومفكراً إسلاميـاً رائداً ، وداعيةً شهيداً ، بحيث كان قمة في كل هـذه الميادين ، وصاحب مدرسة ومنهاج يكاد يكون به امة وحده .

وما احسب ان مفكراً معاصراً ذا مكانة مرموقة نال من ظلم الاصدقاء والأعداء على السواء مثلما نال سيد قطب ؛ مما يذكرني بالإمام علي رضوان الله عليه حين كفره فريق ممن كانوا جنداً له وادّعى نبوته والّهه آخرون . وكلا الفريقين ظالم له متجنٍ عليــه .

وسيد قطب المؤمن الصابر والداعية الشهيد حمل عليه الخصوم حملة ظالمـة الصقت به ابشع التهم التي برروا بها سوقه إلى حبل المشنقة ، واحاطه بعض الأحبة والمريدين والأتباع بهالة من القداسة جعلت فريقاً منهم يستشهد بقوله قبل كل قول ، ويقدم رايه على كل راي .

والحقيقة التي لايرقى إليها شك ولا يبلغهــا حقد او يبدلهــا إعجاب ومودة ان للرجل من صفاء العقيدة وعمق الفكر وسعة الافق وإشراقة الاسلوب ما يجعله قمة بين رجال الفكر وقادة الراي ، ومدرسة من مدارس الفكر الإسلامي المعاصر المستنير ، إلا انه بشر سوي ، ومن بشريته تلك ينبثق الخطا والصواب في حياته الإنسانية وافكـاره العلمية ، مما يضع رايه موضع الأخذ والرد والتجلة والمناقشة والتقدير والحوار .

والحديث عن منهــاج سيد قطب : صواباً او خطا ، واقعيةً او مثالية ، امــر سنتناوله بالتفصيل والوضوح ونحن نتحدث عن منهاجه « بين احتمال خطئه وسوء فهم الآخرين له » في فصل خاص من هذا الكتاب بإذن الله .

وإذا كان لابد من كلمة اختتم بها ما انا بصدد الحديث عنه فهي رجاء حار اسوقه لكل من عرف الشهيد عن قرب : اخا في الدم او في العقيدة ، او صديقاً في العمل ، او رفيقاً في درب الحياة ــ ان يصحح لي مااقد اكون اخطات فيه ، وما يمكن ان يكون قد ورد محوّراً او مبدلاً او مبتوراً ، لان مثل ذلك التنبيه يقوّم العوج ، ويصحح الخطا ، ويضفي على الكتاب في طبعاته المقبلة مزيداً من الثقة ومزيداً من الحقيقة التي احب ان تكون رائدي فيما اقول وافعل إن شاء الله .

وقد يبدو ان في بعض ما اعرضه بعض المبالغة وشيئــاً من التهويل ، وبخاصة

فيما يتعلق بالعذاب الذي ناله الشهيد وصحبه على ايدي الطغاة والجلادين . والحق اقول : إن مالقيه الداعية الشهيد وما أصاب صحبه من البلاء والعذاب امـور يعجز عنها الوصف ولا يبلغ مداها الخيال .

ومن هنا فإن ما ذكرته لايعدو جانباً من الصورة ، وجزءاً من الواقـع الذي قد يستغرق سـرده وتفصيله مجلدات واسفاراً ، مما يحتم على الذين ذاقوا بعضه ان يجمعوه ويصدروه للناس في « سجل وثائقي حافل » قبل ان تندثر تلك الفترة الرهيبة وذلك العهد الأسود من تاريخ مصر الصابرة المبتلاة ...

وبعـد ...

فإني ارجو الله ان آكون قد وفقت في تقديم صورة متكاملة عن الشهيد المفترى عليه وما قدم من عطاء ادبي وفكري رفيع ، وأن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، مسهماً في طمس وجه الباطل البشع والإسفار عن وجه الحق الأبلج الأغر .

واملي كبير ان يجيء كتابي هذا كما أردته أن يكون ، لامجرد ترجمة حياة ودراسة آثار للشهيد العظيم فحسب ، وإنما كتاب فيه فكر وحركة كذلك ، ليسهم في إلقـاء الضوء على العمل الحركي الإسلامي وكيف ينبغي ان يخطط له وينطلق به منطلقات سليمة هادفة بعيدة عن « التشنج والانفعال » و « التسيّب والانحلال » ليجيء عملاً خالصاً معافى يؤتي اطيب الثمرات بإذن الله .

وصدق الله العظيم الذي يقول :

« إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لايحب كل خوّان كفور » .

« إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

عمّـان

٢٨ رجب ١٣٩٣ هـ

٢٨ آب ١٩٧٣ م

يوسف العظم

منهـــاج
تقدير الرجال .. لاتقديس الرجال

نحن نقدر الرجال ... ولا نقدسهم ...

ومـن تقديرنا لهم ان نضعهم حيث يفرض الحـق ان يوضعوا .. وحيث يحب المنصفون منهم ان يكونوا بلا قداسة ولا عصمة ولا تنزيه .

اقوالهم تعرض على الشرع .. فما وافق الشرع منها قبلناه ، وما خالف الشرع منهـــا رددناه .. وما لم يرد فيه نص شرعي من كتـــاب او سنة او إجماع ، عرضناه على العقل « المؤمن » ناخذ منهـا ما يوائم الإيمان ، ونرد منهـا ما يقـود ــ ولو عن حسن نية وصدق طوية ــ إلى ضـلال .

الرجـال المؤمنون ، والعلماء العاملون ، احباء إلينـا وقدوة لنـا في الحياة ..

والحق احب إلينا منهم ، وهو المقياس الذي لايزول والمنهج الذي لا يحول .

ورحم الله الإمـام مالكا حيث يقول (١) :

« ليس احد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك ؛ إلا النبي ﷺ » .

---

(١) قال السبكي في الفتاوى ج١ ص١٤٨ ناقلاً هذه الكلمة من قول ابن عباس . واردف قائلاً : « أخذ هذه الكلمة من ابن عباس مجاهد واخذها منهما مالك ، واشتهرت عنه رضي الله عنه » .

سيّد قطب

بَين الميلاد وَالاستِشهاد

البذور الطيبة ..

استقبلت الجزيرة العربية رجلاً صالحاً من المؤمنين ، الذين يفدون إلى الحجاز حباً بالله ورسوله ، وإقبالاً على مهبط الوحي ، يرتوون من فيضه ، ويلمحون على أرضه أقباس النور ومعالم الهدى .

وكان الرجل على مستوى خيّر من الورع والهداية ، زاده القرآن يحفظ بعضه ، وسلاحه التجارة يمارسها ، وإن جمع مع القرآن علماً ومالاً وتقى ، فما يضيره بعد ذلك أن يترك « الشرق الأقصى » ليلقى في رحاب البيت العتيق الطمأنينة والرضى ...

وقد أشار إلى أصل هـذه الأسرة المباركة أحد أبنائها الأستاذ محمد قطب في إحدى خواطره التي سجلها في الطيف الثالث من الأطياف الأربعة [1] حيث يقول :

« لقد ورث فيما ورثه من الشرق البعيد التيقظ للزمن والإحساس بأثره في النفس . فذلك الشرق المتعبد المتصوف الزاهد في الحياة كلها لاشك يشعر بالزمن شعوراً مضخماً فيصارعه بمحاولة الخلود بالروح مادام الجسم لايقوى على الخلود ، ويصارعه بالاندماج في الفكرة العظمى أو الروح الأعظم حيث لازمن ولا فنـاء . فيشعر في لحظات الاندماج أو « الوصول » أنه ليس من أبناء هذه الدنيا الفانية ، بل جزء من الكائن الخالد الذي لاينتهي في الزمن ولا ينتهي في المكان .

بل هَبْه لم يرث شيئاً من تلك البقاع النائية الموغلة في الزمان ، فهو مصري ، والمصري لايفتأ يحس بالزمن الذي يمضي ولا يعود » .

ولقد سمعت مـن المجاهدة الفاضلة السيدة زينب الغزالي ما يؤكد لي هـذا الأصل ويشير إلى هذا النسب ، وهي ذات صلة وثقى وعلاقة متينة بالأسرة «القطبية» المباركة ، زاد من متانتها أن جمعتها بالأسرة المعذبة زنزانات الطغاة وسجون الظالمين.

---

(١) كتاب شارك في تأليفه الأخوان سيد ومحمد قطب وشقيقتاهما امينة وحميدة.

كما حدثني بذلك الأستاذ العلامة أبو الحسن الندوي على لسان الشهيد سيد قطب ، الذي أعلمه أن جده الخامس قد جاء إلى ديار العرب من بلاد الهند وأواسط آسيـا .

وسيد قطب الذي نكتب عنه نسبه القرآن ورحِمُه الإسلام ، وقومه وعشيرته المؤمنون حيثما كانوا ، فما يضيره أن يكون من أية بقعة في الأرض ما دام التوحيد عقيدته والإسلام دينه والقرآن قبسه الذي يسلك به فجاج الدنيا وصراط الآخرة ، ولكنها الرغبة في معرفة الحقيقة وتقصّي التاريخ تسوقنا إلى ما ذهبنا إليه من سرد وما رويناه من أحداث .

ويقبل على مصر من ذرية الرجل المهاجر من يقبل ، ليلقى شريكة العمر في قرية من محافظة أسيوط في الوجه القبلي من ريف مصر هي قرية « موشا » فينسل النسل الصالح ، ويمنّ الله عليه بذرية مباركة يكون منها قطب إبراهيم الذي ولد له «سيد» عام ١٩٠٦ ميلادية ، حيث نشأ في أسرة كانت وسطاً . لم تكن على ثراء عظيم ، ولم تكن تحيا كفافاً .

وكان « سيد » فيما يرى ويسمع يدرك أن أباه في وضع مالي يمكنه من أن يمده بما لايصل إليه كثير من أطفال قريته . إذا فرحوا بالملاليم ، كان هــو في كفه بضعة قروش . وإذا نال بعض الصغار قطعاً من الحلوى،كان حظه منها وافراً ، تعده أم رؤوم مدبرة من نفقة أب كريم وسّع الله عليه بعض الشيء .

وعاش سيد في بيئة غاصة « بالأولياء » وأدعيــاء الولاية ، ورأى المجاذيب وما يُزعم لهم .. وحمله أبوه إلى كتّاب القرية لكنه لم يأنس به ولم تطمئن نفسه إليه فمال إلى مدرسة القرية النظامية ، وجمع الطفل بين حسنتي المدرستين .. حفظ القرآن في الكتاب .. ونظام الصفوف وساحة المدرسة الفسيحة ومنهاج الحساب والقراءة والنشيد في مدرسة الدولة .

ونشأ « سيد » في أجواء عديدة .. وميادين شتى تجمع بين الوليمة الكبيرة في بيت والده .. والحديث عن العفاريت في دروب القرية المظلمة .. وأيام الحصاد المليئة بالخير المفعمة بالبركة .. وسكب الريف في أذن « سيد » مزيجاً من الاصوات:

تغريد الطير في البكور .. وأصـوات الديكة تعلن هزيمة الليل وانتصـار الصبـاح .

وكلمات الفجيعة ترددها أرامل القرية وثكالاها في نواح صارخ وأنين مكبوت .

ومواويل المحبين من الشباب على دروب القرية بين الحقل والساقية والمنازل والسوق ... وحنين الغرباء الذين خلفوا وراءهم نسوة وصغاراً وجاؤوا يسعون وراء لقمة العيش في تشرد وتمزق وضياع .

وأدعية الأتقياء في أعقاب كل صلاة من صلوات الجماعة في مسجد القرية أو صلاة الأسرة في البيت الهانىء المبرور .

وترتيل آي الذكر الحكيم ينبعث بين الحين والحين في بيوت القرية المعروفة ومنها بيت أبيه قطب إبراهيم .

وملأ الريف عين « سيد » بمشاهد شتى ، وصور كثر :

الخضرة المنبسطة أمامه في صفاء وحرية وفسحة زاهية .

والماء ينساب في الأقنية ويتدفق في السواقي وينطلق في الحقول .

والطفل الغض تحمله « جاموسة » مستسلمة وقد انبعث من مزماره ألحان فيها مزيج من براءة الصبي ومأساة الريف .

والخير والعطاء يتمثل في غلة الحقل وما يقدمه الحيوان والطير للفلاح من لحم ، ولبن ، وزبد ، وبيض .

والمرض الذي كان يفتك بالناس في ظل رعاية صحية واهية وعناية طبية موهومة .

وعرق الجباه .. ودم الأفئدة يسيلان على أرض مصر ؛ ليستحيلا عطـاء .. فنقداً .. فبطراً وتخمة في كثير من جيوب الموسرين !!

وما سمعه سيد من مختلف الأصوات .. وما رآه من عديد المشاهد صنع لدى الطفل إحساساً مرهفاً .. ووجداناً نابضاً بالحياة .. جعل من قلم سيد الأديب ريشة دقيقة مصورة بارعة .

ومن قلم سيد المفكر إزميلاً يتخذ من قلوب قرائه مادة ينحت منهـا نماذج للجيل الذي يريد ٠

ومن قلم سيد الرائد شمعة تجري خلال سراديب التخلف والضياع والكنود تنير طريق الحيارى التائهين وصاحبها يحدوهم بأروع ترتيلة من تراتيل الخلود :

« إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً »[1] ٠

محضن مؤمن ونشأة صالحة :

وإذا كان لابد من التركيز على أهم ما أثر في « الصبي » فهي كما أرى جوانب ستة عمقت في نفسه وواكبت حياته فيما قـال وفعل ٠ ومـا أنتج من أدب وعلم ، وفكر وثقافة ٠

أولها : تربية وثقافة في أسرة مستنيرة بعض الشيء ٠

وثانيها : حفظه القرآن ولمّا يبلغ العاشرة من عمره ٠

وثالثها : صلته ببائع الكتب « عم صالح » ٠٠ ومكتبته المنزلية الناشئة ٠

ورابعها : نظرة الناس إليه بتقدير ، وثقة ربات الخدور به ، ولما يزل طفلاً دون مستوى الثقة والطمأنينة ٠

وخامسها : استعلاء ذوي السلطان على من دونهم من الناس وتجبرهم ٠

وسادسها : الذل والهوان الذي كان يعاني منه الكثيرون ممن تقع عينه عليهم ٠

اما تربية الاسرة :

فمن حديث سيد عن أبيه :

« فأبناء الأسر المعروفة في القرية كانوا يحتلون مقاعدهم في الفرق العالية ولو لم تؤهلهم لذلك أجسامهم ، ولم يكن من النادر أن يحضر والد تلميذ ليحتج على وضع ابنه

---

(١) الآية « ٩ » من سورة « الإسراء » .

في السنة الأولى ؛ بينما ابن فلان في السنة الثانية وهوليس أقل منه مركزاً ولا ثروة ، فيجاب طلبه في الحال ، وينقل الولد إلى السنة المطلوبة حتى لايخدش شرف العائلة . وتبعاً لهذه القواعد لم يكن بد من أن يوضع الطفل في السنة الرابعة من أول يوم ولا سيما أن ابن خالته في هذه الفرقة ويحسن أن يجلس معه ليأنس به .

ولكن ناظر المدرسة أنس من والده شيئاً من التنور والمعرفة فرأى أن يحادثه بصراحة ، وأن يبين له أن من مصلحة الطفل أن يبدأ من السنة التحضيريةمع الأطفال ليستفيد ويسير في خطواته طبيعياً .. فاقتنع وتركه للفقيه وللعريف الذي كان معروفاً لدى الطفل جيداً .. لأنه هو الذي يقرأ في دارهم القرآن في رمضان » .

ومن قول « سيد » عن أبيه أيضاً وعن أسرته ومنزل أهله :

« وكان بالمدرسة ناظر شاب يتقد وطنية ، ولما كان والد الطفل عضواً في لجنة الحزب الوطني ومشتركاً في صحيفة يومية ، فقد كان منزلهم مثابة للوطنيين من رجال القرية ولهذا الناظر الشاب كذلك الذي انعقدت صداقة حميمة بينه وبين والده » .

« وشيئاً فشيئاً أخذ يشارك الكبار فيما يخوضون فيه ولا سيما أنه كان قد وصل إلى السنة الرابعة الأولية ، وكانكثيراً ما يتولى عن والده قراءة الجريدة للجمع الحاشد الذي يحضر لاستماعها في منزلهم » .

ويبين لنا « سيد » مكانة والديه في أسرتيهما وما لأخواله كذلك من المكانة :

« كان والده قد صار عميد الأسرة المكلف حفظ اسمها ومركزها ، في الوقت الذي لم ينله من الميراث إلا نصيب محدود لاينهض بما كانت تنهض به ثروة الأسرة مجتمعة ، على حين لايستطيع أن ينقص شيئاً من تكاليف المظهر في الريف ، وكان هو بعد هذا متلافاً مضيافاً فزاد ذلك في التكاليف التي لاتحتملها ثروته ، ولكنه حافظ على كل المظاهر والمطاليب الى اللحظة الاخيرة .

وكانت والدته من أسرة مماثلة أو أعرق ، وقد وقع لها ما وقع لأسرة الوالد حرفاً بحرف .. ولكن زاد عليها أن اثنين من أخواله كانا قد أوفدا إلى الأزهر في

القاهرة شأن غالبية الأسر الريفية الثرية ، فأنشأ هذا في الأسرة نوعاً من الرقي العلمي، بجانب الوجاهة الريفية » .

ويلقي « سيد » ظلالاً بقلمه على أمه فتبدو لنا في قلبها إيمان وفي بصيرتها وعي وهو يخاطبها في إهدائها كتابه « التصوير الفني في القرآن » :

« ولقد رحلتِ عنا ــ يا أماه ــ وآخر صورك الشاخصة في خيالي جلستك في الدار أمام المذياع ، تستمعين للترتيل الجميل ، ويبدو في قسمات وجهك النبيل أنك تدركين ــ بقلبك الكبير ، وحسك البصير ــ مراميه وخفاياه » .

وفي بيئة مرهفة الوجدان ، مستنيرة العقل ، خاشعة الفؤاد ، نشأ « سيد » واخوة له وأخوات .. يسمعون القرآن يرتل في منزلهم في رمضان .. ويصغون للحديث الاجتماعي والمناقشة السياسية ، وأعينهم تقع كلما تلفتت على :

أب مستنير بعض الشيء .

وأم واعية لو قيست بنساء القرية .

وأخوال لهم من الثقافة قسط يُغبطون عليه .

وأما حفظه للقرآن فكان رغبة تعيش في نفس أمه التي أهدى لها « سيد » كتابه « التصوير الفني في القرآن » حيث يقول :

« إليك يا أماه ، أرفع هذا الكتاب

لطالما تسمعت من وراء « الشيش » في القرية ، للقراء يرتلون في دارنا القرآن طوال شهر رمضان ، وأنا معك أحاول أن ألغو كالاطفال ، فتردني منك إشارة حازمة، وهمسة حاسمة ، فأنصت معك إلى الترتيل ، وتشرب نفسي موسيقاه ، وإن لم أفهم بعدُ معناه .

وحينما نشأت بين يديك ، بعثت بي إلى المدرسة الأولية في القرية ، وأولى أمانيك أن يفتح الله عليّ فأحفظ القرآن ، وأن يرزقني الصوت الرخيم فأرتله لك كل آن . ثم عدلت بي عن هذا الطريق في النهاية إلى الطريق الجديد الذي أسلكه

الآن ، بعد ما تحقق لك شطر من أمانيك ، فحفظت القرآن •• فإليك يا أمـاه ثمرة توجيهك الطويل ، لطفلك الصغير ، ولفتاك الكبير ، ولئن كان قد فاته جمال الترتيل، فعسى ألا يكون قد فاته جمال التأويل ، والله يرعاك عنده ويرعاه » •

وقد بدأ تحقيق هذه الرغبة لدى أم سيد حين بلغ الطفـل السادسة من عمره وانقسمت الاسرة إلى فريقين :

فريق يرى ذهاب الطفل إلى « الكتاب » ليحفظ القرآن ويفوز بالبركة •

وفريق يرى ذهابه إلى المدرسة الأولية لأنها أرقى وأنظف •• إلى أن انتصر أنصار المدرسة على أنصار الكـتّاب •

ويعلل سيد ســر إقبـاله على حفظ القرآن في طفولته ـ رغم عدم التحاقه بالكـتّاب ـ فيقول :

« إن حجة الكـتّاب الكبرى أنه يعنَى بتحفيظ القرآن ، بينما المدرسة تهمله ، ولا تستطيع أن تخرج تلميذاً واحداً يحفظه •• إذن فليوجه همه إلى حفظ القرآن ، حتى يهدم هذه الحجة الكبرى •• وإنه ليرهق نفسه وصحته المرهقة ، ويسهر إلى منتصف الليل ليعيد في كل ليلة جميع ما سبق له حفظه من القرآن ، وذلك بجانب الدروس الأخرى •• فما يكتمل العام حتى يكون قد حفظ ثلث القرآن حفظاً جيداً يباهي به من يتحداه !!•

ثم يؤلف جبهة من تلاميذ المدرسة ضد « أولاد الكتاتيب » جبهة للمفاخرة بكل شيء •• وبحفظ القرآن أيضاً •• وآية ذلك هي « النقاوة » ومعناها أن ينقي ـ أي ينتقي ـ بعض التلاميذ لبعض آيات وسوراً من القرآن للاختبار في حفظها ، وذلك على سبيـل المباراة بين هؤلاء وهؤلاء •• وكثيراً ما فازت المدرسة فأدركته النشوة الجارفة بهذا الانتصار » •

وفي نهاية السنة الرابعة •• ولما يبلغ الطفل العاشرة من العمر كان يجيد حفظ القرآن • وضمن هذا المنطلق يقول سيد عن لقائه بالقرآن في طفولته :

« لقد قرأت القرآن وأنا طفل صغير ، ولا ترقى مداركي إلى آفاق معانيه ، ولا يحيط فهمي بجليل أغراضه . ولكنني كنت أجد في نفسي منه شيئاً .

لقد كان خيالي الساذج الصغير ، يجسِّم لي بعض الصور من خلال تعبير القرآن ، وإنها لصور ساذجة ، ولكنها كانت تشوق نفسي وتلذ حسي فأظل فترة غير قصيرة أتملاها ، وأنا بها فرح ، ولها نشيط .

من الصور الساذجة التي كانت ترتسم في خيالي إذ ذاك صورة تتمثل لي كلما قرأت هذه الآية :

« ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة » .

ولا يضحك أحد حينما أطلعه على هذه الصورة في خيالي :

لقد كان يشخص في مخيلتي رجل قائم على حافة مكان مرتفع : مسطبة ــ فقد كنت في القرية ــ أو قمة تل ضيقة ــ فقد رأيت التل المجاور للوادي ــ وهو قائم يصلي ، ولكونه لايملك موقفه ، فهو يتأرجح في كل حركة ، ويهم بالسقوط وأنا بإزائه أتتبع حركاته في لذة وشغف عجيبين !!.

ومن تلك الصور الساذجة صورة كانت تتمثل لي كلما قرأت هذه الآية :

« واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث » .

لم أكن أدرك من معاني هذه الآية شيئاً ولا من مراميها ، ولكن صورة كانت تشخص في مخيلتي :

صورة رجل ، فاغر الفم ، متدلي اللسان ، يلهث في غير انقطاع ، وأنا بإزائه ، لا أحول نظري عنه ، ولا أفهم لمَ يلهث ؟ ولا أجرؤ على الدنو منه ! !

وصور من هذه شتى كانت ترتسم لخيالي الصغير ، وكنت ألتذ التأمل فيها ، وأشتاق قراءة القرآن من أجلها ، وأبحث عنها ــ كلما قرأت ــ في ثناياه .

تلك أيام .. ولقد مضت بذكرياتها الحلوة ، وبخيالاتها الساذجة . ثم تلتها أيام ، ودخلت المعاهد العلمية ، فقرأت تفسير القرآن في كتب التفسير وسمعت تفسيره من الأساتذة ، ولكنني لم أجد فيما أقرأ أو أسمع ذلك القرآن اللذيذ الجميل، الذي كنت أجده في الطفولة والصبا .

وا أسفاه .. لقد طمست كل معالم الجمال فيه ، وخلا من اللذة والتشويق .

ترى هما قرآنان ؟ قرآن الطفولة العذب الميسر المشوق ، وقرآن الشباب العسر المعقد الممزق ؟ أم أنها جناية الطريقة المتبعة في التفسير ؟ وعدت إلى القرآن أقرؤه . في المصحف لافي كتب التفسير وعدت أجد قرآني الجميل الحبيب ، وأجد صورته المشرقة اللذيذة . إنها ليست في سذاجتها التي كانت هناك ، لقد تغير فهمي لها ، فعدت الآن أجد مراميها وأغراضها وأعرف أنها مثل يضرب لا حادث يقع .

ولكن سحرها ما يزال . وجاذبيتها ما تزال .

الحمد لله . لقد وجدت القرآن » !!

ومن هذا المنطلق .. ومن طفولة بريئة صافية .. وبيئة فيها للتقوى أثر ومكان .. ودراسة جامعية لغوية في دار العلوم مضى سيد يحيا مع القرآن .

صوراً فنية رائعة .. فكان أديباً كبيراً .

ومعانيَ سامية عميقة .. فكان رائداً من رواد الفكر الإسلامي في مختلف عصوره .

وظل كذلك يعيش مع القرآن .. وللقرآن .. فكان المفسر الملهم .. والصابر الظافر بالخلد والشهادة !!

واما صلته ببائع الكتب «عم صالح» :

فقد أتاح ذلك للطفل أن يكون على غير ما عرف به الأطفال في القرية من لهو بعيد عن مواطن الجد .. وتخلف في المدرسة بعيد عن الدراسة والمثابرة .

لقدكان لقرية « سيد » حظ من هبوط بائع الكتب الطوّاف بين الحين والحين..

يوم يصل « عم صالح » يحمل كتباً شتى تبحث في مختلف الموضوعات من قصص شعبي •• وشعر •• ونحو وصرف •• وسِيَر وتاريخ •• وسحر يستطيع به المطلع ــ كما يزعم البائع ــ الجمع بين قلبين أو التفريق بين حبيبين ؛ حسب ما يتمتع به ذلك المطلع من خلق وتقوى ودين •

وكان للطفل « سيد » صلة أية صلة بالبائع الشيخ الذي يظل الطفل يرقب قدومه بفارغ الصبر ليشتري منه كتاباً أو أكثر ويضمه إلى مكتبته الصغيرة التي اختار لها صفيحة جعل لها غطاء صنعه السمكري لصيانة ما رصه فيها من كتب رصاً محكماً •• وبعناية تحول بين العابثين والكتب أن ينالها مالايرضي الفتى •

ويقول سيد عن نفسه في ذلك :

« كان صاحبنا زبوناً ممتازاً عند « عم صالح » يعرفه جيداً ، ويحتفظ له بأجود الكتب ، وأكثرها خطراً ، فما كان صاحبنا ليبخل على الكتب بالمال ، مهما ارتفع السعر ، حتى ولو بلغ ثمن الصفقة الواحدة خمسة قروش •

وهذه الكتب القيمة كانت أسعارها تبدأ من المليم حتى تنتهي إلى القرشين ، وقلما تجاوزت هذا الحد الأعلى إلا في الطائفة الأخيرة من الكتب السرية الخطيرة »•

والكتب السرية الخطيرة موضوع سنطرقه في غير هذا الموضع من كتابنا حين تتحدث عن ثقة الأسر بالطفل وربات الخدور •

ويشير سيد إلى مكتبته وما عرفه الناس به في هذا المجال بقوله :

« اشتهر صاحبنا بالكتب وبالقراءة في أوساط المثقفين بالقرية ، فارتفع في أعينهم درجات ، وأخذ الجميع يتنبأون له بالمستقبل الزاهر •• ماذا ؟ أليس على صغره يقتني مكتبة ضخمة يبلغ من ضخامتها أن تملأ صفيحة كاملة ؟ » •

« ورضي صاحبنا بنصيبه من الكتب ، وظل زبوناً مواظباً على شرائها من «العم صالح » • وشيئاً فشيئاً أصبحت مكتبته هذه مصدر حركة ثقافية دائمة ، بما اجتمع له فيها من كتب ثمينة تبقى متداولة في الأيدي مستعارة على مدار العام » •

« وكان هذا قد لفت إليه نظر الاستاذ الناظر مضافاً إليه تفوقه في الدراسة ولاسيما في دروس اللغة العربية .. عند ذلك وجده أهلاً ليعيره كتابين عظيمين وجد فيهما الصبي طرازاً آخر غير ما تحتوي مكتبته العظيمة من شتى الثقافات » .. أما الكتابان فهما : كتاب تاريخ لمحمد الخضري ، وديوان شعر لرجل يسمى ثابت الجرجاوي .

ونأتي الى تقدير الناس للطفل .. ونظرتهم الواثقة الى سلوكه مما اشاع الطمأنينة في نفوس ربات الخدور ليتاح له الدخول في كل بيت وتفتح له الأبواب المغلقة .

لقد عرف عبر هذا كثيراً من أسرار البيوت .. وأحاديث النساء التي تتناول الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة وتشيع فيها عبارات الغزل والحب ومعاني الوجد والهيام وهن يتحدثن عن عاشق وعاشقة .. أو حاسد ومحسود .. والفتى بينهن يصغي ويخزن في ذاكرته ما يصلح أن يكون مادة لحشد من القصص يمكن أن يصدر تباعاً لو انصرف الرجل إلى القصة وحدها يعالج شؤون الحياة بها ويعرض لوحات الكون عبر عباراتها العذبة وفصولها المثيرة .

« كان في مكتبته كتابان : كتاب أبي معشر الفلكي ، وكتاب شمهورش . ولكل منهما قصة ، ساعدت على نشر شهرته ، وإذاعتها » ... إلى أن يقول :

« تسامع نساء القرية وشبابها بالكتابين ، فأقبل الجميع على صاحبنا الصغير إقبالاً منقطع النظير ، وذلك لأسباب كثيرة .

منها : أنه لايتناول أجراً على الخدمات التي يقوم بها لهؤلاء ، ومنها : أنه صبي يدخل البيوت وتقابله النسوة والفتيات بلا تحرج ، ودون أن يثير وجوده بينهن تساؤلاً كالذي يثيره وجود من يتعاطون هذه الاعمال من الكبار ، ومنها : أن السيدة أو الفتاة لاتتحرج أن تفشي برغباتها وأسرارها ومخاوفها لصبي لم يبلغ الحلم ولا تدعو سنه إلى الخجل منه . وشيء من هذه العوامل كان في نفوس الشبان ، إذ كانت معظم المهام التي يندبونه لها هي مهام سرية من هذا النوع أيضاً .

كان يحضر من المدرسة فيجد كثيراً من التوصيات بطلبه من عدة بيوت ، وبعضها كان يرسل رسولاً يترقبه ليحضر به ، وبخاصة بعد أن عرف الجميع أنه « مشغول » بالكثير من هذه الدعوات .

والحق أنه كان يحس بنشوة عجيبة والطلبات تتوالى عليه ، والأبواب جميعها تفتح له ؟ ولقد كان صغيراً لم تثر في نفسه نوازع الجنس بعد ، وتربيته المنزلية تجعل في نفسه كثيراً من الحشمة والحياء حتى لو ثارت بعض هذه النوازع ... ولكن إحساسه بالجمال الحي كان مرهفاً .. فكانت هذه الزيارات والمقابلات ، ومعظم موضوعاتها يدور على الحب ودواعيه ، مما يغذي فيه هذا الشعور الوليد الغامض ، ويحبب إليه هذه الزيارات والمقابلات التي يجد فيها لذة غامضة عجيبة » .

ومن الحق أيضاً أن تقرر أنه لم يخالف وصايا « عم صالح » وعهده الذي عاهده عليه ، وهو يستأمنه على هذه الكتب الخطيرة ، فلم يطع مرة نزوة شاب في استهواء فتاة محجبة أو زوجة محصنة ، ولم يطع هوى ضرة تريد أن تكتب لضرتها بالعمى ، ولا حتى بكراهية زوجها لها ، إنما كان يستجيب لرسائل المحبة بين الأزواج ، واستهواء الكاره ليعود إلى مطلقته ، والشاب المرغوب فيه ليتقدم لخطبة فتاة تهواه ! !

واستعلاء ذوي السلطان :

أما استعلاء ذوي السلطان على من دونهم من الناس وتجبرهم ، ومعاناةالكثرة الكاثرة من أبناء الشعب كل صنوف الذل والهوان ؛ فقد كان الصبي يرى ذلك ويسمعه ويحياه وهو يحس بالبؤساء مِنْ حوله يشتغلون في الحقول ، يجنون خيرات مصر وثمراتها الطيبة ، ويجمعون عصارة كدهم وخلاصة دموعهم وعرقهم ؛ لتتلقفها القلوب القاسية والبطون التي لاتمتلىء أبداً ولا تقنع .

يقول بعد سرد مفصل لحياة المعذبين والمستغلين معاً ويخص بالحديث جشعاً ممن لايرحمون :

« ولو كان في الوادي قانون عادل لقاده إلى السجن قبل أولئك الكثيرين الذين يحسبهم القانون لصوصاً ومجرمين !!

هذا هو الشعور الذي ظل يعاوده أبداً كلما جلس يتناول طعاماً دسماً ، أو فاكهة لذيذة ، أو حلوى أنيقة ، أو يتمتع بأيسر مباهج الحياة بين ملايين المحرومين »

ولنقف قليلاً عند أول ومضة من ومضات التفتح على حب الديار ، والحث على كراهية الاستعمار في حياة الصبي الذكي والفتى الواعي ٠

كان ذلك على يد رجلين اثنين :

أبوه الذي كان مستنيراً بعض الشيء منضماً للحزب الوطني الذي كان يرأسه المرحوم مصطفى كامل ٠٠ وناظر المدرسة الذي كان يخطب في النـاس فيثير منهم المشاعر ويستولي على الاعجاب ٠

« وحين نفخ في بوق الثورة المصرية الكبرى ، وقف هذا الاستاذ أمام صفوف التلاميذ ، وألقى عليهم خطبة نارية ، وقال لهم : إن المدرسة ستغلق إلى أجل غير مسمى ، لأنه وزملاؤه ذاهبون للعمل في الثورة فهذا واجب كل إنسان ٠

ووقعت المعجزة التي كان يتشكك فيها تارة ويؤمن بها تارة ٠٠ وقعت المعجزة على يده هو ، فانطلق في حماسة الثورة وفورتها ، يكتب هو الخطب ويضمنها أبياتاً من الشعر ـــ يحسبها موزونة وهي متهالكة ـــ ويلقيهـا في المجامع والمساجد حيث نفخت الثورة المقدسة في الجميع ، فصاروا يستمعون لكل هاتف بالثورة ، ولو كان طفلاً صغيراً مثله لم يكد يتجاوز العاشرة !!

لقد كان الاسم المقدس الجديد ٠٠ هو اسم « سعد زغلول » ٠

وكان قيام الثورة سبباً في تأخير رحيـــل الشاب إلى القاهرة عامين أو يزيد ليتلقى فيها تعليمه في مدرسة ثانوية كانت تسمى يومئذ « تجهيزية دار العلوم » ٠٠٠ وبعدها التحق بدراسته العالية في « دار العلوم » ٠

ويعيش الفتى في منزل خاله بالقاهرة ٠٠ويمضي أياماً كلها جد ومثابرة وجلد٠٠ ومعه دعوات أمه التي كانت تحيا بجسمها في الريف وقلبها في القاهرة ـــ ترقب عودة الشاب « المتعلم » الذي سيحقق آمالهـا باسترداد ما بيع من الأرض ومـا اقتطع من الحقـــل ٠

إلى أن يلقى الأب وجه ربه وينتقل إلى رحمة الله ، فتنتقل الأم بأبنائها جميعاً إلى القاهرة ترعاهم وتغمرهم بالرفق والمودة الحانية .. حتى تنتقل هي الاخرى إلى جوار الرحمن :

« إليك يا أماه نتوجه بهـذا الكتاب ، لقد عشنا ــ وأنت معنا ــ غرباء في القاهرة بعدما فقدنا الوالد ونزحنا عن الوطن الصغير ، فلما مضيت عنـا تغربنا في الكون والحياة » [1] .

وتفتح دار العلوم صدرها لسيد كما فتحت صدرها لغيره من النابهين من قبل..

ويلمع نجم الطالب النجيب والشاب الأديب على مدرجات الدار وفي أروقـة المحاضرات ، ويحتل من قلوب رفاقه وأساتذته مكانة خاصة لايحظى بها الا الطالب الجاد اللامع الموهوب .

ولعل فيما قاله الدكتور « محمد مهدي علاّم » أحد أساتذة سيد في دار العلوم يقدم له كتاب « مهمة الشاعر في الحيـاة » ما يدل على المستوى الرفيع الذي كان يحتله مثل هذا الطالب الفذ :

« إنني أعدّ سيد قطب مفخرة من مفاخر دار العلوم ، وإذا قلت دار العلوم فقد عنيت دار الحكمة والأدب » .

ويتخرج سيد قطب من دار العلوم ليطرق أبواب التربية والتعليم في مدارس المرحلة الابتدائية بدمياط ثم في حلوان .. ويمارس كتابة الأدب بكل فنونه وتعدد ألوانـه ، فيكتب في القصة والنقد والشعر والخاطرة مـا سوف نطرقه ونعرضه في موضعه المناسب من البحث وصفحاته الخاصة من الكتاب .

ويلتحق الشاب الخرّيج والأديب الناشىء بالعمل في عدد من الصحف ، ويكتب في بعضها دون عمـل رسمي رتيب ، وتعرفه صحف الأهرام والأسبوع والرسالة والشرق الجديد والعالم العربي وغيرها ، يتنقل غرّيداً رفافاً بحرية وطلاقة من روض

---

(١) من اهداء كتاب (الأطياف الأربعة) لسيد قطب واخوته .

إلى روض ، لايحده قيد ولا تكبله أغـلال ، ويمضي لمزيد من التقدم والصعود في آفاق المعرفة وميادين الأدب الهادف ؛ حتى انقاد لـه الحرف وخضعت له الكلمة يصوغ منها درره ويصنع منها عطاءه •• فقدم للمكتبة العربية من الفكر والأدب مانحن بصدد بحثه وعرضه ودراسته •

ويجمع سيداً وأخوته بعد موت أبيه وأمه بيت واحد في القاهرة، عاش فيه شقيق وأختان في رعاية الأخ الأكبر حياة فيها للحكمة مكان وللأدب روض وللخلق إطار متماسك يوحي برعاية القيم وحفظ الكرامة •

« وأحد هذه الأطياف •• ذلك الشاب الشارد

إنه عاشق المحال •• إنه يطلب مالايجد •• ويسأم من كل ما ينـال •• وإنه ــ بعد ذلك كله ــ للوالد والأخ والصديق لأولئك الأطياف »[1] •

حب •• وفراق

ثم تمضي الأيام بالرجل لتضعه وجهاً لوجه أمام تجربة حياتية جديدة حين أراد يوماً أن يختار شريكة العمر •• وكانت قصة « أشواك » تلك التي انطوت على حب طهور كان مصيره التباعد ونهايته الفراق ••والذي يحيا قصة سيد في «أشواكه» تلك يدرك شرف النفس الكريمة وأصالة الخلق في البيئة المؤمنة ، التي تربى فيها الشاب حتى قبل أن يعرف الطريق إلى العمل المثمر البناء جندياً منتظماً وقائداً رائداً في آفاق الدعوة إلى الله •

لقد كان شاعراً صافياً •• وكانت فتاته أنثى فحسب

وكان ذا مروءة يبحث عن الاستقرار •• وكانت لعوباً مترددة حائرة

وكان يعيش مع السحب في مثالية وشفافية •• وكانت تعيش أحاديث النساء على الأرض وفي لقاءات العائلة •

---

(١) من مقدمة كتاب (الأطياف الأربعة) كتبها سيد قطب .

ثم بدأ سيد قطب يقارن بين اتجاه ديمقراطي زائف يفرق بين الألوان والأجناس ويحاسب الناس على لون البشرة وأصل العرق ، وبين دين كان له في نفسه مكانة ، وعقيدة كان لها من ثقافته نصيب .. ولكنها مكانة التقدير ونصيب التجلة أكثر منها مكانة الوعي المتكامل والدراسة الجذرية والتعمق الباحث المتين .

كما قارن سيد قطب بعد عودته من أمريكا بين حقيقة الدين الصافي الذي يمثله الاسلام وقشور الدين الذين يعبث بها الغرب وفقاً لأهـوائه وتحقيقاً لنزواته حتى باتت الكنيسة وسيلة من وسائل الترفيه والاذلال والانفصام معاً .. في مجتمع تخلّى عنها وانطلق إلى مزيد من ميادين العلم ومزيد من التردي في هاوية التفسخ الاخلاقي الرهيب .

وراح سيد قطب يحث أبناء الاسلام على العـودة إلى الكتاب والسنة لمعرفة حقيقة الاسلام الذي يبيح متع الحياة ، لكن في إطار من الفضيلة ، ويدعو إلى العلم والمعرفة والأخذ بأسبـاب التقدم والنهوض دونما سيطرة لروح مدمر شرير يمزق الانسان ويهدر كرامته ووجوده .

لقد عـاد الرجـل من أمريكا وفي نفسه ثورة على التمييز العنصري وازدراء للديمقراطية الزائفة وسخرية من أدعياء العدالة والحرية ، فازداد لذلك كله تقديره للاسلام ومحبته وإعجابه بكل ماجاء به من قيم وما دعا له من تعاليم .

وأقبل الرجـل على الثقافة الاسلامية المختزنة ينهـل منهـا ويغترف ويعب ولا يرتوي؛ حتى بلغ مجموع ساعات مطالعاته في اليوم عشر ساعات كحد أدنى للبحث والاطـلاع .

وقد أصدر بعد عودته من أمريكا مجلة باسم « الفكر الجديد » وكان يمولها معه صاحب مطبعة من الصالحين هو السيد « محمد حلمي المنياوي » حيث اتخذت المجلة طابع سـير واضح يتمثل في الهجوم على الاقطاع وهو في عنفوانه ، وتعرية استغلال « الباشوات » وهم في أوج النفوذ والسلطة ، وتحدي الرأسمالية الجائرة وهي التي كانت تحكم مصر يومذاك .

وكان اسم « الاشتراكية » يتسلل إلى المجلة ويشيع في بعض سطورها ، ولكنها لم تكن تحمل المفهوم العلماني الذي ينادي بفصل الدين عن الحياة وحصره في ركن مظلم في تكية مهجورة ٠٠ بل كانت الروح التي تسيطر على المجلة أن تهاجم الرأسمالية وأن تحارب الاقطاع باسم الاسلام وعدالته ، يدعم ذلك كله آيات من الكتاب الكريم وأحاديث نبوية شريفة مما يحرم خزن المال وادخار الثروة وتكديسها في الخزائن دون نفع أو فائدة ٠

وفي هذه المرحلة لم يكن الفكر الاسلامي واضحاً لدى الكاتب وضوحه الحق بل كان مجموعة من المفاهيم العامة والمعاني العائمة التي تهاجم الظلم والظالمين ، وتدعو للعدالة والانصاف والأخذ بيد الضعفاء والمساكين والحد من سيطرة الطغاة على المستضعفين دون منهاج حركي فعّال أو تنظيم يحدد الغاية والوسيلة والمراحل!٠٠

خطوات على طريق الله :

ثم تبلور الفكر الاسلامي لدى الرجل واتضحت معالمه ، فقاده تفكيره إلى أن يقوم بتنظيم مجموعات من الشباب تعمل وفق برنامج محدد ومنهاج حركي شامل يدعو لاستئناف حياة اسلامية جديدة تحقق للمسلمين سعادة الدارين في وعي وعمق وكرامة ومنعة ٠

غير أن الاقدار ساقته إلى التعرف على العطاء الفكري والجيل المؤمن الذي رباه الاستاذ الامام « حسن البنا » مؤسس جماعة الاخوان المسلمين بمصر ، فلقي في الجيل الذي ربى بغيته ، ووجد في الفتية الذين نظّم ضالته ، فأهدى لهم أول عطاء له في الفكر الاسلامي ٠٠ وكان كتاب « العدالة الاجتماعية في الاسلام » الذي يقول في إهدائه :

« إلى الفتية الذين كنت ألمحهم بعين الخيال قادمين .. فوجدتهم في واقع الحياة قائمين .. يجاهدون في سبيل الله باموالهم وانفسهم ، مؤمنين في قرارة نفوسهم ان العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

إلى هؤلاء الفتية الذين كانوا في خيالي امنية وحلماً ، فاذا هم حقيقة اعظم من الخيال .. وواقع اكبر من الآمال .

إلى هؤلاء الفتية الذين انبثقوا من ضمير الغيب كما تنبثق الحياة من ضمير العدم ، وكما ينبثق النور من خلال الظلمات .

إلى هؤلاء الفتية الذين يجاهدون باسم الله ، في سبيل الله ، على بركة الله ، اهدي هذا الكتاب » .

وراح « سيد قطب » يعمل لتحقيق أهداف الجماعة التي تدعو إليها لاستئناف الحياة الاسلامية وتحكيم شرع الله في الأرض .

إن مثل هذا العمل الفذ من سيد قطب ليدل دلالة عميقة على إخلاص الرجل وصفاء نيته ، فلقد كان يبحث عن صف يعمل معه وتنظيم يتبنى الإسلام ، لاعن مجموعة من الناس يقودها وفئات من الشباب يرأسها كما يفعل الباحثون عن مظاهر الزعامة وكراسي الرئاسة هنا وهناك ، ولو كان في ذلك تمزق الأمة شيعاً وتشتتها أحزاباً .. كل حزب بما لديهم فرحون .

ولو أراد سيد قطب أن ينشىء تنظيماً جديداً ويقيم حركة ثانية غير حركة الاخوان المسلمين للقي من السلطة كل دعم ومن الحكام كل عون .. سيما وكان الاخوان يومئذ على أبواب محنة عاتية لم يصمد فيها إلا الرجال الأشداء ..وكان من نتائجها .. أن يلقى حسن البنا مصرعه وينال الشهادة برصاص الغدر الحكومي والظلم الملكي في أعرض وأطول شارع من شوارع القاهرة .. وقد أبعد الاطباء عن مراكز الاسعاف وأطفئت الأنوار في الشوارع المجاورة حتى لا يُرى للجريمة ملامح.. ولا يقود إليها دليل .

وهكذا كانت صلة الرجل بالجماعة إعجاباً ، فاتصالاً ، فانتظاماً في الصف عقب عودته من الولايات المتحدة عام ١٩٥١ ، فمسؤولية قيادية يتولى أمرها ، ويحمل عبئها حتى لقي وجه الله .

وواضح أن إهداء سيد قطب كتابه « العدالة الاجتماعية في الإسلام » يمثل مرحلة جديدة من حياته فيها من التطلع للتنظيم والتفكير في العمل الحركي ما ألجأ السلطات المصرية الحاكمة أن تحذف الاهداء من الكتاب مرتين..مرة من الطبعات التي تلت

محنة الاخوان المسلمين عام ١٩٤٨ على يد فاروق وحكومة ابراهيم عبد الهادي ، ومرة من الطبعات التي تلت محنتهم عام ١٩٥٤ على يد رجال الثورة !

ولقد أحببنا أن نعقد في ختام هذا الكتاب مقارنة سريعة موجزة بين حسن البنا وسيد قطب لنريح الذين يطيلون في البحث والجدل حول أهميـة الرجلين بالنسبة لجماعة الاخوان المسلمين ، وأيهما أكثر نفعاً للأمة الاسلامية وعطاء لشبابها ، فجاءت مقارنة متكاملة بين الرجلين أحسب أنها تغني عن الكثير مما يدور على الألسن أو يكمن في قرارة الأنفس الحائرة •

ويقيني لو اكتفى سيد قطب من ثقافته الاسلامية ودراساته القرآنية بوضـع الكتب وتصنيف المؤلفات كما فعل غيره من رجال الفكر والسياسة والأدب لما لقي ما لقي من أذى ، بل لترك في أرض الكنانة يقول ما يشاء ، ويكتب ما يريد •• ومن هنا فإن تحرك الرجل ليكون مع تنظيم يخرج الفكر عملاً إلى حيز الوجود هو الذي جرّ عليه البلاء وأكرمه بالشهادة •

وفي عام ١٩٥٢ فور خروج رجال الاخوان المسلمين من معتقلات فاروق انتخب الاستاذ سيد قطب عضواً في مكتب الارشاد للجماعة وعين رئيساً لقسم نشر الدعوة في المركز العام للجماعة •

ثم انتدبته لجنة حلقة الدراسات الاجتماعية المصرية ليمثلها في مؤتمر حلقـة الدراسات الاجتماعية المنعقد في دمشق بتاريخ ٢ آذار سنة ١٩٥٣ ، فألقى فيه عدة محاضرات أبرزها « التربية الخلقية كوسيلة لتحقيق التكامل الاجتماعي » •• وما أن انتهى المؤتمر من دراساته ولجانه حتى اتجه الشهيد لزيارة الاردن غير أن السلطات الاردنية على الحدود منعته من دخول الاردن بأمر من القائد الانجليزي « كلوب » الذي كان يومذاك يحكم في الاردن كما يشاء •

وفي الثاني من شهر كانون الاول سنة ١٩٥٣ انتدب مكتب الارشـاد لجماعة الاخوان المسلمين في مصر الاستاذ سيد قطب ليمثل الجماعـة في المؤتمر الاسلامي الشعبي المنعقد حينئذ في القدس •• ولولا أن وفود المؤتمر كانت يومذاك في زيارة

جماعية وأن منعها أو منع بعض أعضائها من الدخول يحدث ضجة ويترك أثراً سيئاً عاماً لحيل بين الرجل وبين الدخول مرة أخرى إلى مدينة القدس التي يحب ٠٠ ومن أجلها يعمــل ٠

نهاية مشرفة وحسن ختام :

وفي الخامس من شهر تموز سنة ١٩٥٤ وقع اختيار قيادة الاخوان المسلمين في مصر على الرجــل ليكون رئيساً لتحرير جريدة الاخــوان المسلمين إلى أن أغلقت الصحيفة في العاشر من أيلول سنة ١٩٥٤ ٠ حيث راحت تتبنى معــارضة الاتفاقية المصرية البريطانية التي عقدها رجال الثورة مع رجال الحكومة البريطانية ٠

وهنا سيق الرجل العالم والمفكر الاسلامي الصــابر إلى حجرات التعذيب وسراديب الجريمة ، وزجّ به في زنازين سجون « القلعة » و « السجن الحربي » و « أبي زعبل » و « ليمان طرة » ولكنه ظل صابراً محتسباً لايخضع لظالم ولا يلين لطاغية مما أثار دهشة الجلادين وأوغر صدورهم عليه بالحقد والكراهية ٠

وفي اليوم الثالث من شهر أيــار سنة ١٩٥٥ نقــل إلى المستشفى العسكري للمعالجة مما أصابه من آثار التعذيب والأمراض المختلفة التي خلفها سجنه الرهيب في جسده الطاهر :

مرضاً صدرياً ، وأزمة قلبية ، و « روماتزم » في معظم أعضاء جسمه المعذب المكدود ٠

وفي الثالث عشر من تموز سنة ١٩٥٥ حكمت محكمة الشعب أو قل « مهزلة الشعب » على الرجل المبتلى والعالم الرباني بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً مع الاشغال الشاقة ٠٠ وكان الحكم غيابياً لعدم استطاعته حضور الجلسة من جراء ما أصابه من إعياء ومرض وتعذيب !

وفي العاشر من أيلول سنة ١٩٥٥ علق اسم المفكر الاسلامي المجاهد في لوحة شرف في كلية الشريعة بجامعة دمشق مع أسماء العلمــاء والمفكرين الاسلاميين في القرن العشرين ٠

وفي السجون كان العالم الممتحن يقسم وقته حين يخف عنه التعذيب ويرتفع البلاء بين تنظيم صلته بالجماعة التي آمن بأهدافها وعمل على تحقيقها ، والتأليف أو تنقيح ما قد كتب من قبل مما يحتاج الى تنقيح وتوضيح حين يلين الموقف بعض الشيء وتخف وطأة العذاب على أيدي جلادي الكرامة والحرية !!

وبعد مضي عشر سنوات من سجنه أفرجت عنه السلطات المصرية سنة ١٩٦٤ بعد التدخل من رئيس الجمهورية العراقية الرئيس عبد السلام عارف يومذاك .. ولكن الطغاة ما لبثوا أن أعادوه إلى السجن مــن جديد ، وكانت التهمة الجديدة المفتراة : الإعداد لانقلاب مسلح .. مع حشد من التهم المضحكة المتهافتة التي سخرت من العقل العربي الضائع يومئذ في تيه الصنمية والغوغائية .

ولو قدّر للعقل العربي أن يعود اليوم في إنصاف وتدبر لما كان يشاع وينشر من التهم الهزيلة المفتراة .. لواجهه العجب العجاب :

الاخوان المسلمون يتآمرون لتولي نظام الحكم في مصر بعد أن ينسفوا السد العالي ويغرقوا مصر بمياه النيل ويحرقوا الجامعات ويدمروا المستشفيات ويهدموا المصانع ويقتلوا أبناء الشعب الابرياء !!

ترى .. أي بلاد سيحكمون بعد ذاك .. وأي شعب سينقذون من طغيان الطغاة وحكم المستبدين ؟!

لقد أمضى سيد قطب عامين جديدين من الابتلاء في سجون الطغاة ، ونال من العذاب على أيدي الجلادين مالايحتمله إلا أولو العزم من الرجال .. وهو ما سوف نأتي على ذكره عند الحديث عن « الابتلاء بالنعمة والنقمة معاً » .

وزيادة في النكال والابتــلاء زجــوا بأسرة الرجل وبعض ذوي أرحامه في السجون ، فاستشهد منهم ابن أخت له هو المرحوم « رفعت بكر الشامي » الطالب في كلية الجيولوجيا بجامعة القاهرة ..

ومرة أخرى قدّم العالم الداعية سيد قطب لمحاكمة صورية هزيلة في محكمة ساخرة لم ترع لقانون حرمة ولا لانسان كرامة ، فحكمت عليه بالاعدام مع فريق من الرجال الابرار الذين تتلمذوا على منهاجه الفكري وسلوكه العلمي .

وخرج الرجـل من قاعـة المحكمة ببسمة المؤمن الواثق من قدر الله وأسرار حكمته ، والناس من حوله بين ظالم أعماه حب السيطرة والاستعلاء والرغبة في تنفيذ مآرب أعداء الأمة ومظلوم يهدر في أعماقه سيل التحدي للباطل بين جنبات مصر .. أو السجن الاشتراكي التقدمي الكبير !!

ولم تجْدِ كل التدخلات والصيحات والنداءات الشعبية والرسمية من شتى أنحاء العالم الاسلامي لمنع المذبحة البشرية أن تقع والدم الذكي أن يراق .

وفي صبيحة يوم ٢٩ آب (أغسطس) عام ١٩٦٦ م سيق العالم الرباني والداعية المؤمن إلى ساحة الاستشهاد ، فلقي الله مـع صحبه راضياً مرضياً ، ليضيف صفحة مشرقة في ملحمة الجهاد والاستشهاد .. على أرض الكنانة وما من ذنب لهم إلا أن يقولوا ربنا الله .. وأن يدعوا الأمة أن تعود إلى دينها لتستأنف مسيرة الخير والبر والرحمة في حياة اسلامية جديدة وارفة وتشريع رباني عادل قويم ...



سيّد قطب
الداعية الشهيد

سيد قطب الإنسان

حين أتناول القلم لأكتب عن « سيد » الإنســـان فيكفي أن أقول عنه : سيد المؤمن ؛ ذلك أن من تمام إنسانية الإنسان أن يكون مؤمناً يحترم عقله ويجل تفكيره عن التردي في مهاوي الضلال ومتاهات الهوان .

ومع ذلك فإني أرى أن أسجل للتاريخ والأجيال جوانب من صفات الرجل الذي لقي الله كأحسن ما يلقى المجاهدون ربهم وأكرم ما يلقى الشهداء نهايتهم الزكية النقية بإذن الله .

كان ـــ يرحمه الله ـــ سوي السلوك صافي النفس عف الخلق ، لم تشبه شائبة ولم يعرف عنه ما يشين حتى في أيام شبابه الأولى ؛ على الرغم من أنه مات دون أن يأنس بدفء البيت وحنان الزوج وسكن الأسرة .

وكان ـــ عليه من ربه الرحمة وله من خالقه الرضوان ـــ متواضعاً يعامل الكبير بتقدير والصغير بحنان فطري غامر ، وقد شهد له بذلك من كان له به صلة أو كان له معه لقـــاء .

شهد له أمجد الزهاوي كبير علماء العراق رحمه الله وعلال الفاسي من رجالات المغرب العاملين في حقل الإسلام رحمه الله ، وكانا يرافقانه في رحلة إلى مدينة القدس ليشاركا في اجتماعات المؤتمر الاسلامي الذي انعقد فيها في نهاية سنة ١٩٥٣ .

وكان سيد ـــ كما عرفه محبـــوه وشانئوه معـــاً ـــ عف اللسان لايلفظ بذيء القول نابي الكلمة ، ولا يقسو على أحد حتى ممن يخالفونه في الفكرة ولا يرون رأيه ؛ مما كان يكسبه محبة الجميع وتقدير الذين تجمعه بهم ندوات الفكر أولقاءات الرأي المتبـــادل .

أما شجاعته فقد فاقت حد التصور البشري العادي حيث كان مثال الشجاعة النادرة وهو يهاجم الطغيان في عنفوانه ويسخر من حكم فاروق في عهده وسلطانه ،

يوم كان الكثيرون من حَمَلة الأقلام يتمرغون على الأعتاب ويرجون الرضى من صاحب الأبواب الموصدة العالية !

لقد هاجم الشهيد الطغيان في عهد الثورة ولم يؤثر فيه ترغيب كما بينـا ولا ترهيب ، وحين أصر قضاة المحكمة المهزلة التي حاكمته في القاهرة على أن يقـول الحقيقة كما يريدونها هم أقدم على تمزيق قميصه بجرأة في قاعة المحكمة ، وكشف عن آثار السياط والكي بالنار وموضع أسنان الكلاب البوليسية المتوحشة في ظهره ، وأدار ظهره للجمهور والقضاة معاً ليقول لهم بسخرية وتهكم وازدراء :

ـ تريدون الحقيقة ؟ .. هذه هي الحقيقة إن كنتم تبحثون عنها يا طغاة !

ومن أروع مواقفه في الشجاعة والثبـات أنه لم يشِ بأحد من اخوانه الذين تعاونوا معه على البر والتقوى وعملوا في صحبته من أجل إعلاء كلمة الله ، وإنما كان ينسب كل شيء لنفسه من كتابة المناشير التي ترفض الباطل وتأبى الهوان وغير ذلك من أعمال التنظيم ، وكان يدّعي قيامه بطباعتها وتوزيعها حتى لا يكون سبباً في إيذاء أحد من الناس .

وحين أفرج عنه يوماً في بعض مراحل المسايرة ــ وما أقلها ــ قام رجال العهد الأسود البائد في مصر الثورة باعتقال أخيه محمد ، فأصر على تقديم احتجاج لرجال الحكم العسكري على ذلك الاعتقال رغم أنهم هددوه بأن الاصرار على تقديم مثل تلك المذكرة سيكون سبباً في أذاه والايقاع به من جديد .. وقد كان !!

أصر الشهيد على الحق ، واستعلى على الباطل ، ورفض أن يوقّع سطراً واحداً فيه اعتذار للطغاة ولين معهم ، حين أغروا بعض المقربين منهم أن يراجعـوا السجين العليل لعله يلين فيكتب سطر اعتذار أو عبارة مجاملة .

وقال كلماته التي ذهبت في دم الجيـل المسلم ناراً ونوراً يبعث الهمة ويحيي موات الأنفس :

إن السبابة التي اشهد بها في كل صلاة انْ لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله لايمكن ان تكتب سطراً فيه ذل او عبارة استخذاء .. فإن كنت مسجوناً بحق فـانا ارضى حكم الحق وإن كنت مسجوناً بباطل فانا اكبر من ان استرحم الباطل !

ولقي الرجل وجه الله راضياً بعدأن استمع إلى حكم المحكمة وقابل ذلك ببسمة فيها كل معاني السخرية من الطغيان والرضى بقدر الرحمن •

وكان ـ يرحمه الله ـ على شجاعته وقوة شكيمته وثبات جنانه مهذب النفس، رقيق الشعور فما كان يخاطب المرشد الصابر الاستاذ حسن الهضيبي إلا بقوله : سيدي الوالد •

وكان لايتكلم في مجلس فيه المرشد إلا بعد استئذان ، وإذا انتهى الكلام إلى المرشد في حفل أو جمع كان الشهيد لا يتكلم بعده •

وإذا ماجلس إلى أستاذه المرشد جلس كما يجلس التلميذ إلى أستاذه والمريد المؤمن إلى شيخه والابن البار إلى أبيه ، وقد كان ذلك يحدث في أكثر من مجلس وأكثر من موقف وأكثر من لقاء وعلى ملأ من الناس جميعاً •• يصنع ذلك بعزة المسلم وتواضع المؤمن الذي لايغره زخرف الحياة •

وكان أستاذنا الشهيد ـ يرحمه الله ـ إلى ذلك كله حييّا عند مخاطبة الناس أو الحديث إليهم ، بساماً ، يلقى إخوانه وزائريه وضيوفه وعارفيه باش الوجه طلق المحيا •

وكان سيد ـ يتغمده الله برضوانه ـ مرهف الحس يتأثر لما يصيب الانسانية من مآس وآلام سواء كانت المأساة فردية أو جماعية ، كما كان ذا عاطفة جياشة وإنسانية فريدة صافية •

ونستطيع أن ندرك مثل هذا الصفاء في إنسانيته والرفق بين جنبيه ونحن نطالع فقرات من رسالة بعث بها إلى شقيقته الأديبة أمينة قطب ، وقد طبعت بعنوان « أفراح الروح » وأحسب أن ما ورد فيها يصلح أن يكون منهاجاً للدعاة وأسلوباً للمصلحين في علاقاتهم مع الناس وصلاتهم بالآخرين :

« عندما نعيش لذواتنا فحسب ، تبدو لنا الحياة قصيرة ضئيلة ، تبدأ من حيث بدأنا نعي ، وتنتهي بانتهاء عمرنا المحدود !! •

أما عندما نعيش لغيرنا ، أي عندما نعيش لفكرة ، فإن الحياة تبدو طويلة عميقة، تبدأ من حيث بدأت الانسانية وتمتد بعد مفارقتنا لوجه هذه الأرض !!•

إننا نربح أضعاف عمرنا الفردي في هذه الحالة ، نربحها حقيقة لا وهماً،فتصور الحياة على هذا النحو يضاعف شعورنا بأيامنا وساعاتنا ولحظاتنا . وليست الحياة بعدّ السنين ، ولكنها بعدّاد المشاعر . وما يسميه « الواقعيون » في هـذه الحالة « وهماً » ! هو في « الواقع » ، « حقيقة » أصح من كل حقائقهم ! .. لأن الحياة ليست شيئاً آخر غير شعور الانسان بالحياة.جرد أي إنسان من الشعور بحياته تجرده من الحياة ذاتها في معناها الحقيقي ! ومتى أحس الانسان شعوراً مضاعفاً بحياته فقد عاش حياة مضاعفة فعلاً ... »

ويبرز الشهيد قوة الخير وروح الإيجابية والبناء والعطاء في حيـاة الإنسان بفكر وأسلوب يبدو معهما الشر قميئاً هزيلاً لايقف في وجه الخير الأقوى والأعظم فيقـول :

« بذرة الشر تهيج ، ولكن بذرة الخير تثمر ، إن الأولى ترتفع في الفضاء سريعاً ولكن جذورها في التربة قريبة ، حتى لتحجب عن شجرة الخير النور والهواء ، ولكن شجرة الخير تظل في نموها البطيء ، لأن عمق جذورها في التربة يعوضها عن الدفء والهـواء .

مع أننا حين تتجاوز المظهر المزور البراق لشجرة الشر،ونفحص عن قوتها الحقيقية وصلابتها ، تبدو لنا واهنة هشة نافشة في غير صـلابة حقيقية .. على حين تصبر شجرة الخير على البلاء ، وتتماسك للعاصفة ، وتظل في نموهـا الهادىء البطيء ، لاتحفل بما ترجمها به شجرة الشر من أقذاء وأشواك ! ... »

ثم يتناول سيد قطب الإنسان الجانب الطيب المعافى في حياة الناس ، ويقودنا إليه ليضع أيدينا في يده نلمس بحنان غامر أخطـاء الآخرين وحماقاتهم كما يقول ، فيكتشف تحت ذلك كله جوانب الود والثقة والأمل في نفوس الكثيرين ، وقد فعل ذلك عبر كلمات نابعة من القلب والتجربة الشخصية الصادقة الأمينة :

« عندما نلمس الجانب الطيب في نفوس الناس ، نجد أن هناك خيراً كثيراً قد لاتراه العيون أول وهلة .. لقد جربت ذلك . جربته مع الكثيرين .. حتى الذين يبدو في أول الأمر أنهم شريرون أو فقراء الشعور ..

شيء من العطف على أخطائهم وحماقاتهم ، شيء من الود الحقيقي لهم ، شيء من العناية ــ غير المتصنعة ــ باهتماماتهم وهمومهم •• ثم ينكشف لك النبع الخيّر في نفوسهم ، حين يمنحونك حبهم ومودتهم وثقتهم ، في مقابل القليل الذي أعطيتهم إياه من نفسك ، متى أعطيتهم إياه في صدق وصفاء وإخلاص • إن الشر ليس عميقاً في النفس الانسانية إلى الحد الذي تتصوره أحياناً • إنه في تلك القشرة الصلبة التي يواجهون بها كفاح الحياة للبقاء •• فإذا آمنوا تكشفت تلك القشرة الصلبة عن ثمرة حلوة شهية •• هذه الثمرة الحلوة إنما تتكشف لمن يستطيع أن يُشعر الناس بالأمن في جانبه ، بالثقة في مودته ، بالعطف الحقيقي على كفاحهم وآلامهم ، وعلى أخطائهم وعلى حماقاتهم كذلك •• وشيء من سعة الصدر في أول الأمر كفيل بتحقيق ذلك كله ، أقرب مما يتوقع الكثيرون •• لقد جربت ذلك ، جربته بنفسي • فلست أطلقها مجرد كلمات مجنّحة وليدة أحلام وأوهام •• ! »

وفي تواضع جم يبدو سيد قطب الإنسان وهــو يعيش مع الناس ويحيا من أجلهم ، وقد اختار أقوم السبل وأكثرها وعورة وتعباً ، ولكنها سبيل مأمونة النهاية طيبة العقبى تجمع بين ما يبدو متناقضات ، ولكن في صورة من التناسق والتواؤم والانسجام حتى تبدو عظمــة الإنسان الحقة التي لاتبلغ مداها الغطرسة والكبر والتعالي على بني الإنسان ولو كانوا على غير هدى ولا تقوى •

وهو درس يسوقه الشهيد للدعاة المؤمنين أن يتواضعوا وأن يتعايشوا مع الخلق وأن يجعلوا قلوبهم ميادين لُقيا ووجوههم حدائق بسمات ، لا أن يستعلوا على الخلق بإيمانهم ، ويستكبروا على عبــاد الله بما يحسبونه تميزاً ومفاصلة لم يقصدهما الشهيد في كل ماكتب وما ذهب إليه من التميز والمفاصلة :

« حين نعتزل الناس لأننا نحس أننا أطهر منهم روحاً ، أو أطيب منهم قلباً ، أو أرحب منهم نفساً أو أذكى منهم عقلاً لانكون قد صنعنــا شيئاً كبيراً ••• لقد اخترنا لأنفسنا أيسر السبل وأقلها مؤونة !!

إن العظمة الحقيقية : أن نخالط هؤلاء الناس مشبعين بروح السماحة والعطف على ضعفهم ونقصهم وخطئهم ، وروح الرغبة الحقيقية في تطهيرهم وتثقيفهم ورفعهم إلى مستوانا بقدر ما نستطيع •

إنه ليس معنى هذا أن تتخلى عن آفاقنـا العليا ومثلنا السامية أو أن تتملق هؤلاء الناس ونثني على رذائلهم أو أن نشعرهم أننا أعلى منهم أفقاً •• إن التوفيق بين هذه المتناقضات وسعـة الصدر لما يتطلبه هذا التوفيق من جهـد هو العظمة الحقيقية » •

أليس هذا الفهم الواعي لمهمة الداعية المؤمن والمفكر الإنسان هو الذي يفرق بوضوح وصفاء وجدية هادفة بين الرياء والمجاملة ، وبين التواضع والهوان ، وبين عزة المؤمن الحقة وكبرياء الذين تقتلهم عقدة الاستعلاء ويسحقهم جنون العظمة ؟!

ولست بمنْه ٍ حديثي عن سيد قطب الإنسان قبل أن أشير إلى أوصاف «خَلقية» ذات علاقة بجسم الإنسان الذي يفنى وجسده الذي يبلى رغبة في معرفة عديد من الجوانب عنه جسماً وروحاً ، قلماً ولساناً ، خُلُقاً وخَلْقاً •

كان يرحمه الله رَبْعـة في الرجال ليس بالقصير ولا بالطويل وإن كان إلى القصر منه إلى الطول أقرب •

وكان حنطي اللون ، أسمر البشرة ، أجعد الشعر ، وقد عرف في لسانـه لثغة محببة في حرف الراء لاتؤثر على ماعرف عنه من إشراقة أسلوب وفصاحة لسان وقوة بيـان •

إذا ما نظرت اليوم إلى شقيقه الذي يصغره سناً ، وتلميذه الذي أخـذ عنه : الاستاذ محمد قطب فكأنما تنظر إلى سيد في كثير من الوجـوه والجوانب الخيرة النيرة ، على ما بين الرجلين من تفاوت في السن وتعدد في الميادين التي ولجها هذا أو ذاك •

لقد مات سيد قطب الجسد فضمته أطباق الثرى بعد أن ضمت ملايين البيوت والقلوب في العالم أجمع ــ فكره النيِّر ، وثقافته الموسوعية الهادفة ، وروحه البانية التي سرت في صفوف الجيل المسلم المعاصر سريان العصارة في الغصن الرطب والرواء الندي في الثمر الذكي •

الابتلاء بالنعمة والنقمة .. معـاً

قد يثبت رجال للابتلاء حين يكون نقمة وعذاباً وآلاماً مبرحة فيسخرون من سوط الجلاّد وزنازين السجّان ، وقد يثبت رجال آخرون للابتلاء حين يكون نعمة ومالاً وجاهاً عريضاً ودنيا مغرية تُقبل بزخرفها وتدنو ببهارجها فلا ينخدعون ولا يذوبـون .

ولكنهم قليلون أولئك الرجال الذين يثبتون للابتلاء حين يكون نعمة ونقمة معاً ، يأتيهم هـذا بكل وسائل الترغيب وأساليب المغريات .. ويأتيهم ذاك بكل وسائل الترهيب وأساليب النكال والأذى !!

وسيد قطب قمة على هذا الطراز من الرجال .. وذاك الصنف من المجاهدين..

كان يمكن أن يكون شيئاً لامعاً بعد عودته من أمريكا ، لمَعان الذين يعودون مضبوعين تحف بهم أضواء الصحافة وتزفهم مكاتب الإعلام الغربي التي تتحدث عن عبقريتهم وتعرض تاريخ حياتهم وتتناول جوانب الابداع والعطاء لديهم ، ولكنه أبى أن يكون واحداً من حجارة الشطرنج التي يسخرها العقل الاجنبي لتكون مسؤولة عن فيران حقول التجارب في الجيل العربي المنكود ، وراح يعرّي أمريكا سياسةً واقتصاداً .. فكراً ونظريات تربوية !!

وكان يمكن أن يكون شيئاً هاماً أهمية الذين يلهثون وراء المناصب ، ولكنه انسحب بهدوء ووضوح وحزم مـن مكاتب هيئـة التحرير المصرية التي أسلموه أمر الإشراف عليهـا ووكلوا إليه أمور تنظيمها ، حين لمس من قرب أهـداف هيئة التحرير وغايات القائمين عليها من رجال الثورة الذين أرادوا أن يتحول الشعب إلى مجموعة كبيرة من الهتافة تسبح بحمد المنقذين من زعماء الأمة وحكامها الجدد . حتى إن أحدهم قد عاتب سيداً وإخوانه فيما كانوا ينادون به من هتافات التكبير والتحميد لله

وحده دون سواه ـ حين كانوا يطوفون بقرى مصر ومحافظاتها العديدة ، وقد كانوا يمنّون أنفسهم بهتاف يعلن الولاء لهم ونداءات بحياة ذوي الأسماء اللامعة والرتب العالية !!

وكان يمكن أن يكون ذا مكانة رسمية حيث عُرض عليه أن يكون وزيراً للتربية والتعليم ، ولكنه أبى حين أدرك أنه منصب يقصد به الترضية على حساب الدعوة والمساومة على حساب الفكر والمنهاج ، وكان على يقين أنهم لن يتركوا له مجالاً يبذر فيه بذرته ويتعهد نبته بالرعاية والنماء .. إنهم لن يخلّوا بينه وبين الأجيال يربيها .. وبينه وبين المنهاج يطبقه في واقع الحياة .

وكان يمكن أن يكون رئيساً لحزب أو قائداً لحركة يحف به المعجبون وتحيط به الجماهير من كل جانب تستمع إليه وهو يحدثها ويخاطب فيها العواطف ويستثير فيها الوجدان .

ولقد أتيح له ذلك مرتين : مرة يوم أن آمن أن الفكر لابد أن يحمله جيل ، وأن المنهاج لابد أن تتبناه جماعة ، وكان من الممكن أن يؤلف حزباً تدعمه الدولة ويتبناه السلطان ، لكنه كان يريد جيلاً مؤمناً وجماعة نظيفة ، فرأى ذلك في الجيل الذي رباه حسن البنا والجماعة التي أسسها على خشية من الله وتقواه . ومرة حين عرض عليه الطغاة أن يكون مرشداً عاماً للاخوان المسلمين ـ وكان يومئذ داخل السجن ـ فأبى أن يطعن مرشده الصابر على الابتلاء وقائده الثابت على الحق ، وسخر من العرض والعارضين والمساوم والمساومين !!

ومع ذلك فقد كان لامعاً ولكن بأصالة ، وكان هاماً ولكن بحق ، وكان ذا مكانة ولكن في هالة من النور والإشراق وعلى أسس من كرامة المؤمن الذي لايذل وعزة المسلم الذي لايهون .

ولما يئس القوم منه ، وأيقنوا أنه أقوى من الإغراء وأثبت من أن تدك صرحه البهارج وتنال من شموخه الغواية ، جردوا سياط العذاب وأججوا نار الفتنة ونصبوا خشب الجلد وألواح النكال ...

وسجل التاريخ العربي المعاصر صفحة سوداء مزرية في تاريخ الحكم العربي الثوري الاشتراكي لم تسجلها من قبل محاكم التفتيش ولا معسكرات الاعتقال في أبشع صورة عرفتها تلك المحاكم والمعتقلات !!.

وكانت الحرب في ثلاث جـولات طويلة رهيبة ، وثلاث مستويـات دنيّة هابطـة .

ومهما سردنا من القصص وأثبتنا هنا من الحكايات المرة السوداء فإننا لا نقدر على حصرها في كتاب ، ذلك أنهـا سجل تاريخ أسود طويل لتلك الفترة الرهيبة المزرية من تاريخ مصر المنكوبة .

غير أننا نعرض نماذج لما وقع وأنواعاً من العذاب ، أمثلة تساق لا حصراً تجمعه دفتـا كتاب ...

بدأوا بترويع الآمنين في بيوتهم والبحث في مخادع الحرائر وأسرّة الرضع بفوهات البنادق وأسنة الحراب .

ثم ساقوا الأبرياء إلى السجون ، وانهالوا عليهم بالضرب ، وصبوا في آذانهم أقذر الشتائم وأقذع السباب ، ومضى الطغـاة يحشرونهم في الزنازين وقد قست قلوبهم وتجردوا من كل مفاهيم الخير ومعاني الإنسانية ...

كانوا يُمنعون بين الحين والآخر من الوضوء والصلاة ، فكانوا يصرون على أداء الصلاة بتحريك الرؤوس ونجوى الأعين .. فأطلقوا في غرفهم أصوات الساقطات تغني وتعلو بالماجن الرخيص من اللحن والأداء ...

أما الناجون من السجن الباقون من الأهل في منازلهم فقد كانت ترصد عليهم الحركات والسكنات ، وتحسب عليهم الأنفاس ، وضراعات إلى الله تعلو وترتفع أن ينقذ الأبرياء من عذاب الظالمين وطغيان البغاة !!.

وتوالى الأذى ، وتتابعت صنوف العذاب ...

بدأوا بالصفع القاسي ، والركل بأعقاب البنادق .

ثم نصبوا خشبة الصلب التي يسمونها « العروسة » وقد كان السجين يشد إليها ويوثق منه العنق والقدمان واليدان فلا يتحرك لتنهال عليه سياط الجلادين بلا حساب !!٠

أما « طوق الثورة » فهو إبداع لم تسبق الثورة إليه بحق ! حيث كان رأس السجين يحاط بطوق من الحديد متسع بعض الشيء ثم يضم طرفاه بلولب يلف شيئاً فشيئاً والطوق يضيق ويضيق حتى يحس المعذب أن رأسه قد تفجر وأن عينيه قد خرجتا من المحجرين !!٠

ويأتي دور « زنازين الماء » ٠٠ ذلك أن سجون العالم تعرف السجن الانفرادي والزنزانة ٠٠ أما الثورة فقد ابتكرت زنازين لم تعرف إلا على يد الثوار الأحرار الذين جاؤوا لتحرير شعب مصر من هوان الاقطاع والرأسمالية !!٠

ولكي يعرف القارىء بعض الشيء عن هذا الابتكار الثوري الذي يدل على عقلية تقدمية مبدعة في عالم الاجرام لابد من بعض الوصف الذي يقرب له الواقع :

النصف الأسفل من الزنزانة حوض محكم من الاسمنت يملأ بالماء المثلج ٠٠ ينقل السجين إليه فيضطر للوقوف فيه إلى أن تتجمد أطرافه ويصبح جسده في درجة معينة من البرودة ٠٠ ثم ينقل فجأة الى زنزانة مشابهة وحوض مثيل ، ولكن بماء مختلف ٠٠ إنه في هذه المرة حار على درجة معينة من الحرارة ٠٠٠

أما ماذا يحدث للسجين بعد ذلك من جراء انتقاله من ماء إلى ماء ومن درجة إلى أخرى بينهما تفاوت كبير فهذا مالايسأل عنه الجلادون السفاكون ٠٠ إن قبور الثورة معدة جاهزة لاستيعاب كل الأبرياء المعذبين من أبناء الشعب على يد الثورة المنقذة والاشتراكية الظافرة !!٠

أما أعقاب لفائف التبغ المشتعلة فإن لها دوراً هاماً في تحقيق أهداف الثورة وغايات الثوار حين لايجدون لها مكاناً يطفئونها فيه غير الأجساد الطاهرة والصدور العامرة بحب الله ورسوله ٠ ولتغص النار في لحوم المؤمنين ولتبرز عظامهم ، وليسل منهم دم الآلام وصديد الانتقـام ؛ فإن فيه رواء ينبت بذور الثورة بأزهـار حب للتقدمية والاشتراكية ٠٠ وزبانية العذاب !!

والحرمان من الماء والطعام بطريقة وحشية وأسلوب بربري ، أمر عودت عليه الثورة أبناء الشعب وحققت به المساواة التي من أجلها قامت . وإذا كان الشعب خارج المعتقلات يشكو الفقر والفاقة ، فكيف يأكل هؤلاء المعتقلون ويطعمون ؟ وزيادة في النكال الثوري والخلق التقدمي ، كان الطعام يعد والماء تملأ به الأوعية ، فيؤتى به إلى الزنزانة ويعرض على السجين المعذب والمعتقل المحروم حتى إذا ما مدّ له يده أو تطلع له بعينه ، قذف الطعام على الأرض بعيداً عنه وأريق الماء فلا يبل به ريقه الجاف .. ولا يطفىء به جوفه الملتهب !!

وما دام موت الشعب أولى من حياته في عهد الثورة التي قامت من أجله فلابد من صنوف أخرى من العذاب تمزق لحمه وتريق دمه ، ليس آخرها على كل حال مشهد الكلاب البوليسية التي تسلط على أجساد الرجال والنساء على السواء وهي معلقة في « كلاليب » مثبتة في سقوف الحجرات تماماً كتلك التي تعلق فيها الذبائح لدى الجزارين في المسالخ وأسواق بيع اللحوم !!

والنفخ وسيلة تكريم للإنسان تقوم بها الثورة التي أعلنت شعارها : ارفع رأسك يا أخي !!. وحرصاً من الجلادين على فنية العمل وصحة السجين المعذب لابد أن يتم ذلك على يد أخصّائي خبير وبإشراف طبيب أقسم أن يبذل قصارى جهده لتخفيف آلام البشرية وويلات الإنسانية ..

ولذا كان يتناول الأنبوب المطاطي المتصل بمنفاخ آلي ويوصله عن طريق الشرج إلى جوف الإنسان المعتقل المحكوم عليه بالنفخ ويستمر النفخ والطبيب فوق رأس المعذب حتى يبلغ درجة ينفجر معها .. أو قبل ذلك بقليل .. ويتخذ من بطن الرجل طبلاً ينقر عليه وتوقع فوقه ألحان الثورة وأنغام الحرية .. والعابثون من الضباط الأحرار ومحظياتهم يتضاحكون ويتغامزون وهم يبذرون بذرة الكرامة في مجتمع الكفاية والعدل والاشتراكية !!.

هذه نماذج لبعض ما كان يجري من تجارب وما يطبق من عمليات على أجساد المؤمنين الذين قاتلوا اليهود في فلسطين ، وقاتلوا الانجليز في القنَال ، فجاءت ثورة

الأحرار تنتقم لليهود .. وتثـأر للانجليز .. ولكن بأسلوب تقدمي حديث وتحت شعارات من التحرير والثورية والاشتراكية !!.

إن الذي نعرضه هنا فوق ما يتصوره عقل الإنسان السوي الذي فيه بقية من خير وأثارة من روح إنساني .. ولكنها الثورة المبتكرة المبدعة التي قامت من أجل مزيد من الإبداع ومزيد من الكشف والاختراع لكل مايذل الشعب.. وما يسلب ماله ويدوس كرامته ويزوّر تاريخه المعاصر، فيجعل من جلاديه قادة أحراراً ، ومن منقذيه طلائع الفداء فيه ، مجرمين يذوقون أبشع ألوان الذل ويعيشون أتعس أيام الهوان!!.

* * *

أما المحكمة التي قدم لها الشهيد سيد قطب وإخوانه فليست جديدة على كل حال..لقد عرفتها مصر الثورة من قبل. كان ذلك عام١٩٥٤ حين قدمت العالم الشهيد عبد القادر عودة ، والمجاهد الشيخ محمد فرغلي ، وفريقاً من طلائع الفداء جزءاً من مسرحية ساخرة وتمثيلية دامية .. انتهت بهم إلى حبـال المشانق ، في الوقت الذي أعيد فيه ثلاثة عشر بحاراً يهودياً من بحـارة السفينة اليهودية (بات جاليم) إلى اسرائيل وألسنتهم تلهج بالشكر والثنـاء والدعـاء للثورة التي أحسنت معاملتهم وأكرمت مثواهم في جنـاح مفروش مؤثث مزود بكل وسائل الراحـة في السجن الحربي العتيد !!

وزيادة في تكريمهم .. وتقديم البرهـان والدليل على حسن نوايا الثـوار والأحرار كان الجلادون يمتعون « اليهود الضيوف » بجلد أبناء الشعب المصري تحت سمعهم وبصرهم .. والبحارة اليهود يستمتعون بالدجاج المحمر طعاماً والخمر شراباً في حِمى الثورة حامية الشعب .. صانعة الحرية !!

قد يبدو هذا خيالاً ، ولكنها الحقيقة التي هي أغرب من الخيال .. وقد يبدو هذا مبالغة ولكنه الواقع الذي يفوق حـد المبالغة ، نشرت معظمه صحف الثـورة يومذاك في معرض الحديث عما سمته جرائم الاخوان المسلمين .. وحسن معاملة الثورة لأسرى الدولة اليهودية !!

أما هذه المرة فقد أعلنت « مصر الثورة » بمناسبة زيارة المشير عبد الحكيم عامر إلى فرنسا ، وفي الوقت الذي كان فيه الشهيد سيد قطب يقدم للموت ـ أنّ قضية التجسس لصالح إسرائيل ، والتي اتهم بها المكتب التجاري الفرنسي بالقاهرة ، كأنها لم تكن ، وأخلي سبيل المتهمين عربوناً جديداً من الثورة والثوار على أن مطاردة الأحرار أولى من مطاردة الجواسيس ،وأن قتل الأبرياء من قادة الفكر ورجال العقيدة هو الهدف الأول والأخير من أهداف ثورة التحرير .. والطلائع الثورية !!.

ونعود إلى قاعة المحكمة .

لنلتقي بأعجب حلف يجمع بين القاضي والدفاع والنيابة العامة والجمهور .. حيث يتبارى الجميع في إلصاق ما يروق للسلطان من تهم وهم يسخرون من إنسان سلبوه كل مقومات الدفاع عن النفس وحرموه من أبسط مقومات الحرية !!.

إن القاضي في كل شرائع الأرض وقوانين الكون يسمع رأي النائب العام الذي يحاول إدانة المتهم ، ثم رأي الدفاع الذي يبذل جهده لتبرئة موكله ، ثم رأي المتهم إن رغب في ذلك وكان لديه ما يقول .

أما القاضي في محاكم الثورة العتيدة المتعاقبة فمهامه كثيرة ليس من بينها الإصغاء بتعقل والاستيعاب بإنصاف وتقصّي الحقيقة بتجرد ـ ليصدر الحكم بعد ذلك بنزاهة لايشوبها شائبة سوى عجز الإنسان عن إدراك الحقيقة وبلوغ الحق المطلق.

إن القاضي في محاكم الثورة التي ألفت قصتها ووضع حوارها وتم إخراجها على يد رجال المخابرات همه تنفيذ المؤامرة وسوق الأبرياء إلى حبال المشانق وزنازين الطغاة .. وإذا كان القاضي يقوم بدور الممثل الأول .. فالجمهور يقوم بدور « الكمبارس » ذلك أن كل خفقة في صدره ونبضة من دمه وخلجة في وجهه وكلمة ينطق بها .. كلها تعلن تحيزه وتؤكد أن الحكم صادر في مخيلته واضح في تصوره قبل بدء المحاكمة .. وكل ما يجري على ملأ من الجمهور تمثيل في استوديوهات دوائر المخابرات التي يسمونها محكمة الثورة !!

ولكي أقرّب الصورة للقارىء • •وأنقله إلى أجواء الإنصاف الثوري والعدالة الاشتراكية لابد من سرد وقائع ونقل ألفاظ وعبارات بعينها صدرت في قاعة المحكمة التي حكمت على الداعية الشهيد وصحبه الأبرار بالموت •

لايسمح للجمهور بالدخول إلى قاعة المحكمة إلا ببطاقات أعدت من قبل ووزعت قبل بدء المحاكمة بأسبوع على الأقل •• تماماً كتلك التي توزعها مؤسسات تلفزيونية معينة تختار بها نوعية معينة من الناس لتحضر برنامجاً من برامج الجوائز والمسابقات !!•

وإذا علمنا أن دوائر المخابرات الثورية هي التي تقوم بطبع البطاقات وتوزيعها أدركنا أي جمهور هذا الذي يحتل المقاعد في قاعة المحاكمة ويطلق النكات بين الحين والحين ، لينال من عرض متهم أو يهزأ بكرامة سجين ، بالاضافة إلى الضحك الصاخب المشترك الذي يطلقه الجمهور الكريم تجاوباً مع ما يطلق القاضي النزيه والحكم العادل من نكات بذيئة أو لغو حديث !!•

والنائب العام •• أو المدّعي العام •• إنه لايسوق الأدلة على الإدانة ولكنه يسوق عبارات السخرية والألقاب التي تبدأ (بالقطب الأغر) و (القطب اللامع) وتنتهي (بزعيم الاجرام وعصابة الارهاب الآثمة) •••

أما الأدلة والحجج فلا داعي لها •• ألا يكفي أن أبواق الاعلام المسعورة خارج القاعة وقبل يوم من المحاكمة قد مهدت الأجواء وأصدرت حكمها مسبقاً على المتهمين وأعلنت خيانتهم وطالبت أن يحكم بعضهم بالموت وبعضهم بالسجن المؤبد •• ومن الغريب العجيب أن تأتي مطالبة النائب العام منسجمة مع ما تطالب به الصحف وما ترجوه الاذاعة وما يرغب فيه التلفزيون •• وأن تجيء أحكام القاضي النزيه محمد فؤاد الدجوي[1] مطابقة منسجمة مع كل تلك المطالب وتلك الرغبات !!•

---

(١) اللهم لاشماتة . . مات محمد فؤاد الدجوي وحيداً في منزله ولم يعرف بموته احد إلا عندما انبعثت رائحة كريهة من جثته ملأت أجواء الحي الذي كان يعيش فيه (العدد ٢٧٥٣ من مجلة المصور الصادر في ٢٨ رجب ١٣٩٧ هـ الموافق ١٩٧٧/٧/١٥م)

ونقف بين يدي القاضي لنسمع العجب العجاب .

يسأل المتهم ، فإذا ما نهض البريء المعذب للإجابـة ، انطلق صوت القاضي يوفر الوقت والجهد ليقول :

ما فيش داعي .. خلاص ما أنا عارف أنت حاتقول إيه ، أنا أقول الحكاية ...

ويحاول المتهم أن يسرد جزءاً من الجواب على السؤال الموجه له ... فيقاطعه القاضي العادل بقوله : أيوه حتقول لنـا معالم في الطريق .. كفاية بأه .. اجلس مكانك ... [1] .

ومحامو الدفاع في قضية هؤلاء الأبرياء .. أمرهم لايقل عجباً وموقفهم لايقل غرابة .. إن مهمتهم في المحكمة تنحصر في كيل المديح لعدالة القاضي بعد دعاء خاشع أن يحفظ الله الرئيس المفدّى من كل سوء .. ثم لمحة عن تاريـخ الرئيس الذي سخرته العناية الالهية لرفع مستوى الشعب المصري وإنقاذه من الذل والمهـانة .. ويختم الدفاع خطبته بفقرتين هامتين .. الأولى اتهام السجين الذي يدافع عنه المحامي الأمين بالجنون أو المرض النفسي أو الكذب والحقد والغرور . والثانية يطلب بها رحمة المحكمة[2] .

لقد منعت السلطات الظالمة يومذاك عدداً من المحامين العرب الذين تطوعوا من السودان والمغرب والاردن وغيرها للدفاع عن المتهمين .

منعتهم من دخول مصر والمرافعة أمام محكمة الثورة .. في الوقت الذي تعلن فيه قرارات مؤتمر المحامين العرب أنه يحق لأي محام عربي أن يترافع أمام أية محكمة عربية .. ولم يجد مثل هذا القرار الجائر موقفاً منصفاً أو اعتراضاً كريماً من محامي التقدمية والثورية في كل أجزاء الوطن العربي المنكوب !!.

---

(١) الاهرام في ١٩٦٦/٤/١٣ .

(٢) الاهرام في ١٩٦٦/٥/٢ و ١٩٦٦/٥/١٧ و ١٩٦٦/٧/٢٠ م .

ولما لاحظ القائمون على أمر المحاكمة خـارج بناية المحكمة أن نشر وقائع الجلسة ولو مزورة مشوهة يطلـع الناس على جانب من الحقيقة ويبين لهم بعض الحق ٠٠ أمروا بمنع نشر وقائع الجلسات في الصحف ٠٠ وقد نسوا أنها جلسات علنية كما أعلنوا ٠٠ واكتفوا بنشر خبر لايتعدى أربعة أسطر يشير إلى أن محاكمة المتهمين مازالت جارية ٠٠ وأن الأحكام ستصدر قريباً ٠٠٠

ولو قـدّر للجمهور المبعد عن قاعة المحكمة أن ينفذ إليها وأن يحتل مقاعدها٠٠ لوجد كثيراً من مواقف الجرأة التي يعلنها الشباب المؤمنون والسجناء الأبرياء بأنهم أصحاب عقيدة ٠٠ وأنهم يعملون لخلاص ديارهم من كل طاغوت وإنقاذها من كل تبعيـة !!٠

لقد وقف الداعية الشهيد سيد قطب يسخر من المحكمة التي أمر قاضيها وطلب إليـه أن يذكر الحقيقة كما يريدها هو لا كما وقعت فقال ــ وقد كشف عن صدره وظهره الممزق بالسياط وبأنياب الكلاب البوليسية الثورية ــ :

ــ أتريدون الحقيقة ٠٠ هذه هي الحقيقة !!٠

فضجت القاعة بالاشمئزاز وأشاح الجمهور الوجوه ألمـاً وازدراء لما يقع في سجون مصر الثورة ٠٠ رغـم أن معظم جمهور القاعة من زبانية الثورة وزبائن المخابرات !!٠

كان الناس يتتبعون بلهفة ما يجري في محكمة الثورة ٠٠ وكانوا على علم من مجريات الحوادث وسرد الوقائع ولهجة القاضي والنيابة والدفاع ٠٠ بأن الموت ينتظر فريقاً من الأبرياء الذين نذروا أنفسهم في سبيل الله وإنقاذ مصر من هلاك محقق ٠٠

وجاء يوم جديد من أيام التاريخ الأسود لمصر الحديثة ٠٠ إنه في نفس الأسبوع الأخير من شهر آب الذي حكم فيه على سيد قطب وصحبه حيث قدمت السلطات المصرية الجديدة بعد كارثة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ مدير المخابرات العتيد الذي أوقع مصر في شبكة من الجاسوسية وأغرقها في مستنقع من الرذيلة كان يعب منه القـادة والسادة مـن سدنة الاشتراكية وحكمائها ٠٠ وراح « صلاح نصر »

يكشف من المخازي ــ وهو في نفس القفص الذي وقف فيه سيد قطب ــ ما يخفض الرأس ويندّى له الجبين !!•

وسيق إلى الزنازين التي ضمت طلائع الرجال وجموع المؤمنين الأبرياء جموع من المتآمرين على كرامة مصر والعرب والمسلمين حين أتاحوا لسلاح الجو الاسرائيلي تدمير سلاح الجو المصري الجاثم على المطارات المصرية لتركه بلا حراك ، ولينطلق من جديد تضليل جديد من السلسلة التي تأخذ حلقاتها بخناق بعض : ألحمد لله الذي أتاح للعدو أن يدمر الطائرات وهي جاثمة فيّ مطاراتها لينجو الطيارون [1] •

ولو استعرضنا أسماء أدعياء الثورية وجلادي الحرية واحداً واحداً لوجدناهم قد لاقوا أبشع مصير وأسوأ نهاية وهي ظاهرة تستحق البحث والدراسة والتأمل لو كانت قطعان المعجبين تعمل العقل قبل الحناجر •

لقد لقي جمال سالم نهايته في مصح عقلي •

ولقي عبد الحكيم عامر مصرعه منتحراً كما يقول خصومه أو قتيلاً كما يقول ذووه • وحشد شمس بدران وصلاح نصر وعلي صبري وسامي شرف ومحمد فوزي ومحمد صدقي وجمال الدين عفيفي ــ في نفس الزنازين التي شهدت عذاب سيد قطب وصحبه من الأبرار ••

أما كبيرهم الذي علمهم السحر فقد مني بهزيمة ما منيت بها أمة ونكب بعار في اليمن وفلسطين ما جرّ على الأمة كلها عاراً لاتمحوه الأيام •••

وما بالنا تتناول الرجال الذين تساقطوا واحداً تلو الآخر في ظلمات أفعالهم وسوء المصير •• والعهد كله صفحة سوداء وسجل حافل بالخزي والجريمة والعار ؟!

إن تاريخ مصر في عهد الثورة لو أعيدت كتابته من جديد لظهر من الحقائق ما يكشف حقيقة الأصنام التي ألهت نفسها في مصر حين أعلنتها فرعونية من جديد فكرة وعقيدة وأسلوب حكم ومنهاج حياة •••

---

(١) من هذيان هيكل في إحدى صراحاته .

إن الليالي الحمراء التي كانت تحيا والحفلات الداعرة التي كانت تقام في بيوت المحظيات والتي تناولت أخبارها محاكم الثورة فيما بعد على لسان المتهمين من الفريق المطارد المغلوب ، لتدفع بالشعب الذي نكب بفاروق من قبل أن يترحم على أيامه .. فلقد كان ملكاً فاجراً ظالماً ، وهؤلاء عصابة كبيرة من الملوك يحكمون مصر المنكوبة بالضلال والفجور والهوى !!.

هذه حقائق كشفتها هزيمة الخامس من حزيران قبل أن يحول الحول على مقتل الشهيد سيد قطب وصحبه [1] الذين راحوا ضحية مؤامرة دولية حاقدة ...

والذي نحب أن نؤكده ونشير إليه أن جريمة الثورة لاتنحصر في مقتل الشهيد سيد قطب واخوانه من قبل ومن بعد ، وإنما في حملة التشهير الظالمة والتشنيع المفترى على جند الدعوة أفراداً ، والجماعة المسلمة تنظيماً ، والفكر الاسلامي عقيدة أمة ومنهاج حياة ...

لقد ألصقوا بالمجاهدين الأبرار أبشع التهم وأسوأ المفتريات حتى تخطت الأكاذيب عبر وسائل الاعلام الثورية المسعورة إلى العمل الاسلامي العام والرسالة الاسلامية ديناً وعقيدة ونظاماً ، وساعد على ذلك صحافة مأجورة وأقلام صليبية يهودية في ديارنا تكتب بالحروف العربية !!.

لقد سلط الله الظالمين بعضهم على بعض فسقط في أتون العذاب ودوامة العار فريق .. ثم تبعه فريق آخر ، وكلٌ يعلن ما نالته مصر من المهانة والإذلال والاستغلال ما لم تسمع به من قبل ، ولم تر بعضه على يد طاغية في عهودها الكثيرة المتعاقبة !!.

إن أولى ما نختم به بحثنا هذا قرار الاتهام في محكمة الثورة بحق زبانية الثورة وكلمة رئيس المحكمة الختامية التي دمغ بها العهد وصفع بها فريقاً من الجلادين المنحرفين .. وأول الغيث قطر ــ كما يقولون ــ ثم ينهمر :

---

(١) كان مقتل الشهيد في ٢٩ آب ١٩٦٦ ، وكان عار الهزيمة في ٥ حزيران١٩٦٧ ، وكانت محاكمات صلاح نصر مدير المخابرات المصرية ومن معه من زبانية العهد في نفس الموعد : الاسبوع الاخير من آب ١٩٦٨ م !!

كان قرار الاتهام في قضية مخازي جهاز المخابرات العامة في مصر قد صدر يوم ٥ حزيران ١٩٦٨ وقد نشرته الصحف إذ ذاك متضمناً ما يلي :

« إن المتهم صلاح محمد نصر ارتكب خلال الفترة من منتصف عام ١٩٦٢ الى ٢٦ آب ١٩٦٧ في الجمهورية العربية المتحدة بصفته رئيساً للمخابرات العامة أفعالاً ضد المبادىء التي قامت عليها الثورة • وذلك بأن استغل نفوذه في تسخير جهاز المخابرات العامة لخدمة أغراضه وشهواته ، مما أدى إلى انحراف الجهاز في عهد رئاسته له وانصرافه عن أداء واجبه في خدمة الأمن القومي ، وإساءة سمعته لدى المواطنين •

وقد ارتكب المتهم في سبيل هذه الأغراض غير المشروعة الجرائم الآتية :

١ ــ تبديد أموال المخابرات العامة بتسهيل استيلاء الغير عليها في شكل منح ومكافآت ونفقات سفر ، كانت تصرف لبعض هؤلاء الاشخاص دون عمل يؤدى لصالح جهاز المخابرات •

٢ ــ استغلال نفوذه في الحصول على منافع ومزايا على حساب السلطات العامة لأفراد ممن كانوا يتصلون به بحكم وظيفته ، مقابل ماكان يحصل عليه من متع وشهوات خاصة •

٣ ــ ارتكاب جنايات هتك عرض باستغلال وسائل التصوير الفوتوغرافي السرية ، في استدراج بعض النساء والتقاط صور فاضحة لهن بطريقة الخديعة في مكان أعدّ لهذا الغرض ، للتوصل بذلك إلى تهديدهن والسيطرة عليهن لتمكينه من إخضاعهن لشهواته الخاصة •

٤ ــ الأمر بالقبض على بعض الاشخاص وحبسهم دون وجه حق وبدون أمر من السلطات المختصة •• والأمر بتهديدهم وتعذيبهم •

وخلص قرار الاتهام إلى القول :

« بناء على ما تقدم ، يكون المتهم قد ارتكب الجنايات التالية :

ــ جناية تسهيل استيلاء الغير على أموال الدولة المعاقب عليها بالمادتين ١١٢ و ١١٨ من قانون العقوبات •

ــ جناية هتك العرض بالقوة المعاقب عليها بالمادة ٢١٨ــ١ من قانون العقوبات٠

ــ جناية القبض على الأشخاص بدون وجه حق وتعذيبهم المعاقب عليها بالمادة ٢٨٣ــ٢ من قانون العقوبات » ٠

أما كلمة الختام في المحكمة فقد كانت لرئيسها الذي أعلن يقول :

« بالنسبة لقضية انحراف المخابرات العامة ، ثبت للمحكمة أن المسؤول الأول عن هذا الانحراف هو المتهم صلاح نصر رئيس المخابرات العامة السابق ، الذي كان يعد ــ بحكم وضعه وسلطانه ــ المسؤول الأول عن كل عمل تدخل فيه جهاز المخابرات بوسائل غير مشروعة ، كما أنه مسؤول عن استغلال وظيفته وسلطاته في أغراض شخصية غير مشروعة مما انعكس أثره على سمعة الجهاز وأضر بالأمن القومي للدولة ، وهو ما يعتبر خروجاً على المبادىء التي قامت عليها الثورة » ٠

« فقد تخلى رئيس المخابرات العامة السابق عن أداء واجبه في المحافظة على الأمن القومي ، وانصرف إلى العمل على تحقيق أطماعه وشهواته الخاصة ، واستغل في ذلك إمكانية جهاز المخابرات وطبيعة عمله السري ، بفرض سيطرته على أشخاص معينين لمآرب خاصة لاتمت للصالح العام بصلة٠ثم أراد تدعيم مركزه فسعى إلى إنشاء علاقات شخصية خاصة بينه وبين المشير عامر مكنت له من فرض سيطرته عليه ٠

وقد ظهر للمحكمة هذا الارتباط واضحاً من العلاقة الشخصية التي كانت قائمة بينهما ، مما مكن المتهم من الاستناد إلى مركز القوة الذي كان يمثله المشير والاعتماد عليه ، وإخفاء الحقائق عن المسؤولين ٠

« وقد كشفت تحقيقات قضية المؤامرة التي نظرتها المحكمة عن انحياز المتهم صلاح نصر إلى فريق المتآمرين بسبب هذا الارتباط الوثيق بالمشير ، تحقيقاً لمصلحته الشخصية باستمرار إخفاء انحرافاته الشخصية ، ولاتفاق مصلحتهما المشتركة في أن يعود المشير إلى السلطة ، ويبقى صلاح نصر في منصبه ، وتبقى أسرار حياتهما الخاصة في طي الكتمان ٠

ومن المؤسف أن تصرفات صلاح نصر الشخصية وانحرافه في سلوكه قد أدت إلى إساءة سمعة جهاز المخابرات العامة في نظر الشعب، بينما الواقع أن جهاز المخابرات وجد ليحمي الشعب من أعدائه في الداخل والخارج .

إن المحكمة وقد انتهت من نظر هذه القضية ، فإنها تطوي بذلك صفحة مضت بما فيها من مآخذ وعبر .

أما الحقيقة الثابتة ، فهي أن الشعب هو صاحب الكلمة العليا ، وأن جميع أجهزة الأمن تعمل في خدمة الشعب ، ويجب على الجميع معاونتها في أداء رسالتها ويجب تدعيمها لتؤدي وظيفتها القومية في ظل مبادىء الثورة وسيادة القانون » .

* * *

ويمضي سيد قطب .. شهيداً في عليّين بإذن الله .. ويمضي جلادو الحرية قتلة المجاهدين إلى مزيد من بؤر الرذيلة وظلمات العذاب يلقون أبشع نهاية .. وأسوأ مصير !!.

اللهم لاشماتة وأنت الذي تقول :

« ولا تحسبنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين ، مقنعي رؤوسهم ، لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ».

الأسباب الحقيقية لمقتل الشهيد

مهما اختلفت الناس في الأسباب التي أدت إلى مقتل الشهيد سيد قطب فإن إجماعاً يقع بين ذوي العقول النيّرة والنفوس الخيّرة أن ليس من بينها مفتريات الطغاة ولا أكاذيب المهرجين ، مما أثير حول التآمر والإفساد وغيرها من خيالات الإعلام المتهافت والفكر المنهزم .

ولكن المحلّل للموقف بصورة متكاملة وهو يقرأ للرجل ويطّلع على حياته وما خطه قلمه وقدّمه عقله من فكر وعطاء يستطيع أن يحدد الأسباب التي أدت الى استشهاد الرجل إذا قدّمنا عليها جميعاً قدر الله الذي لا يرد .

إن أعداء الاسلام لايرهبهم أمر مثلما يرهبهم أن يلتقي في مؤمن قيادة واعية وفكر مستنير ، ذلك أن القيادة الواعية بلا فكر ولا منهاج ولا تنظيم نوع من العبقرية الفردية تموت بموت صاحبها وتندثر ، والفكر المستنير بلا قيادة واعية ترف فكري مسطور في بطون الكتب .. فإذا التقت هذه القيادة الفذة بذلك الفكر العميق وضح المنهاج وقامت الحركة ونشط التنظيم الذي يقض مضاجع الغاصبين ويحرك منهم ما سكن من كراهية وما كمن من أحقاد ...

ولقد جمع سيد قطب بين القيادة الفذّة والفكر العميق .. فكان القرار المسبق المرتب المدبر أن تغتنم الفرصة الأولى ليكون رأس الرجل أول ما يقدمه عشاق الكراسي على مذبح الشهوات في هيكل الصنمية الثالوثية : صليبية حاقدة ، وشيوعية ملحدة ، ويهودية عالمية مدمرة !! .

ولو عاش سيد قطب قائداً فذاً بلا فكر ولا منهاج ولا تنظيم لكان واحداً من العشرات الذين يلتف حولهم المريدون ويحف بهم المعجبون ينفذون لهم ما شاؤوا ويقومون بما به يؤمرون .

ولو عاش سيد قطب مؤلفاً أو كاتباً أو أديباً أو مفكراً أو فيلسوفاً ـ لكان واحداً من العشرات الذين أثروا المكتبة العربية والاسلامية بكتب الأدب والفقه والفلسفة ، ولكان فكره مجرد ترف فكري تضمه صفحات الكتب ، لاروح فيه ولا حياة مالم يخرج إلى حيز الوجود العملي بالرجل القدوة والقائد الأسوة والجيل الذي يطالب بوضعه موضع التنفيذ في معترك الحياة .

لقد كان سيد قطب يعيش هذه الحقيقة ويعيها ، ومن هنا نراه يؤكد في أكثر من موضع من كتبه ومؤلفاته أن كل كلام لايعقبه عمل وكل فكر لاتسبقه أو تتوجه تضحية هو كلام مكرور وفكر مهدور لاخير فيه ولا بركة ولا عطاء :

« إنه ليست كل كلمة تبلغ إلى قلوب الآخرين فتحركها وتجمعها وتدفعها ، إنما الكلمات التي تقطر دماً ، لأنها تقتات قلب إنسان حي .

كل كلمة عاشت قد اقتاتت قلب إنسان ، إن الكلمات التي ولدت في الأفواه ، وقذفت بها الألسنة ، ولم تتصل بذلك النبع الالهي الحي فقد ولدت ميتة ، ولم تدفع بالبشرية شبراً واحداً إلى الأمام ، إن أحداً لن يتبناها لأنها ولدت ميتة والناس لايتبنون الاموات ، إن أصحاب الأقلام يستطيعون أن يصنعوا شيئاً كثيراً ولكن بشرط واحد : أن يموتوا هم لتعيش أفكارهم ، أن يطعموا أفكارهم من لحومهم ودمائهم ، أن يقولوا ما يعتقدون أنه حق ويقدموا دماءهم فداء لكلمة الحق .

إن أفكارنا وكلماتنا تظل جثثاً هامدة حتى إذا متنا في سبيلها ، أو غذيناها بالدماء انتفضت حية وعاشت بين الأحياء »[1] .

ونحن حين نتناول القيادة الفذة في سيد قطب إنما نلقي الضوء على جوانب من شخصية الرجل .

كان مؤمناً صادقاً .. نلمح ذلك في كل سطر كتب وكل حرف نطق به .. وقد توج ذلك كله بتطلعه إلى رحاب الشهادة واقتحامه ساحاتها بكل جرأة وشجاعة وطمأنينة وسكينة .

---

(١) كتاب دراسات اسلامية لسيد قطب .

وكان موثوقاً التف حوله إخوانه بين جدران السجن أو في جنبات المجتمع ، إنه حقاً « قطب » الجماعة والجيل ، كل يلتف حوله ويفتديه لو استطـاع بالغالي والنفيس ...

وكان مخلصاً داس بكبرياء كل مناصب الطغاة عن قناعة ، ورفض كل لين أو هوان يقوده إلى نعيم الدنيا ويحرمه من نعيم الآخرة .

أبى المساومة على كرامة الدعوة والداعية .. وقد أغرته السلطة بمنصب وزير المعارف في أعقاب قيام الثورة فأبى .. وعرضوا عليه منصب السكرتير العام لهيئة التحرير المصرية أول بذرة للحزب الواحد في مصر الثورة .

ولكنه عدَّ ذلك هراء ولغو حديث طالما مطالب الثورة تنحصر يومذاك في هتاف وصياح ومواكب تطبيل وتزمير .. وحاولوا خداعه فعرضوا عليه وهو سجين أن يكون مرشداً عاماً للاخوان المسلمين مكان المرشد الصابر حسن الهضيبي فسخر من تجار المساومة وأكد لهم التفاف الاخوان حول مرشدهم .. وأنه لن يكون سبباً في تفتيت الصف وتمزيق الجماعة .. ثم قال للطغاة ناصحاً : « أكون غاشاً حينما أقول إن الاخوان يجتمعون على غير مرشدهم حسن الهضيبي »[1] . ولما حاول مساوم السلطة أن يغريه بالخروج من السجن مقابل كلمات اعتذار يهديها للسلطان .. قال كلمته المشهورة الخالدة خلود الشهداء :

« إن كنت مسجونا بحق فانا ارضى حكم الحق ، وإن كنت مسجونا بباطل فانا اكبر من ان استرحم الباطل » .

وكان سيد قطب واعياً طالب بالحياد بين الكتلتين يوم كان ادعياء الحياد اليوم يعدون ذلك خرافة ، وأكد التقارب بين المعسكرين الرأسمالي والشيوعي يوم كان هذا التصور يعد في الأحلام ...

هذه هي ملامح شخصية الرجل إيماناً ووعياً وثقة واخلاصاً بها عاش وعليها لقي وجه الله ... أما أفكاره النيِّرة العميقة الناضجة فقد كانت منهاج حياة لأمة ومنهاج

---

(١) حقيقة يعرفها الذين رافقوا سيداً في سجنه . والكلمات منقولة عن (سيد قطب العالم الرباني) للشيخ عشماوي سليمان رحمه الله .

حركة لتنظيم .. وإذا التقت شخصية الرجل القائد بالمفكر الرائد .. فقد قام الرجل المربي الذي يجمع الصفوف وتلتقي عليه الأمة ، تنفض عنها غبار التخلف وذل التبعية وهوان المستضعفين !!

ومن هنا قال العدو الكبير للعدو الصغير .. وأمر السيد المتآمر عبده الخاسر أن ينفذ فعلته وأن يقدم رأس سيد قطب ومن معه عربوناً على التبعية الخانعة والولاء الذليل .

ومن الأسباب الواضحة التي دعت إلى وقوع المجزرة التي كان الشهيد على رأس ضحاياها أن الطاغية المصري العميل قد ساق جيوشه وأعد كتائبه وحشد سلاحه ليطهر اليمن من أهلها قبل أن نطهر فلسطين من اليهود ، وقد لاقى من الفشل والهزيمة والفضيحة والعار ما يحتاج معه إلى مسرحية يلهو بها الشعب وقضية يتسلى بها عن مأساة ابنائه ودماء شبابه التي سالت بها شعاب اليمن بلا هدف ولا حساب ، فكانت قضية المؤامرة المزعومة ومحاولة الاعتداء على حياة الرئيس المفدى !!.

ولم يقف الشهيد عند حد تعرية السياسة الأمريكية والأهداف الاستعمارية للدول الغربية التي التقى سفراؤها يوماً في أحد معسكرات الجيش البريطاني ، بفايد في منطقة القناة ليشيروا ــ أو يصدروا الأمر بتعبير أدق ــ لحكومة الملك فاروق أن تحل جماعة الاخوان المسلمين ، وأن تطارد أعضاءها وتنكل بالمنتسبين لها المتعاطفين معها ، وأن تصادر أموال الجماعة وممتلكات كثير من الأفراد ؛ بل راح الرجل عبر مؤلفاته يعرض ويعري ويشنّع على الفكر الماركسي والإلحاد بصورة علمية موضوعية مؤثرة هادئة ؛ مما أدّى إلى الحيلولة بين جماهير الشباب وبين الإيمان بمثل ذلك الفكر المنحرف أو الإقبال عليه .

ولقد حدثني من أثق به أن الأحزاب الشيوعية في عدد من دول البلاد الاسلامية التي زارها في آسيا تعتبر سيد قطب الخصم الأول للفكر الماركسي في المنطقة ؛ نظراً لما يعرضه من فكر إسلامي إيجابي يعصم الكثيرين من شباب الاسلام من الانزلاق في ضلالات الشيوعية وباطلها الزائف .. وهو ما يحس به رجال الدعوة في بلاد العرب وما يعونه منذ عرفوا الأحزاب الشيوعية والتقوا بالقائمين عليها عبر

ندوات الفكر وقـاعات المحاضرات •• أو في السجون والمعتقـلات في العواصم العربية العديدة ••

وإننا لانزال نذكر أن دعاة « القومية العربية » قبل أن يذوبوا في دوامة الفكر الماركسي في العراق كانوا في حوارهم الفكري مـع الحزب الشيوعي هناك عندما سيطروا على مقدرات البلد في عهد اللواء عبد الكريم قاسم لايجدون مادة يردون بها على الفكر الماركسي والنظرية « الدايلكتيكية » غير مؤلفات الشهيد وكتبه الكثيرة، لأن حديثهم عن الوحدة والوطن والشعب ما كان ليخرج عن شعارات جوفـاء وأحاديث فارغة لامفهوم لها تحتويه ولا إطار لهـا ينتظمها ، إلى أن تبين للأحزاب العربية التي تباهي اليسار أنها أقرب هدفاً وروحاً وغاية إلى الأحزاب الشيوعية منها إلى أية حركة إسلامية ، وأن القائمين عليها أقرب نفساً وسلوكاً إلى القائمين على الفكر الماركسي منهم إلى رجال الدعوة الاسلامية • وكانت الهيجة والهجمة على الاسلام ، وكان التسابق والمزايدة بين أحزاب اليسار العربي حول : من الأقرب للنص الماركسي، الأكثر إخلاصاً ، الأوعى تطبيقاً ، الأعمق فهماً للمبادىء اللينينية !!•

لقد ثبت بما يقطع الشك باليقين •• أن المؤامرة التي راح ضحيتهـا الشهيد وصحبه كانت تستهدف الفكر لا الجسد والتنظيم لا الأفراد •

وإذا لقي العدو ما يحقق أهدافه ، والغوغائية ما تسلّي به نفسها ، والانتهازيون مايزدادون به نفعـاً وهم يهرجون في مواكب النفـاق ويحرقون البخور في هياكل العبودية •• فلتكن الجماعة المؤمنة هي المشرّدة ، والرجال الأبرار هم الضحايا ، والفكر الاسلامي هو المطارد المضطهد •

ومن هنا كان اللقاء بين الشرق والغرب الحاقد على أن التخلص من الرجـل المجاهد بات مطلباً للعدو مهما اختلفت أهدافه وتعددت تسمياته ، وكان أن وقف « السيد الرئيس » يعلن من موسكو عندما كان يزورها عـام ١٩٦٦ أنّ ضرب الحركة الاسلامية والتخلص من قادة الفكر والرأي فيها بات أمراً مؤكداً ؛ حتى يطمئن السادة في « البيت الأبيض » و « الكرملين » معاً إلى أن حكام الشعوب الاسلامية في خدمة من يدفع ثمن دماء الأبرياء وكرامات الشعوب المغلوبة على أمرها المنكوبة بالطغاة المتكالبين على الحكم وكراسيه في هوان وصغار !!•

سيد قطب
الأديبُ الموَهوُب

اولاً ـــ القصاص :

- طفل مـن القريـة
- اشـــواك
- المدينة المسحورة
- قصص الأنبيـاء
- الأطيـاف الأربعة

ثانياً ـــ الشـاعر :

- الشاطىء المجهـول
- حلم الفجـر
- قافلـة الرقيـق

سيد قطب
الأديبُ الموهوب

لابد لنا ونحن نمضي للحديث عن « سيد قطب الأديب الموهوب » أن تتناول المنطلق التاريخي للأديب وأن نحدد بدء عطائه في الميدان الأدبي ، صحيفة كان ذلك الميدان أو محاضرة أو كتاباً مستقلاً ذا موضوع متكامل .

والذي يبدو لنا أن تفتح الشاب الأدبي في عطائه كان مبكراً منذ أن دخل دار العلوم ، فكان صاحب قلم ناشىء يكتب الخاطرة والفكرة ، كما كان يشارك في الندوات والمحاضرات فيها وهو أمر متوقع من شاب ذي موهبة جيدة واستعداد طيب وحفظ للقرآن منذ نعومة الأظفار .

وإذا قدّرنا للمولود عام ١٩٠٦ م أن يدخل المدرسة بعد سبع سنوات وأن يمكث فيها أربعاً ، وأن يمضي ثلاث سنوات في قريته بسبب اندلاع الحرب العالمية كما عرفنا من أيام طفولته في القرية ، وأن يقضي في المرحلة الثانوية أربع سنوات أخر أدركنا أنه دخل دار العلوم عام ١٩٢٤ وتخرج منها عام ١٩٢٧ ، ولم يكن لدار العلوم يومئذ صحيفة أو مجلة تصدر عنها إذ صدر العدد الأول من صحيفة الدار عام ١٩٣٤ م .

وبتتبع ما قد كتب الأديب الناشىء وأعطى نعثر على مقال عنوانه « العالم يجري » في العدد السابع عشر من مجلة الرسالة في عامها الأول وكان ذلك عام ١٩٣٣ م .

---

(١) راجعني بعد إعداد هذه الدراسة للاطلاع عليها والافادة منها شاب من خريجي كلية الآداب بالجامعة الاردنية هو السيد عبد الله عوض الخباص ، وقد أخبرني انه ينوي إعداد دراسة للماجستير موضوعها « سيد قطب الأديب » واحسب ان الشاب قد بذل جهداً مشكوراً في البحث والتقصي مما سيجعل رسالته مستوفية لكثير من جوانب العطاء لدى سيد قطب الاديب .

وفي العدد الثاني من صحيفة دار العلوم نعثر لسيد قطب على قصيدة بعنوان « مرّ يوم » وكان ذلك في شهر تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٣٤ م .

أما العدد الثالث الصادر في كانون الثاني (يناير) من الصحيفة نفسها فإننا نعثر فيه للأديب على قصيدة بعنوان « السر أو الشاعر في وادي الموتى » مع إشارة من محرر الصحيفة أن الأديب صاحب القصيدة مدرس بالمدارس الأميرية .

وفي الفترة نفسها يطالعنا للأديب عطاء آخر في مجلة المقتطف في عددها الصادر في ١ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٣٤ م ـ الجزء الرابع من المجلد الخامس والثمانين حيث نشرت له قصيدة بعنوان « الإنسان الأخير » مع إشارة في الهامش إلى أن القصيدة من ديوان للشاعر الأديب تحت الطبع يصدر في أول كانون الثاني (يناير) .. وبتتبع أعداد المقتطف نعثر في نهاية المجلد الخامس والثمانين ما يشير إلى أن الديوان قد صدر وأن عنوانه : « الشاطىء المجهول » وأنه الجزء الأول من ديوان الشاعر ، وأن الشاعر يعمل محرراً في جريدة الأهرام .

أما مجلة الثقافة المصرية التي أصدرها الدكتور أحمد أمين عام ١٩٣٩ فقد عثرنا في العدد الثامن والسبعين الصادر عام ١٩٤٠ على مقال نقدي للأديب سيد قطب يبدو أنه من بواكير عطائه النقدي وكان بعنوان : « على هامش النقد : دلالة الألفاظ على المعاني » .

ومع الرحلة الأدبية للقلم الفتي والأديب الشاب نمضي في صحف المقتطف والرسالة والثقافة ودار العلوم والكاتب المصري والكتاب ليطالعنا في عدد منها أو في كثير مما يصدر من أعدادها عطاء للأديب الذي نضج والقلم الذي أينعت منه أطيب الثمرات ؛ لكننا في عودة لما حملت لنا صفحات هذه المجلات نقف عند عطاءين بارزين مما قدم الأديب وأعطى :

الأول : مقال أو بحث طويل متكامل الموضوع نشرته صحيفة دار العلوم في عددها الرابع من السنة الخامسة الصادر في ربيع الأول ١٣٥٨ هـ الموافق نيسان (أبريل) عام ١٩٣٩ م وكان عنوانه « نقد مستقبل الثقافة في مصر » وسيكون لنا عنه حديث عند الكلام عن « سيد قطب الناقد المنصف » .

والثاني : مقالة نشرتها مجلة المقتطف في جزئها الثاني من المجلد الرابع والتسعين لعام ١٩٣٩ م بعنوان : « التصوير الفني في القرآن » وكانت المنطلق الأول للمكتبة القرآنية التي أشار لها الكاتب عند حديثه عن التصوير الفني أو مشاهد القيامة في القرآن وهو ماقاده إلى أن يتفيأ ظلال القرآن فيما بعد . وقد أوضحنا ذلك بالتفصيل عند الحديث عن « سيد قطب المفسر الملهم » .

وهكذا نلاحظ أن هذا الأديب الموهوب ماترك ميداناً من ميادين الأدب إلا وكان له فيه صولة وجولة توحي بموهبة فذة ذات عطاء إبداعي ، وتشير إلى تمكن الرجل من ناصية اللغة واحتوائه لرصيد ثر من مفرداتها وقدرته العجيبة على صياغة العبارة عفوية متينة مشرقة تنبض بالروح والحياة .

ومن هنا كانت قدرته على الانطلاق في ميادين القصة والشعر والمقال والخاطرة والبحث ، حتى بدا أثر أسلوبه الأدبي المشرق في كل ما قدم من عطاء فكري وإبداع علمي ولوحات أدبية يدعو الناس إلى العيش فيما يكتب والإعجاب بما يصنع لهم من نماذج حية ذات أبعاد وجدانية إنسانية أو أبحاث فكرية عميقة .

ولقد كان لسيد قطب مواقف أدبية عدة على صفحات الرسالة المصرية وغيرها وفي المنتديات الفكرية والأدبية دافع عبرها عن العقاد بقوة وهاجم فيها الرافعي بعنف عليهم أجمعين الرحمة ولهم من ربهم الغفران .

وما أحسب أن سيد قطب كان يعلم أن مواقفه تلك ستطوى فلا يرتاح لها أو يذكرها بنفس رضية ، إذ انتهى به المطاف الأدبي : بين جنبيه روح الرافعي لا روح العقاد ، وفي كفه قلم فيه من شفافية الرافعي وعذوبة طه حسين وعمق العقاد وجلده ، مما جعله يقوّم مدرسة أدبية وحده لها خصائصها الفريدة ومميزاتها الخاصة .

ولم يكن أسلوب أستاذنا بالمتكلف المعقد الذي يبحث عن حوشي اللفظ غريب المعنى ما يكد به الذهن ويجهد به التفكير ، ولا بالأسلوب السطحي الذي يجمع سوقي الكلم عامي العبارة مما يحشر في أعمدة الصحف بلغة أقرب إلى لغة العامة ، بل كان قرآني الجملة والروح ، إيماني الإيحاء والمعنى ، حتى جاءت كتابته فكراً عميقاً بأسلوب أدبي أخاذ وأدباً رفيعاً نابعاً من فكر مستنير وعلم غزير وثقافة واعية .

وعند الحديث عن (سيد قطب وطه حسين) أو (سيد قطب والعقاد) فلا بدّ من الإشارة إلى أن الشهيد قد عرف طه حسين يوم كان مديراً فنياً لمكتبه في وزارة التربية والتعليم وكان طه حسين مستشاراً في الوزارة[1] .

وقد أعجب به سيد وأظهر إعجابه في كتابيه (كتب وشخصيات) و (نقد مستقبل الثقافة في مصر) حتى إنه تمنى أن يأتي اليوم الذي يتسلم فيه الدكتور طه حسين زمام الأمر ليكون وزيراً للتربية والتعليم في مصر كما ورد في رسالته لصديقه الناقد المرحوم أنور معداوي[2] .

غير أن هذا الإعجاب المبكر لم يمنع سيداً من أن يأخذ على الدكتور طه حسين مآخذ تكشف الكثير من « نوايا » الرعيل الأول من حملة القلم العربي والفكر اليوناني والثقافة الفرنسية في مصر العربية لساناً ، المؤمنة وجوداً ، المسلمة حضارة قرآنية سامقة .

أما العقاد فقد اتصل به سيد قطب بعد ذلك وتتلمذ عليه وتأثر به أديباً وفكرياً إلى أن استقل رأياً وأسلوباً ، وصار صاحب مدرسة وحده لها من إشراق الأسلوب وعمق الفكر وعذوبة العبارة ودفء الكلمة الموحية مالم يعرف عن كاتب سواه في مستواه .

ومن هنا فلا غرابة أن يقول عنه العقاد :

« سيكون سيد قطب اعظم كاتب واديب بين المعاصرين » ..

وقد كان !

وبشيء من الوضوح والتحديد نستطيع القول أن تأثر سيد قطب بالعقاد لم يكن على المستوى الأدبي فحسب بل على المستوى الفكري كذلك ، حيث تأثر بأسلوب العقاد عمقاً وبطريقته جلداً ، وكان ذا إحساس مرهف مثله ، كما غرس في نفسه روح

---

(١) كان ذلك في مطلع الاربعينات .

(٢) ارسلها له في ٦ مارس (آذار) ١٩٥٠ م .

الدفاع عن الاسلام والبعد عن الإلحاد ورفض الماركسية لمناهضتها لروح الحرية ؛ وقد أشار الى ذلك الأستاذ العلامة أبو الحسن الندوي في كتابه « مذكرات سائح في الشرق » .

وكان لاتصال سيد قطب بالثقافة الأجنبية عبر « المترجمات » وبما كتب بالانكليزية منها لمعرفته بهذه اللغة أثر في موسوعيته وثقافته العامة في شتى جوانب المعرفة ؛ إذ أن في كل ثقافة ولغة فلسفة وفكراً يوسّعان آفاق المطّلع ويفتحان أمامه مزيداً من مجالات الأخذ والعطاء .

وكان العقاد ينظر إلى سيد على أنه خليفته فلم يصبح سيد كما أراد العقاد فحسب بل تخطاه وبذّ أستاذه في كثير من الجوانب ، ولئن كان العقاد قد اختص بالتراجم و « العبقريات » على وجه التحديد وخاض في الفكر الفلسفي المحض ؛ فقد قدّم سيد من الدراسات الاسلامية والفكر الاسلامي القرآني ما جمع فيه كما قلنا إشراقة طه حسين وروح الرافعي وعمق العقاد فكان مدرسة وحده . ولعل شهادة العقاد التي أوردناها في هذا الباب من أكرم ما ينصف به الرجل في ميدان الفكر والعطاء . .

ويقيني لو أن سيداً انصرف للأدب والشعر وحدهما لكان الأول في الوطن العربي ، ولكنه اتخذ الأدب أسلوباً ووسيلة يغلف به الفكر ويزين به الرأي ويعبر به عن عقيدة الحياة ؛ حتى جاءت كتاباته الفكرية العميقة مشرقة بالأدب عذبة التناول، وهو يرى أن الأدب ليس لذاته وإنما هو عمل إيجابي هادف ورسالة كريمة من رسالات الحياة الإنسانية السامية .

ويستطيع من يطالع كتب سيد قطب العديدة على تفاوت في تاريخ تأليفها أن يلمح عذوبة في عبارة الكاتب وإشراقاً في أسلوبه ظل يلازمه فيما قدم من كتب حتى في الفترة التي نضج فيها عطاؤه في ميدان الفكر الاسلامي الرحب ومجالاته العديدة العميقة .

كما نلاحظ أن الجملة القرآنية والعبارة العربية البليغة لم تكن لتفارق قلم الكاتب حتى يوم كان يكتب في غير الاسلام ويتحدث في غير مجال الإيمان .. وإنما في المجالات الأدبية الفنية الخالصة .

سيد قطب القصاص

كان لسيد قطب في عالم القصة ثلاثة كتب .. كل واحد منهـا يمثل جانباً من جوانب المذاهب الأدبية المعاصرة ...

طفل من القرية :

ففي « الواقعية » كتب قصة حياته « طفل من القرية » فجاءت على غرار الأيام لطه حسين ويوميات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، حيث صور الثلاثة الريف المصري أدق تصوير ، وقدموا حياة القرية والأهل في لوحات متكاملة وأطر رائعة من الأساليب الأدبية المشرقة المتباينة .

ولئن ركز طه حسين على مأساة الطفل الضرير الذي كانت تحيط به عوالم مجهولة يكتشفها بحسه المرهف ويقتحمها بفطرته الصافية .

ولئن ركز توفيق الحكيم على إبراز السذاجة والطيبة لدى الفلاح المصـري وفساد الإدارة في دواوين الحكومة عبر مشاهداته في أروقة القضاء حيث عـاش جزءاً من حياته في الريف .

فقد ركز سيد قطب في كتابه « طفل من القرية » على المدرسة في القرية وأبرز أحوالها وأوضاعها ومناهجها وأساليب التربية فيها وعلاقة المواطنين بها طلاباً وأولياء أمور ، بصورة تجعل من كتابه ذاك مرجعاً هاماً ودقيقاً يمثل حركة التعليم في تلك الفترة من عمر مصر بين الكتاتيب والمدارس النظامية .

يقول سيد قطب في وصف مدرسته التي فرح بالانطـلاق إليهـا والمضي إلى حجراتها المزدحمة بالصغار على تباين أعمارهم واختلاف عقولهم وبيئاتهم العائلية :

« ولما كانت المدرسة في حاجة إلى تأليف قلوب الأهالي والتلاميذ في أول فإنها قد اتبعت نظاماً عجيباً في تقسيم التلاميذ .

لم تكن درجة العلم والمعرفة هي التي تهيىء التلاميذ لإحدى الفرق ، ولكن كانت السن هي تعين الفرقة الملائمة للتلميذ . فالطوال هم المرشحون للسنة الرابعة ، ولا سيما إذا كانت شواربهم قد خطت ، ثم يليهم من هم أصغر منهم في السنة الثالثة، وهكذا حتى يصل الأطفال إلى السنة التحضيرية ، وهي التي تحضر للسنة الأولى .

ولكن هذه القاعدة لم تكن تتبع دائماً ، فأبناء الأسر المعروفة في القرية كانوا يحتلون مقاعدهم في الفرق العالية ولو لم تؤهلهم لذلك أجسامهم .

ولم يكن من النادر أن يحضر والد تلميذ ليحتج على وضع ابنـه في السنة الأولى بينما ابن فلان في السنة الثانية ، وهو ليس أقل منه مركزاً ولا ثروة . فيجاب طلبه في الحال ، وينقل الولد إلى السنة المطلوبة حتى لا يخدش شرف العائلة !!

وتبعاً لهـذه القواعد لم يكن بد من أن يوضع ـ وهو الطفـل ـ في السنة الرابعة من أول يوم ، ولا سيما أن ابن خالته في هذه الفرقـة ، ويحسن أن يجلس معه ليأنس به .

ولكن ناظر المدرسة أنس من والده شيئاً من التنوّر والمعرفة ، فرأى أن يحادثه بصراحة ، وأن يبين له أن من مصلحة الطفل أن يبدأ من السنة التحضيرية مع الأطفال ليستفيد ويسير في خطواته طبيعياً .. فاقتنع وتركه للفقيه وللعريف الذي كان معروفاً لدى الطفل جيداً ، لأنه هو الذي يقرأ في دارهم القرآن في شهر رمضان » .

ثم يصور لنا « ضابط الجمباز » الذي كان يمثل معلم التربية الرياضية في عدد من مدارس المحافظة والمديرية ، ويرسم لنا بريشة ساخرة الواقع التربوي الذي كان يعيشه الصغار في جنبات المدرسة :

« ولا بد من قصة أخرى عن ضابط الجمباز .. لم يكن بد لمجلس المديرية أن يتبع في مدارسه أدق قواعد التربية ، ولما كانت الألعاب الرياضية جزءاً لا يتجزأ من التربية لم يكن بد من أن يزاولها التلاميذ .. ولكن الفقيه كالعريف سواء لايعرف شيئاً عن هذه الألعاب الرياضية..وهنا اهتدى مجلس المديرية الى حل موفق سعيد.. أن يعين أحد جنود الجيش القدامى معلماً للألعاب الرياضية لجميع مدارس مجلس المديريـة !!

وعلى هذا « الضابط » ـ كما كان يسمّى ـ أن يطوف بهذه المدارس في القرى المتناثرة في المديرية على مدار العام ، فيصادف أن يزور المدرسة مرة في كل سنة ، ويصادف ألا يزورها بتاتاً .

ولما كانت قرية الطفل من أرقى القرى المجاورة ، وفيها أسرات كثيرة معروفة بحسن الضيافة ، وكان هذا « الضابط » يجد عند مجيئه للقرية ضيافة كريمة طوال اليوم ، واستقبالا رائعاً من أهلها ، لمجرد أنه « ضابط » قادم من البندر بحيث يصبح يوم وجوده في القرية بارزاً له طابع خاص ، ومحوطاً بحركات خاصة .. فقد دعاه هذا الى أن يكرر زيارته لمدرستها مرتين أو ثلاث مرات في العام » .

ويصف سيد قطب مدرسته في القرية فيعطي صورة دقيقة عن البناء والحجرات وتوزيع الطلاب وانتظامهم في فصول وسنوات وفق مقاييس عديدة لا تنضبط ومعايير عجيبة لا تستقيم :

« كانت المدرسة مؤلفة من ثلاث حجرات متلاصقة ، وأمامها بطولها فناء المدرسة وبه الباب الخارجي . وكان بها خمس فرق من التلاميذ موزعة كالآتي على الحجرات : الفرقة الرابعة وبها كبار التلاميذ وفيهم من تجاوزت سنه العشرين ؛ مع الفرقة الثالثة ـ وتلاميذها أصغر قليلاً ـ في حجرة واحدة ويعلمهم ناظر المدرسة .

والفرقتان الثانية والأولى في حجرة واحدة ، ويعلمهم المعلم الآخر ، والفرقة التحضيرية وهي في حجرة مستقلة ، وهذه يشرف على ثقافتها وتربيتها .. ابراهيم .. فراش المدرسة الوحيد !!

نعم ! فلقد كان ينهي عمله في كنس المدرسة ، وملء « القلل » التي يشرب منها التلاميذ من « الزيرين الكبيرين بالمِزيرة » ، ويمسح السبورات ويزود الحجرات « بالطباشير » اللازم ، ثم ينقلب مربياً يشرف على الناشئة في دور التحضير !!

وكان هذا وحده يكفي لتنفير الطفل من البقاء في السنة التحضيرية هذه . ويضاف إليه وجود ابن خالته في السنة الرابعة . وأبدى رغبته هذه للناظر ، وبعد مفاوضة اشترك فيها العريف استقر الرأي على أن يوجد في فصل ـ أولى وثانية ـ

الذي يتولى العريف التدريس فيه على أن يذهب في بعض الأحيان الى فصل السنة الرابعة للجلوس بجوار ابن خالتــه •• ولكن عندما يجيء المفتش إلى المدرسة فلا بد أن يجلس في السنة التحضيرية مدة وجوده !!

وكان العريف والناظر كلاهما حفيـًين به ولم يكن هذا عجيباً فجيوبه تحمـل لهما كل صباح كميات من السكر والشاي الذي يكلفون إبراهيم الفرّاش إعداد شراب لهما منه في الفسحة وبعد الغداء •

كما وأن والده دائم الضيافة لهما في الحين بعد الحين • ولهذا كله كانا يعنيان بالتدريس له على حدة داخل الفصل ، بكتابة الحروف الأبجدية ، ثم الكلمات ، ثم الجمل في لوحة الإردوازي وتركه لمحاكاتها • وكان يتقدم يوماً بعد يوم ، وهو يتلقى العلم في شبه درس خصوصي شأنه في ذلك شأن عدد قليل من التلاميذ الآخرين من أبناء الأثرياء في القرية الذين يجدون ما يجده من الرعاية والتدليل !

وفي نهاية العــام كان مؤهلاً لأن ينقــل إلى السنة الاولى فيجلس في مكانه الطبيعي ، وكان قد ألف جو المدرسة ، وبدأ يكون تلميذاً حقيقياً » •

* * *

ويمضي الكاتب عبر قصة طفولته يحدثنا عن المجذوب الذي كان يجوب طرقات القرية والناس من خلفه يتبركون به رغم قسوة العصا التي ينهال بها على أجســام الصغار والكبار على حد سواء •• وعن عم صالح الذي كان يهبط بين الحين والآخر يحمل كتباً منوعة ذات مستويات وأغراض وآفاق شتى ، تتناقلها الأيدي في دوّار العمدة وفي خدور الصبايا وعلى قارعة الطريق •• وكان كلٌ يجد بغيته في تلك المكتبة المتنقلة العجيبة !

ولا ينسى الكاتب العفاريت •• وأحــاديث الناس عنهــا وخيالهم الخصيب وأوهامهم التي تعشش في الرؤوس كلمــا غمر القريــة ودروبها سكون ووحشة وعتمة ليل •

* * *

ويصور لنا الكاتب أيام الحصاد والعطاء والبركة بأسلوب ينقلنا إلى الناس في بيادرهم ومنازلهم حتى لنحس أننا هناك نعيش مع المحرومين البؤساء والمستغلين الأقوياء ، ويصف لنا إحساسه وهو يحس باستغلال رجل من ذوي النفوذ وسيطرته على المحرومين ، كيف يسرق جهدهم ويعتصر عرقهم ليحيله دخلاً له وثروة ، والتعساء من الكادحين غارقون في الفقر والمذلة والحرمان .

يقول الكاتب :

« ولقد علم في هذه الليلة أشياء كثيرة .. علم أن اللحم في حياة القوم فاكهة نادرة يذوقونها في عيد الأضحى من العام إلى العام . وعلم أن السمن شيء غير معترف به في عالمهم ، فالزيت ــ وبخاصة زيت الخس الذي يكثر في جهاتهم بعض الشيء ــ يغني عن السمن في الطعام . وعلم أن القمح مادة لاعلاقة لهم بها ، ففي الذرة الكفاية ، إذا تحنن الله عليهم فرزقهم بخبز الذرة الغليظ الذي يحملونه الآن . وعلم أن السكر مادة يسمعون عنها في بيوت أثريائهم ، مثل الشيخ « محمد أبو عليم » هذا الذي يأمنونه على أموالهم وعائلاتهم في غيبتهم ــ فقد بلغ من ثرائه ومن نعمة الله عليه أنه قد ينفق في كل شهر « رأساً » من السكر في منزله ، وفي قهوة الضيفان الكثار الذين يؤمون هذه الدار !!

وعلم أن هذه القروش القليلة التي يرسلونها إلى أهليهم خمس أو ست مرات في العام هي دخلهم العائلي طوال العام، ينتظرونه بفارغ الصبر، اللهم إلا أولئك الذين « يبحرون » أي يذهبون إلى القاهرة وسواها ليعملوا « فعلة » فهؤلاء أكثر إيراداً لأن الواحد منهم قد يرسل إلى عائلته بالجنيه وبالجنيهين على مدار السنة !!.

وعلم أشياء وأشياء ، لم يتبين عمق آثارها في نفسه ، وقسوة وقعها على حسه ، إلا وهو يسترجعها الآن في الحين بعد الحين ، فيشعر في قرارة نفسه بالخجل ، ويحس لنفسه ولشعبه بالازدراء !!.

إنه سارق .. سارق لهؤلاء « الغرب » وأمثالهم من الملايين الكثيرة التي تنبت الذهب في الوادي وتجوع .. سارق .. ولو كان في الوادي قانون عادل لقاده إلى السجن قبل أولئك الذين يحسبهم « القانون » لصوصاً ومجرمين .

هذا هو الشعور الذي ظل يعاوده أبداً كلما جلس يتناول طعاماً دسماً ، أو فاكهة لذيذة ، أو حلوى أنيقة ، أو يتمتع بأيسر مباهج الحياة بين الملايين المحرومين » .

* * *

ويصور لنا الكاتب أحزان القرية من منطلق جديد وبمفهوم منبثق من تعلق الفلاح بأرضه وارتباطه بحقله .. فهو يصور دموع الأهل وأحزانهم والسواد الذي به يتشحون عند فقد عزيز .. ولكنه يصور الدمع والحزن والأنين والنحيب مجتمعة أعمق تصوير في صوت أمه ودموعها حين تعلم أن أباه قد باع جزءاً من أرضه وجانباً من حقله .. ومعنى ذلك أن ارتباط ذلك الانسان بالأرض قد ضعف وأن مستقبله في دياره مظلم ورهيب .. مالم تتداركه عناية الله بذرية صالحة تعيد له الأرض .. وتضيف إلى الحقل حقولاً أخرى .. فتحافظ بذلك على مكانة الرجل ليبقى بيته بيت عز وجاه وثروة ..

وعلى مثل هذه النية يعد الطفل للرحيل الى القاهرة ليتعلم عند خاله كي يصبح رجلاً يسعى لاسترداد الأرض التي بيعت والحقل الذي انتقص من أطرافه ..

يقول سيد قطب في آخر فصل من كتابه تحت عنوان « الرحيل » :

« آن له أن يهجر القرية فما عاد له فيها بقاء .. إن هناك مهمة تنتظره ، إنه مجند أعد للكفاح .. مجند لهذه المهمة التي أعدته لها أمه وأخفتها عنه ، منذ أول يوم ذهب فيه إلى المدرسة ، ثم كشفت له عنها يوم دخل عليها فرآها تبكي ! » .

إن عليه أن يسترجع للاسرة ماتفقده من مركز ومال ! تلك كانت الكلمات التي سمعها من أمه وهي تعده للرحيل .. للسفر إلى القاهرة عند خاله ليتعلم . فلقد بدأ يراهق وغادر مدرسة القرية منذ عامين ، ولولا الثورة وانقطاع المواصلات واضطراب الأحوال لسافر منذ ذلك الحين . ولكن هاهي ذي الحالة تهدأ ، وساعده يشتد ، والمهمة التي جُنّد من أجلها تستعجله ، فليسافر على بركة الله .

ولم يكن مثل هذا الأمل يراود أمه وحدها دون نساء القرية ؛ بل كان أملاً مشرقاً في نفس كل من كان لها ولد يتوسم الأهل فيه الخير ويقدر الأب على إتاحة فرصة التعليم له ليعود شخصية مرموقة وإنساناً جديداً ، بعد أن « فتح الله عليه » بالشهادة العالية ليكافح في الريف مــن جديد يستعيد المكانــة المضيعة والأرض المفقودة ..

لقد كانت قصة « طفل من القرية » من أجــود ما عرف في الأدب المصري من قصص واقعية حية تصور الريف بكل مافيه من خبث وطيبة ، وخرافة ووعي ، ومرض وعافية ، وحرص وكرم ، وانتقام وتسامح ..

* * *

والذي نلمحه ونقف عنده في « طفل من القرية » التأثر والإعجاب الشديدان بأسلوب طه حسين وطريقته في تصوير الريف المصري حيث يقول سيد قطب في تقديم كتـــابه :

« هذه صور من حياة القرية عاصَرَتَ طفولتي منذ ربع قرن من الزمان ، لم أنمق فيها شيئاً ، ولم أصنع أكثر من نقلها من صفحة الذاكرة إلى صفحة القرطاس» .

مثلما قال طه حسين قبله في تقديم شجرة البؤس :

« هذه صورة للحياة في أقليم مصر آخر القرن الماضي وأول هذا القرن نقلتها من صدري إلى القرطاس » .

ويبدو إعجاب سيد بكتاب الأيام لطه حسين وتأثره به وارتياحه إليه في أكثر من موقف وأكثر من تعليق حيث يقول :

« ما تكاد تقطع صفحات هذا الكتاب ، حتى تحس أنك تعيش في جو « الأيام » وتستنشق في هذا الجو ريح « الأيام » ، وأعتقد أنه بحسب كتاب ما أن يقال عنه : إنه يعيش في جو الأيام ، كما تشعر له نفسك بالود والكرامة والارتياح .

كثير من الوجوه التي التقيت بها هنا تلتقي بها هناك ــ مع فارق واحد ــ أنها ربما كانت هنالك تعيش على هامش القصة ، وهي هنا تعيش في الصميم ، و « شجرة البؤس » قد سبقت « الأيام » من الزمن حيناً وعاصرتها حيناً آخر . فذلك الاختلاف وهذا الازدواج هما اللذان يجعلان بعض الوجوه ترد في الهامش مرة وفي الصميم مرة ، ثم تزيد في « شجرة البؤس » وجوه أخرى جديدة بسبب هــذه الملابسات أيضــاً » .

ويزداد إعجاب سيد بأيام طه حتى لتحس أنه يغبطه عليه ويتمنى له عملاً أدبياً مثله إذ يقول في موضع آخر :

« قلت : إنك لاتلبث أن تحس بعد أن تقطع صفحات من هذا الكتاب الجديد أنك تعيش في جو « الأيام » وهذا صحيح في عمومه ــ ولكن هناك فارقاً بين هذا وذاك : أن الأسلوب هنا أقل شأناً منه هناك فقد كان المؤلف الكبير أكثر عناية به ، وأكثر تجويداً له . فاقترب به كثيراً من تلك الأساليب الفخمة الضخمة التي تقرؤها له في كتابه « على هامش السيرة » .

وقد يعجب هذا التجويد البارع عشاق الأساليب ، أما أنا فلا أتردد في تفضيل الاسلوب الهين اللين الساذج ــ تلك السذاجة الحلوة ــ كما كان في « الأيام » فهذه الحياة التي يصورها إنما هي حياة هادئة وادعة ، وهــذه الشخصيات التي يرسمها إنما هي شخصيات بسيطة ساذجة ، وقد كان جو الأسلوب في « الأيام » موافقاً لها منسجماً معها . أما الأسلوب هنا فهو عالٍ عنها مفترق منها ، وليس من السهل أن يدور بينها حوار فخم ضخم كالحوار الذي يدور بين شخصيات « على هامش السيرة » في غابر الأيام » .

ويبدو أن سيد قطب الأديب كان معجباً « بالأيام » إلى الحد الذي جعله يفضله على كل كتب طه حسين ، ويعتبره الكتاب الأول الذي لايوازيه كتاب لديه حيث يقول عن كتاب « على هامش السيرة » :

« وإنـه للكتاب الأول في أعمـال الدكتور ، لايوازيه في هـذا إلا كتاب « الأيام » [١] مما حدا به أن يتأثر بطريقته وينسج على منواله ليقدم لنا من الأدب الواقعي كتابه « طفل من القرية » حافلاً بالصور الريفية النابضة بالحركة والحرارة والحيـاة !

وما بالنا ننتقل من صفحة في كتب سيد وعطائه الأدبي إلى صفحة أخرى لنثبت تأثره بالدكتور طه حسين في « طفل من القرية » وارتياحه لأيامه •• وأمامنا إهداء سيد قطب إلى طه حسين ورجاؤه أن يتقبله « أياماً من الأيام » !!

اشواك :

وفي الرومانسية كتب سيد قطب قصته « أشواك » •• تلك التي تمثل حياته أو جانباً من حياته في فترة من فترات الوجدان الانساني العف ، حيث كتب الله لـه أن يتقدم لخطبة فتاة كانت تميل إلى شاب آخر من قبل ••

وفي مواقف شتى من الشك والثقة بين الشاب والفتاة •• وفي أحاسيس متباينة من الرفق والشدة تتم الخطوبة ويتم فسخها ليمضي كل في طريقه التي ارتضى ••

لقد أبدع سيد قطب وصوّر لنا بروح الانسان نماذج من الخلق وأصنافاً من البشر في تحليل نفسي يكشف عن كدر الأنفس وزيف المجتمع ؛ وهـو يدعو إلى مثالية صافية يحبها لنفسه ويحبها للناس الذين من حوله ، ولكن هيهات وكثير من الأنفس لاتحب إلا العيش الهابط في ظلمات الملق ومهاوي الرياء !!•

لقد انطوت صفحات « أشواك » على قصة حب طهور كان مصيره الإخفاق حيث يقول في إهدائها :

« إلى التي خاضت معي في الأشواك ، فدميت ودميتُ ، وشقيت وشقيتُ ، ثم سارت في طريق وسرتُ في طريق : جريحين بعد المعركـة لانفسهـا إلى قرار ولا نفسي إلى استقرار » •

---

(١) كتب وشخصيات ص ١٠٨ لسيد قطب . الناشر « دار الكتب العربية » ببيروت .

ولقد أحدثت القصة بعد صدورها ضجة في دنيا الأدب لقوة موضوعها وروعة الأسلوب الذي كتبت به • وأحس اليوم وأنـا أطالع القصة من جديد أن روح الإيمان وأسلوب القرآن كان ينساب في ثنايا القصة ويشيع في جنباتها ، مما يوحي أن لدار العلوم فكراً ولغة وثقافة أثراً لايمكن إغفاله أو تناسيه •

يقول : « ثارت العاصفة وانقلب البيت كله على الفتاة ، واتدبت هي مـن وجوههم مكاناً قصياً » •

ويقول : « وران على الأطفال ذعر صامت وهم يرون ولا يعلمون » •

ويقول : « ووجد نفسه يبكي •• ثم ادركته رحمة الله فنـام » •

ويطول بنا السرد لو تتبعنا مثل هذه التعبيرات وتلك اللفتات !!

وحتى في المواقف التي تتبدى فيها وثنية الأدب أحياناً يبدو سيد قطب ــ حتى قبل صفاء إيمانه وتميز إسلامه ــ يرثي لحال الملحدين ويصفهم بالحيارى الشاردين فيقول :

« لقد شعر بالفراغ والجفاف ، واتنابه ما ينتاب المؤمن بعد الإلحاد ، وما يصيب الصوفي بعد الضلال ! لقد خلا الهيكل من الصنم المعبود ، واستوحش الصوفي من سبحات الشهود ، وران على نفسه وعلى العالم كله ظلام وخمود •

لقد عادت الحياة تكلفاً لايطاق ، وراح يقطعها كما يقطع الأجير المسخر أيامه ولياليه في العمل المجهد الكريه وليس له منه إلا أجره الزهيد !!

ألا مـا أشقى الملحدين الحيارى الشاردين عن الهيكل ، ولو كانت تعمره الأصنام » •

ونلمح سيداً الشاعر المفنّ وهو يخطر في مواقف القصة العديدة يحمل ريشته وقيثار ألحانه والكون من حوله في ترنم ونشوة ووله ••

تقول له صاحبته : وأنت رجل شاعر فلتمضِ إلى عملك الأدبي كفنان ••

فيقول لها « وقد حسب أنها تتجمل ولا تنوي ما تقول » :

لا ياسيدتي ، إن كان الشعر لاينضجه إلا الحرمان ، فأنا سأطلق هذا الشعر من الآن !.. وتعود لتقول له في لهجة جازمة :

ــ كلا يا سامي ، إن عملك الأدبي أدوم وأخلد .

ويصور جانباً من نفسه في موقف من المواقف :

« كانت تربيته الأولى في بيئة محافظة متطهرة ، وكان قد انصرف في حياته إلى نوع من الجد لايسمح له بالعبث ، وكان الشعر والفن قد صانا خياله من التلوث » .

أرأيتم كيف يعتبر الأديب الحق الشعر والأدب قيماً تصون الانسان من التلوث لاوسائل عبث ومستنقعات من أوحال الدنس ليس لها قرار ؟!

ويتحدث الكاتب عن مفهوم الصفاء والشفافية وكيف يتخلى عنهما في لحظات من الحياة وومضات من العمر وكيف كان يعبر عن ذلك بالشعر فيقول :

« وأحس عندئذ بالصفاء الهادىء يفارقه ، وبالصوفية الشفيفة تتخلى عنه ، وأوجدت له هذه الخواطر شوقاً جارفاً شديداً ، ورأى نفسه يعبّر عن هذا الشوق بشعر حار ملهوف » .

ولا بد أن أشير في النهاية إلى أسطرٍ من القصة تلقي ضوءاً على ختامها في معترك الحياة .. لا في قلب الكاتب والفتاة إلا بعد حين :

« ثم أفاقت لتقول :

ــ ألم أقل لك أن حياتنا لن تصلح بعد الآن ؟!

قال : ــ ولم لاتصلح ؟ وماذا أجد الآن ؟!

قالت : ــ لاتغالط نفسك ، إنك لن تثق بي مرة أخرى ، لايخدعنّك أنك تشعر في لحظة ما بالتسامح الكبير، إن هذه اللحظة ستزول عندما يضمنا بيت واحد ، وعندما يطلب كلٌ من صاحبه تبعات الحياة المشتركة ... بربك تصور أنني كنت سائرة معك في الطريق فلقينا ضياء ! ألا تثور في نفسك المعركة من جديد ؟ ألا تتزاحم في خاطرك الصور من جديد ؟ ألا تهجم عليك هواجسك من جديد ؟ أيمكن أن تستقيم بعدها الحياة ؟.

... والأحلام ؟ من ذا يعصمك يا صديقي من هذه الأحلام ؟

ثم ابتسمت وبدا على وجهها حنان الأم للطفل المخدوع ! وقال هو في ذهول :

ــ وأنت ما خط سيرك في الحياة ؟

قالت : ــ سأعيش راهبــة .

قال : ــ هذا يخيفني من أجلك !

قالت : ــ اطمئن إذن فسأقبل أول طارق مــن عرض الطريق دون سؤال أو استفهــام !

وأحس بأن الموقف قد انتهى ، وأن لاسبيل إلى زيادة كلمة واحدة .

قالت وهي تنهض وتشدّ يده :

ــ لنكن أصدقــاء !

فأجاب في صوت خافت :

ــ وهو كذلك . فلنكن أصدقــاء !

ثم يلقى فتاته بعد حين وقد تزوجت وأنجبت طفلاً سمته بأحب الأسماء إليه يومذاك : سمير..ويصور لنا لحظة الوداع الأخير الذي لا لقاء بعده ولا أمل فيقول:

« مرّ هذا الشريط في ذهنه ، وهما يدلفان إلى محطة الترام في غير انتباه وجاء الترام ، فصعدت إليه في حركة آلية ، وهو يساعدها ، ويصعد إليهــا « سمير » . وعندما تحرك الترام أدركته صحوة مفاجئة ، ونظر فإذا هي كذلك تلوح له بمنديلها، ثم تجفف به قطرات من الدموع !

وفيما يشبه الذهول وجد نفسه يعدو خلف الترام .. ثم يقف فجأة كأنما سُمّرَ في مكانــه :

ــ ماذا ؟ إلى أين ؟ إنها ليست لك الآن ! إنها ذاهبة إلى هناك !

وأحسّ بالدوار .

ولكنه أفـاق :

سمير ؟ غريبة !.. أليس هذا هو اسمك المختار !؟

ـ كلا ! إنها لك . لك أنت وحدك برغم كل ما كان .

لقد ألقيت عليها ظلك ، لقد طبعتها بطابعك ، لقد وسمت طفلها الذي اخترته ،

إنهـا لك ، ولن تصلح لأحد سواك !

ـ أحـــلام !

ـ أحلام ؟ وما الفرق بين الحلم والحقيقة إذا كان كلاهما يستجيب له القلب والذهن ويترك آثاره في النفس والحياة ؟

ـ خيـالات !

ـ خيالات ! وما الفرق بين الخيال والواقع ، وكلاهما طيف عابر يلقي ظله على النفس ثم يختفي من عالم الحس بعد لحظات ؟ ..

أرأيتم كيف كان الأديب العاشق إذ ذاك يلتفت نحو الحقيقة حتى قبل أن يتميز بإيمانه واسلامه على كثير من المفكرين والأدباء ..

إنهـا بداية الانطلاقة نحو البحث عن الحقيقة وهجر كل ما يطويـه العدم ويهزمه الفناء ..

المدينة المسحورة :

وفي الرمزية كتب سيد قطب قصته « المدينة المسحورة » التي أصدرتها له دار المعارف في سلسلة « اقرأ » وقد رمز فيها إلى أشياء كثيرة عبَّر عنها بالحرف المشرق والكلمة المضيئة !

وكان خيال الكاتب فيها خصيباً مجنحاً .. بدأ بتصور ما لحق بشهر زاد من إرهاق وما نال شهريار من ملل في قصص ألف ليلة وليلة ، حيث أذن الملك شهريار

لزوجه وحبيبته شهرزاد أن تتوقف عن سرد القصص وأن تنصرف إلى جناحها في القصر تعنى بتربية صغارها وتسهر على راحتهم .. ثم يمضي به خياله فيصور لنا كيف أمضت شهرزاد تسعاً وتسعين ليلة توقفت خلالها عن السرد والرواية بعد ألف ليلة وليلة من الحكايات المتصلة المتلاحقة لتعود إلى القصص المسلية الطريفة من جديد تسكبها في أذني زوجها الملك فتسحر لبه وتنال إعجابه ، وكانت حكاية المدينة المسحورة !..

لقد كان الكاتب في قصته تلك ذا إحساس مرهف وشاعرية شفيفة ووجدان حالم .. كان يتفلت من دنيا المادة إلى عالم آخر يتصوره ويرسمه له خياله ؛ حيث نراه يقول على لسان الملك شهريار بعد أن انسحبت شهرزاد من جناحه لتعنى بتربية الصغار وتسهر على راحة فلذات الأكباد مع المربين والمربيات :

« لقد عاش في الأرض تسعاً وتسعين ليلة . عاش في الواقع المحسوس الذي كان قد شاقه فتشهاه . عاش في العالم المنظور بحواسه وذهنه بعيداً عن العالم المسحور الذي خلقته شهرزاد .

ولكنه يدرك الآن : كم يفقد الانسان حينما يفقد الأحلام ! إن هذا العالم ضيق ضيق . تافه تافه . صغير صغير . إن ما تبلغه الحواس لهو أمد قصير ، وإن ما يبلغه الوعي لهو أفق قريب ، وإن الخيال والأحلام ليبلغان بهذا المخلوق الانساني المحدود أبعد الآماد وأوسع الحدود . ألا ما أشقى الإنسان الذي لايملك من هذا العالم إلا ما تبصره عيناه » .

ويعود شهريار في موقف آخر يؤكد نفس المعاني ويطمح لمزيد من التحليق ومزيد من الصفاء ومزيد من الخيال فيقول :

« أرأيت يا شهرزاد إلى أحاديثك الجميلة ألف ليلة وليلة ؟!

أين تراها الآن ؟ لقد كانت تنقلنا على جناح الخيال إلى عوالم وآباد لامثيل لها فيما نحسه أو نراه . إن العالم المحسوس عالم ضيق يا شهرزاد ، بل عالم حافٍ مشوه قبيح .

إن الحياة بلا خيال نوع من التحجر . والعيش بلا أحلام حيوانية بليدة ..

أو لازلت تملكين يا شهرزاد أن تردينا إلى العوالم المسحورة ، وإلى الأكوان الحالمة ، وإلى الآفاق الوضيئة ، التي عشنا فيها ثلاثة أعوام ؟

وتجيب شهرزاد بعد تمنع ودلال وحوار يكشف مكانتها عند زوجها الملك :

« الحق ـ أيها الملك ـ لقد كنت أقدر ذلك كله . كنت أعلم أن من اعتاد الحياة في جو من الأحلام المضيئة والخيال الطليق والعوالم الفسيحة ، عزيز عليه أن يقص أجنحته ، ويقبع في هذا العالم الضيق الذي يدعونه عالم الحقيقة والواقع ، والحقيقة والواقع مظلومان يا مولاي ، فالحقيقة الكبرى لن تحدّها نظرة جيل ، والواقع الأصيل لن يحصره إدراك فرد .. إن الحقيقة أعلى بكثير وأكبر بكثير من كل ما يتصوره فرد أو جيل ، وإن الواقع لأعمق بكثير وأفسح بكثير مما تحده الأبصار والحواس ، وإن ما يسميه أبناء الفناء بالواقع والحقيقة إن هو أكثر وأكبر ما داموا يثقون في حواسهم هذه الثقة العجيبة ، وينخدعون بأذهانهم هذا الانخداع المريب ، وإنهم لن يصلوا إلى شيء إلا بالوجدان والخيال والأحلام . هذه هي الأشعة السحرية التي تكشف الآباد والآفاق ، وتنير للإنسانية فترى على ضوئها مالاتدركه عقولها ومالاتبلغه خطواتها ، ولكنها تتزود منه باللمحة والنظرة ، وتهدف في شوقها إليه نحو الحقيقة والخلود .

كان الملك يسمع هذه السبحات من شهرزاد ، وهو مأخوذ مشدوه ، كأنما يستمع إلى هاتف من الغيب وراء الاستار ، فلما سكتت تنبه كما يتنبه الحالم وقال :

ـ والآن ياشهرزاد ، هيا بنا إلى عالم الحقيقة الكبرى.عالم الأحلام والخيال» .

* * *

الخيال والأحلام .. عند سيد قطب من قبل لم يكونا إذن ذلك النوع من الضياع الذي يعيشه الكثيرون ويغرق فيه الحالمون ، وإنما هما البساط السحري الذي ينقل الانسان لمدى أرحب من دنياه وحقيقة أعظم من واقعه .. حقيقة لاتحدها الحواس ولا تكبلها المادة .. إنها ومضات من النور تقود الانسان إلى آفاق من الخلود بعيداً عن الحيوانية البليدة الفانية !!

ولئن بدأ سيد قطب حياته أديباً صافياً وكاتباً إنساناً يضيق بالواقع المظلم والحياة الضيقة التافهة ويتطلع إلى دنيا من الأحلام وعالم من الخيال أرحب ــ فقد ختم حياته صاحب دعوة ورجل عقيدة . يجاهد حتى يخرج بالانسان من ضيق المادة إلى رحابة الروح ، ومن تفاهة الهدف إلى نبل الغاية ، ومن دنيا الفناء وعالم الزوال إلى دنيا النفوس الكبار وعالم الغايات الوضيئة التي تحمل الانسان على أجنحة من نور في عالم الجهاد والاستشهاد !!

إن مثل هذا الاحساس الصافي وهــذا الشعور الشفيف كان البذرة الخيِّرة الأولى لدى الرجل وهو يقبل على رحاب الايمان يعيش في أفيائه ويحلّق في أجوائه .. لذا نراه يقول في تفسيره لقول الله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » في كتابه « في ظلال القرآن » :

« فلا تقوم حواجز الحس دون الاتصال بين أرواحهم والقوة الكبرى التي صدرت عنها وصدر عنها هذا الوجود ، ولا تقوم حواجز الحس بين أرواحهم وسائر ما وراء الحس من حقائق وقوى وطاقات وخلائق وموجودات .

والايمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الانسان ، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لايدرك إلا ما تدركه حواسه ، الى مرتبة الانسان الذي يدرك ان الوجود اكبر واشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس ، او الاجهزة التي هي امتداد للحواس ــ وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الانسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي ، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود ، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير ، كما انها بعيدة الاثر في حياته على الأرض ، فليس من يعيش في الحيّز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ، ويتلقى اصداءه وإيحاءاته في اطوائه وأعماقه ، ويشعر ان مداه اوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود ، وأن وراء الكون ظاهره وخافيه حقيقة اكبر من الكون ، هي التي صدر عنها ، واستمد من وجودها وجوده .. حقيقة الذات الالهية التي لاتدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول » .

* * *

ونعود إلى المدينة المسحورة لنرى عبر قلم سيد قطب صورة مدينة عالية الأسوار ضخمة الأبواب :

« على مقربة منها غابة كثيفة عالية الأشجار ، وكانت المراعي تتخلل فجواتها الكثيرة فيدخل الرعاة بأغنامهم في فجوات الغابة لترعى الحشائش النابتة فيها ، كما كانت بعض الذئاب تأوي إليه وبعض الضباع تتلقف الحملان الضالة التي تتناثر من القطيع ، وكانت الأرانب البرية والثعالب والظباء تتكاثر فيها وتنمو ، فيخرج الصيادون لصيدها في مواسم من السنة ، بعضهم يتخذها للكسب والتجارة ، وبعضهم يتخذها للهواء والتسلية .

وعلى حفافي الغابة كانت تتناثر بضعة أكواخ وحظائر للرعاة والصيادين الفقراء يأوون إليها بأنفسهم وأغنامهم ، حين يدخل الظلام ويصبح التجوال في الغابة خطراً بين الذئاب الجائعة والضباع الهاجمة ، وكثيراً ما كانوا يوقدون أمام أكواخهم ناراً تشتعل طول الليل تخويفاً لهذه الحيوانات من السطو على الحظائر في جنح الظلام ».

ولكي تتم الصورة ويكتمل الإطار لابد من تصوير قصر الملك داخل المدينة لأن الغابة والأكواخ ، والمدينة والقصر هي مسرح القصة التي وقعت فيها أحداثها .

« وكان للملك فيوسط المدينة قصر عظيم يتألف من أجنحة كثيرة ، وتتبعه أقسام الحرّاس والاصطبلات ، وأمامه ساحة فسيحة يتدرب فيها الجند ، وتقام فيها الاستعراضات العسكرية والحفلات الملكية ، وتتسع لعدد كبير من الناس . وعلى الجانب الآخر من الساحة يقوم قصر أصغر من قصور الملك هو قصر أخيه » .

ويبدأ منطلق القصة من تصوير الحالة النفسية والجو الحياتي للأسرة المالكة ورغبات أفرادها وما تبذله من جهد ومال في سبيل تحقيق تلك الرغبات :

« ولم يكن يعكر صفو الملك إلا حرمانه من وريث لعرشه ، إذ كانت امرأته لا تلد ، وقد بلغت الأربعين وبلغ الملك الخمسين دون أن يكون لهما بنت أو غلام ، فكان المنتظر أن يؤول العرش بعده إلى أخيه إذا أمهله الموت ، أو إلى الأجانب ، إذ أن أخاه مثله محروم من الأطفال .

وقد جعل الملك جائزة عظيمة لمن يكون سبباً في دفع العقم عن زوجته وزوجة أخيه . ولكن جميع محاولات الأطباء والكهان ذهبت أدراج الرياح ، فلم يبق أمام الملك وأخيه إلا أن يتزوجا من جديد . وفيما هما يفكران هذا التفكير ، والمرأتان في غم وضيق ، وأهل المملكة جميعاً في اشتغال بهذا الأمر الخطير ، هبط المدينة طبيب من الشمال ، سمع بالغابة ونباتاتها ، فقدم ليجمع منها بعض النباتات الطبية . ولما دخل المدينة وجد أهلها مهمومين مغمومين ، لأن الملك وشقيقه سيتخذان زوجتين بدل زوجتيهما المحبوبتين من الشعب كله لطيبتهما وعطفهما على المساكين ، فعرض ذلك الطبيب الشمالي استعداده لمداواة العقم ، ففرح الناس وتوجهوا إلى الإله بالدعاء .

واستجاب الله دعاء الشعب فحملت الزوجتان في ليلة واحدة بعد طول العقم والحرمان . ولما وفتا الأيام وضعت زوجة الملك طفلاً ذكراً ، وزوجة أخيه وضعت أنثى ، فأقام الملك الأفراح في طول المملكة وعرضها، وأطعم الفقراء والجياع ، ولبست المدينة حلة زاهية من الزينة أربعين ليلة كاملة .

وقد سُمي المولود « تاسو » وسميت المولودة « تيتي » واتفق الملك وشقيقه أن تكون تيتي لتاسو ، ويكون الملك لذريتهما جيلاً بعد جيل » .

ثم تبدأ القصة تتحدث عن تولي الأمير أمور الملك بعد وفاة والده وانصرافه عن ابنة عمه الأميرة بعد أن وقع في حب راعية أغنام جمعته بها المصادفة في الغابة حين كان يقوم برحلة صيد أو نزهة استجمام .. ثم تمضي القصة بنا في حديث عن الفتاة الراعية وأبويها اللذين رحلا وأجبراها على الرحيل حرصاً على سمعة ابنتهما الوحيدة.. وتنأى بها الديار ويهيم الملك على وجهه بحثاً عنها فلا يجدها .. إلى أن تجمع بينهما الأقدار مرة أخرى .. ليعيشا في أبهة الملك وأفياء الحب الوارفة ..

أما الأميرة ابنة عم الملك فتمضي إلى الصحراء وتهيم على وجهها في الفلوات ، وتلتقي بالساحرات والكاهنات وتحيا مع كبراهن وتتلقى عنها السحر .. وتصبح الأميرة كبرى الساحرات بعد الساحرة العجوز ..

وتظل تحيا على أمل أن تدمر الرجل الذي حطّم قلبها والمرأة التي سلبت خطيبها •• إلى أن يأتي اليوم الموعود !

أما الملك فيتزوج فتاة أحلامه •• وتنجب منه طفلة جميلة تكبر وتجمعها المصادفة بفتى يرعى الغنم في الغابة فتقع في حبه ، ويكون من نصيبها بعد أن يتخلى عن رفيقة حياته الراعية التي تشاركه رعي الأغنام وقطف الأزهار في الغابة الكثيفة الواسعة !

وتهيم الراعية المفجوعة بحبيبها في الصحراء •• وتضيع في الفلوات ، وتلتقي بأميرة الأمس ساحرة اليوم وتشكو لها أمرها •• وتبوح لها بسرها •• وكانت الأميرة الساحرة تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر •• فتحرق البخور •• وتتلو التمائم •• لقد آن لها أن تنتقم شر انتقام •• لتحيل المدينة كلها إلى أصنام وتماثيل وحجارة جمدت فيها الحياة وساقت على شخوصها الحركة •••

ويعود الراعي العاشق والفارس الشجاع الذي ردّ عن المدينة كيد الغزاة والطامعين فنال جزاء ذلك قلب الأميرة وتقدير أبويها •• إلا أنه يفاجأ بالمدينة صامتة هامدة جامدة •• ويفاجأ بحبيبته التي كانت تتجلّى لتزف إليه ، تمثالاً آية في الكمال والجمال ، ولكن لا روح فيه ولا حياة !!••

ويدور الفَلَك دورته •• وتتابع الأجيال بعضها يتلو بعضاً إلى أن يدخل المدينة المسحورة شاب فنان من نسل الراعي العاشق يهيم بتماثيلها •• ويعشق اللفتات الفنية في كل ساحة وكل حجرة وكل دار •• ويقف يوماً مبهوراً أمام تمثال الأميرة الذي استولى على عقله وسلبه لبه لما فيه من إبداع فني يعجز عنه إزميل المفن الحاذق !!

ويهيم حباً بالتمثال •• ومثلما « عقد السحر على حقد كظيم » قدر أن يفك السحر على حب عظيم •• إذا بالمدينة المسحورة تتحرك وبالحياة تعود وبالناس يموجون •• وبالأصوات تتعالى وإذا بالفتى المفن يعانق الأميرة واقفة في ركن من أركان المخدع •

ويختم سيد قطب قصته بقوله :

« وكان الخبر العجيب قد ترامى إلى سلطات المملكة من الحراس الذين هربوا ومن الزائرين الذين نجَوا ؛ فأقبل الحكام والوزراء والأهالي والعساكر لرؤية المعجزة الكبرى • أما الذين هم داخل المدينة فلم يجل في خاطرهم إلا أن جيوش الأعداء قد هجمت مرة أخرى ، ورأوا لكثرة الهاجمين أن لامفر من التسليم ! »

« وكان انتشار الخبر قد هز البلاد هزاً ، فوفد الناس من كل جهة ؛ وراحوا يتطلعون في دهش إلى هؤلاء الآدميين الغرباء ؛ ولم تمض يامولاي إلا ساعات انطلق الزمن فيها من عقاله حتى بدا على هذه المخلوقات فعل ألف عام ؛ فإذا هم يتهاوون جثثاً هامدة وعظاماً نخرة ، ورفاتاً سحيقاً • والناس من حولهم في ذهول شديد •

أما الأميرة — يامولاي — فقد وقف الزمن إزاءها عاجزاً ، لقد كانت تحب • وماذا يصنع الزمن — يامولاي — في قلب يحب ؟ » •

* * *

ومن الإنصاف أن نقول ونحن نعرض قصة المدينة المسحورة أنها من القصص التي يندر أن يمسك القارىء بها ويتركها قبل أن يأتي على آخر صفحة فيها ؛ دون أن يلجأ كاتبها إلى إثارة جنسية أو وصف جسدي رخيص يستهوي الشباب ويستولي على إعجاب المرضى منهم والمنحرفين •

يتحدث عن الحب حديثاً عفاً ، ويمس العواطف البشرية والأحاسيس الانسانية مساً رفيقاً رقيقاً، لا يتحول إلى هيجة عارمةأوجوعة جنسية تدغدغ عواطفالمراهقين•

ويتناول غَيْرة المرأة •• وكيف ينقلب الانسان بها وحشاً ضارياً لا رفق يخفف من غلوائه ولا مودة حانية تلمس قلبه أو تخفق في حناياه !

ويحطم سيد قطب بقصته كل الفوارق الاجتماعية والتقاليد البالية حين يكون الحب الهادف هو الذي يسير الإنسان ، فيزوج الملك راعية ويزوج الأميرة راعياً •• طالما كل يحب الآخر لهدف نبيل في الحياة ويهواه !

لقد صوّر سيد قطب في قصته هذه النفس الانسانية الفطرية بكل صفائها في جنبات الغابة ، والنفس الانسانية بكل دهائها وتلوثها وتآمرها في أروقة القصور

وأرائك الحكم وأوساط الحاشية .. وهو بذلك يرمز إلى ما وصل إليه آخيراً رجل عقيدة وصاحب دعوة من أن الإنسان بعمله وقلبه وعقله .. لا بسكاته وأبهته وجاهه .. شأن الرجل الذي يحمل رسالة ويزن الإنسان بميزان القيم لا ميزان الذهب الرنان !.

وفي يقيني أن سيد قطب قد تأثر وهو يكتب « المدينة المسحورة » بينابيع ثلاثة أحسبها مصدر إلهامه ومنطلق عطائه :

أولها : كتاب ألف ليلة وليلة .. حيث نلاحظ بداية القصة وأسلوب السرد واعتبارها إحدى حكايات شهرزاد لشهريار وهي تخفف عنه أعباء الملك . وتجمّل له الحياة إذ تنقله إلى ميدان أوسع وأفق أرحب !.

وثانيها : القصص الفرعوني والجو التاريخي المصري الغابر .. حيث تلمح في ثنايا قصته الحديث المتصل الرهيب عن السحر والسحرة والرقى والتعاويذ والمغارات المهجورة والصحاري والبخور والدخان والتمائم والكهان .

وثالثها : القرآن الكريم .. وسورة الكهف على وجه التحديد حيث جمدت الحياة في المدينة ووقفت الحركة مئات السنين كما وقع لأصحاب الكهف الذين آمنوا بربهم فزادهم الله هدى .



ومن الخير أن نختم حديثنا عن هذه القصة بما أورده سيد عليه الرحمة عن قصة أصحاب الكهف في ظلال القرآن لنرى مدى تأثر الكاتب القصاص بالقصة القرآنية المعبرة حيث يقول :

وفجأة تدب فيهم الحياة . فلننظر ولنسمع :

« وكذلك بعثناهم ليتسائلوا بينهم . قال قائل منهم : كم لبثتم ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورِقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليَتلَطفْ ولا يشعرنَّ بكم أحداً . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ، ولن تفلحوا إذاً أبداً »[1] .

---

(١) الآيتان « ١٩ ـ ٢٠ » من سورة « الكهف » .

إن السياق يحتفظ بالمفاجأة في عرض القصة ، فيعرض هذا المشهد ، والفتية يستيقظون وهم لا يعرفون كم لبثوا منذ أن أدركهم النعاس .. إنهم يفركون أعينهم. ويلتفت أحدهم إلى الآخرين فيسأل : كم لبثتم ؟ كما يسأل من يستيقظ من نوم طويل . ولا بد أنه كان يحس بآثار نوم طويل . « قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ».

ثم رأوا أن يتركوا هذه المسألة التي لا طائل وراء البحث فيها . ويدَعوا أمرها ـ شأن المؤمن في كل ما يعرض له مما يجهله ـ وأن يأخذوا في شأن عملي، فهم جائعون، ولديهم نقود فضية خرجوا بها من المدينة : « قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بوَرِقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً ، فليأتكم برزق منه ».. أي فليختر أطيب الطعام في المدينة فليأتكم بشيء منه .

وهم يحذرون أن ينكشف أمرهم ويُعرف مخبؤهم ، فيأخذهم أصحاب السلطان في المدينة فيقتلونهم رجماً ـ بوصفهم خارجين على الدين لأنهم يعبدون إلهاً واحداً في المدينة المشركة ! ـ أو يفتنوهم عن عقيدتهم بالتعذيب . وهذه هي التي يتّقونها . لذلك يوصون الرسول أن يكون حذراً لبقاً : « وليتلطف ولا يشعرنّ بكم أحداً . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً » .. فما يفلح من يرتد عن الإيمان إلى الشرك وإنها لَلْخسارة الكبرى .

وهكذا نشهد الفتية يتناجون فيما بينهم ، حذِرين خائفين ، لا يدرون أن الأعوام قد كرّت ، وأن عجلة الزمن قد دارت ، وأن أجيالاً قد تعاقبت ، وأن مدينتهم التي يعرفونها قد تغيرت معالمها، وأن المتسلطين الذين يخشونهم على عقيدتهم قد دالت دولتهم ، وأن قصة الفتية الذين فروا بدينهم في عهد الملك الظالم قد تناقلها الخلف عن السلف ، وأن الأقاويل حولهم متعارضة ، حول عقيدتهم ، وحول الفترة التي مضت منذ اختفائهم .

وهنا يسدل الستار على مشهدهم في الكهف ليرفع على مشهد آخر . وبين المشهدين فجوة متروكة في السياق القرآني .

ونفهم أن أهل المدينة اليوم مؤمنون ، فهم شديدو الحفاوة بالفتية المؤمنين بعد ان

انكشف أمرهم بذهاب أحدهم لشراء الطعام ، وعرف الناس أنه أحد الفتية الذين فروا بدينهم منذ عهد بعيد .

ولنا أن تتصور ضخامة المفاجأة التي اعترت الفتية بعد أن أيقن زميلهم أن المدينة قد مضى عليها العهد الطويل منذ أن فارقوها ، وأن الدنيا قد تبدلت من حولهم فلم يعد لشيء مما ينكرونه ولا لشيء مما يعرفونه وجود ! وأنهم من جيل قديم مضت عليه القرون . وأنهم أعجوبة في نظر الناس وحسهم ، فلن يمكن أن يعاملوهم كبشر عاديين . وأن كلَّ ما يربطهم بجيلهم من قرابات ومعاملات ومشاعر وعادات وتقاليد .. كله قد تقطع ، فهم أشبه بالذكرى الحية منهم بالأشخاص الواقعية .. فيرحمهم الله من هذا كله فيتوفاهم .

لنا أن تتصور هذا كله ، أما السياق القرآني فيعرض المشهد الأخير ، مشهد وفاتهم والناس خارج الكهف يتنازعون في شأنهم : على أي دين كانوا ، وكيف يخلّدونهم ويحفظون ذكراهم للأجيال . ويعهد مباشرة إلى العبرة المستقاة من هذا الحادث العجيب :

« وكذلك أعْثَرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها . إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا : ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم . قال الذين غلبوا على أمرهم ، لنتخذنَّ عليهم مسجداً » .

إن العبرة في خاتمة هؤلاء الفتية هي دلالتها على البعث بمثل واقعي قريب محسوس . يقرّب إلى الناس قضية البعث . فيعلموا أن وعد الله بالبعث حق ، وأن الساعة لاريب فيها .. وعلى هذا النحو بعث الله الفتية من نومتهم وأعثر قومهم عليهم .

قصص الانبياء :

كان حظ الجيل الناشيء المسلم من قلم سيد قطب كبيراً حين خصص له من وقته وقلمه ما أثمر مجموعة قصصية ناجحة إلى أبعد الحدود .. جمعت إلى جانب عذوبة الأسلوب وحلاوة السرد جوانب مشرقة من صفاء العقيدة وصدق الرجولة وثبات النبيين ، حين تناول سيرهم في تسلسل ، وركز على سيرة سيد الخلق وخاتم النبيين

صلى الله عليهم أجمعين .. كان ذلك بأسلوب جذاب ، يستميل عقل الطفل ، وينمي فيه الفكرة ، وينبت في نفسه بذرة الفضيلة ...

وكان إبداع سيد قطب ـ وقد شاركه في أجزاء هذه السلسلة الأستاذ عبد الحميد جودة السحار ـ يقوم على جمال العرض وسهولة الكلمة وتسلسل الفكرة منذ أبينا آدم عليه السلام حتى خاتم الأنبياء والمرسلين .. ثم يفصّل في قصة الرسول الكريم منذ ولد حتى التحق بالرفيق الأعلى .. ولو استمر الأديب المسلم في خطه ذاك لقدم لمكتبة الطفل المسلم أعظم ما يستمتع به ومنه يفيد .. غير أنه اتجه لدراسات إسلامية أخرى أعمق وأشمل ، فكان ذاك العطاء الثر وذاك الفكر العميق الذي جعله قمة فيما قدم في دنيا الأدب والنقد والسياسة والفكر والعقيدة !..

الأطياف الأربعة :

ومن آثار سيد قطب الأولى طيف شفيف ضمه مع أطياف ثلاثة أخرى كتاب .. فكانت الأطياف الأربعة :

« أولئك هم الأطياف الأربعة .

وهذه خطراتهم في كتاب .

إنها عصارة من نفوسهم ، وظلال من حياتهم .

إنها أطيـاف الأطياف .. »[1]

وكما يقول سيد عن علاقته بشقيقه وشقيقتيه : « وإنـه ـ بعد ذلك كله ـ لَلْوالدِ والأخ والصديق لأولئك الأطياف » .. نراه يقدمهم عليه تشجيعاً لهـم وأخذاً بأيديهم .. ويكون طيفه أوعطاؤه الصفحات الأربعين الأخيرة من هذا الكتاب .

وفي طيف سيد نرى ونلمح النضج المبكر في الخاطرة والتفكير والأسلوب ، حيث يتناول عدداً من خلجات نفسه ونبضات الحياة بين جنبيه ليحيلها أسطراً على صفحة الكتاب ، فتجيء مناجاة لأمه التي فقد ، وعتاباً للزمن الساخر ، وحديثاً عن

---

(١) من تقديم الأطياف الاربعة لسيد قطب .

المرأة التي أرادها يوماً شريكة حياة •• ولكنها كانت طرازاً آخر من النساء••فكانت بالنسبة له « الفاكهة المحرمة » التي لا يمد لها يده أو عينيه •• إنها لحظات من الرغبة والرهبة وفورة العاطفة وتفجر الوجدان يقول فيها :

« مَنْ هذه التي لا أرتوي إلا بها ولا أحيا إلا بإشعاعها ، ثم يقتلني الظمأ وهي مني قريبة ، وتخذلني الحياة ويداها إليَّ ممدودتان • فإذا أنا ثرت على هذا الحرمان وتمردت على هذه الحواجز ، قهقه القدر الساخر ، ودوت بضحكه الأرجاء ؟

إنها الفاكهة المحرمة !!

أيها القدر ! لماذا وضعتها في طريقي ، ولماذا جعلتها فاكهة محرمة ؟ إنني أسمع أيها القدر حكمك الصارم الساخر : مكانك • إنها الفاكهة المحرمة ••• وكفى »[1]

ونستطيع بكل وضوح أن نلمس تطلعات الأديب للحرية وتمرده على القيود التي تهدر انسانية الانسان وتحشره في زمرة الحيوان •• ولذا نراه يقدم مفهوماً جديداً للملك •• فهو يرى أن الإنسان المالك والمادة المملوكة كلاهما عبد مسخر إما لعبودية المالك أو شهوة التملك وفي كلا الحالتين يرثي سيد قطب الأديب الانسان حتى للذين يظنون أنهم يملكون :

« متى تستطيع الكائنات أن تكون شيئاً آخر غير (المالك) (والمملوك) ؟

إن (الملك) قيد من قيود الفناء يتنزه عنه الخلود •

إن المالك ليس أقل تقيداً بما يملك المملوك المقيد بمن يملك • وأن نسبة الترابط بينهما لهي واحدة أو تكاد • »[2] •

لقد كان طيف سيد الأديب •• الطيف الرابع بين الأطياف الأربعة الحالمة من أصفى وأرق ما قدّم قلم شاب يتفجر حيوية ونشاطاً وإحساساً بالمسؤولية وحب الآخرين •• سواء ما تعلق بإخوانه وأسرته •• أم بأمته وانسانيته • ولئن كان عطاؤه في الكتاب صفحات قلائل لكنه كان عطاء له ما بعده حين تفتح الأديب على الحياة ليكون إنساناً حراً حقاً • ولكن في رحاب الإيمان •

---

(١) من الطيف الرابع في الأطياف الاربعة لسيد قطب .

(٢) الأطياف الاربعة .

سيد قطب الشاعر

عرفنا لسيد قطب في عالم الشعر عناوين عديدة لدواوين صدر بعضها .. وكان بعضها (تحت الطبع) فوقف حيث كان ، وجمد حيث هيىء وتم إعداده ...

« والدواوين » التي أعلن عنها كانت : « الشاطىء المجهول ، وقافلة الرقيق ، وحلم الفجر ، والكأس المسمومة » !..

وأحسب أن الأول وحده هو الذي صدر منها ويقع في مائة وستين صفحة[1] بالاضافة لما بين أيدينا من شعر الشاب المتفتح على الحياة ، يحمل في صدره أمنيات وفي قلبه نبضات وفي قلمه عذوبة وفي خياله خصب وعطاء ، طالما حملتها للقراء صفحات الرسالة الغراء لتعرض على الملأ من عشاق الحرف المشرق والكلمة المضيئة مفاهيم جديدة من شعر الشباب الجاد الذي ينأى به صاحبه عن موكب السلطان ويربأ به قائله عن زيف الحياة ومظاهر الملق الهابط !

يطالعنا فيما قاله سيد من شعر أغراض نبيلة وأهداف سامية تجعل الحياة نفسها ملتقى خيّراً وميداناً نظيفاً كما يريده الشاعر ويرضاه[2] ..

وشعره الذي نلقاه حيثما وجد لا نعثر فيه على قصيدة مدح أو أبيات هجاء لأن الشعر عند أصحاب النفوس الكبيرة رسالة تسهم في صنع الحياة الوارفة الحانية ، والمدح الرخيص والهجاء المقذع ليس لهما مكان في دنيا الرسالات وعالم البنـاء والعطاء .

---

(١) العدد ٦٩ من مجلة الرسالة بتاريخ ٢٠ رجب ١٣٥٣ هـ و ٢٩ تشرين اول ١٩٣٤ م .

(٢) سنتناول بمزيد من التفصيل « سيد قطب الشاعر » في فصل « سيد قطب الناقد » عند الحديث عن كتابه « مهمة الشاعر في الحياة » .

إن الطابع الذي يطبع شعر سيد قطب في شبابه هو الانسانية بكل أبعادها الخيرة وعطائها الوفير ، بل بكل جوانب المسرة فيها والألم والشك واليقين ، فقد كان دائم التساؤل والتفكر عن « النفس الضائعة » و « الغد المجهول » و « الحياة الغالية » ؟ !

ثم هو يشبّه الانسان ومواقفه الحياتية المختلفة بمواقف أخرى تتفتح فيها الحياة في حضن الطبيعة وأرجاء الكون ، يتمثل ذلك في زهرة تنفث عبيرها ، أو ريح رخاء ، أو عاصفة هوجاء ، أو ليل بهيم ، أو بحر هادر .

إن الإنسان والطبيعة صديقان لا عداوة بينهما في شعر سيد ، بل كلاهما يغترف من الآخر ويأوي إلى صاحبه كلما دعته الحاجة أو دفعته ظروف الحياة ..

ولقد قاد مثل هذا الإحساس المبكر عند الشاعر إلى أن يبرز فيما بعد هذه المفاهيم وهذه الآراء في تفسيره الذي ألهمه الله حيث يقول :

« وأما القوى الطبيعية فموقف المسلم منها موقف التعرف والصداقة ، لاموقف التخوف والعداء ، ذلك أن قوة الإنسان وقوة الطبيعة صادرتان عن إرادة الله ومشيئته ، محكومتان بإرادة الله ومشيئته ، متناسقتان في الحركة والاتجاه »[1] .

ونعود إلى سيد قطب الشاعر لنسمعه وتقرأ له يبحث عن نفسه الضائعة علّه يلقاها في الروض والليل والفجر والأنداء والشذى .. ولكنه يعود بلا لُقْيا .. ولا وجود لتلك النفس الضائعة التي استحالت طيفاً لايحس ولا يرى .

أنقب عن ماضيّ بين سرائري
فألمحه كالوهم أو طيف عابرِ
أنقب عن نفسي التي قد فقدتها
بنفسي التي أعيا بها غير شاعرِ
وأطلبها في الروض إذ كان همها
تأمله ، يفضي بتلك الأزاهرِ

---

(١) من تفسير سورة الفاتحة ـ في ظلال القرآن : الطبعة السابعة .

وفي الليــل إذ يغشَى وكانت إذا غَـفَـا
تيقـظ فيهــا كـل غاف ٍ وســادرِ
وفي الليــلة القمراء إذ تهمس الرؤى
وتومــيء لـلأرواح إيمـــاء ســاحـرِ
وفي الفجــر ، والأنداء يقطرن ، والشذى
يفـوح ، ويشجي سمعه لحن طائـرِ
وفي الحب إذ كانت شواظـاً وحرقـة
ومهبط آمـال ومطمـــح ثـائـرِ
وفي النكبـة النكبـاء ، والغبطة التي
تجـود بهــا الأقـدار جود المحـاذرِ
ولكننــي أيئســت أن ألتقــي بهـــا
وتــاهت بـواد غامــر التيــه غائـرِ
سأحيــا إذن كالطيف ، ليست تحسّه
يــدان ، ولا يجلوه ضــوء لنــاظـرِ

وفي « الغد المجهول » يتساءل سيد قطب عمــا يخبئه ذلك الغد •• ويروح يعرض المأساة التي يحياها والضياع الذي يلفه حين يأتي غده الذي يحمل له الهول كما يتوقع •••

مــاذا سيــولد يوم تولــد يــاغدي ؟
إني أحسّ بهــول هــذا المولــد
سيصــرح الشكّ الدفين بمهجتي
فأبيت فاقــد خير ما ملكت يــدي
ستروغ من حولي عواطف لم تزل
تضفي علــيّ بعطفهــــا المتــودد
ستجفّ أزهــار يفــوح عبيرهــا
حولي ، وينفحني بهــا الأرج النــدي

والمشعل الهادي سيخبو ضوؤه
ويلفني الليل البهيم بمفردي

* * *

ماذا تخلّف يوم تذهب يا غدي
لاشيء بعد الفقد للتفقد
ستخلف الأيام قاعاً صفصفاً
تذرو الرياح بها غبار الفدفد
لامرتجى يرجى ولا أسف على
ماضٍ يضيع كأنه لم يوجد
أبداً ، ولا ذكرى تجدد ما انطوى
حتى التألم لايعود بمشهدي
رباه إني قد سئمت ترددي
فالآن فلتتقدم بهولك يا غدي

ومن منطلق هذا الشك ومن دوّامة البحث عن المجهول يمضي سيد قطب إلى اليقين الراسخ والإيمان الشامخ شموخ الجبال ، فيكون أعظم كاتب معاصر كتب في صفاء العقيدة وصدق اليقين ..

* * *

أما الحب في شعر سيد فقد كان عفّاً شفيفاً لادنس في أحرفه ولا رجس في كلماته أو معانيه ، بل هو الحياة الخصبة المعطاء والأمل الباني الذي يعمر الأنفس ويحرك جنبات الكون بالتفتح والحياة :

تغلو الدقائق في حياة خصبة
وتهون أعوام بعمر مجدب
الحبّ فاض على الحياة بخصبه
وأجدّ عمرانا بكل مخرّب

وأزاح أستار الدجى فتكشفت
ظلماته عن كل زاهٍ معجب
وكذاك تحلو لي الحياة وتجتلي
وتعزّ ساعات الغرام المخصب

وفي لحظة من لحظات يأس يمر بها الشاعر يخاطب صاحبته فيقول :

هذا الفؤاد الذي خلفتِهِ تعباً
مضى مُعنّى يرجي منك مقتربا
هذا الرجاء دهاه اليأس فانطمست
آثاره وتوارى ضوؤه وخبا
وبات قلبي كالمحراب دارسة
أطلاله يتراءى موحشاً خربا
يجلل الصمت والذكرى جوانبه
ويطويان به الأجيال والحقبا

* * *

ويتحدث حديث الشاعر المرهف الذي يحس بواقع خطوات الربيع الشاب وهمساته الحالمة في آذان الزهر ودمائه الحارة تنساب في عروق الشجر :

زهرة قد كاد يعروها الذبول
ثم حيّتها تباشير الربيع
فهي ترنو بين صحوٍ وذهول
مثلما تحتار في العين الدموع

وحين يتحدث الشاعر الجاد عن « العود » لا يربط بين الصوت العذب وانحراف السلوك وعربدة الضائعين كما يفعل الكثيرون ، بل يصف ألحان العود تارة بأطياف

ذكرى تتردد ، أو خطرات محيلة ترد على ذهن ، أو همسات مخلوقات أخرى في عالم الغيب والشهادة :

كـأن ألحـانك الـلائي تـرددهـا
أطياف ذكرى توارت ترجع الآنـا
كأنهـا خطـرات في مخيلـة
تحسهـا ثم لاتستطيـع تبيانـا
كأنهـا همس جـن أو ملائكة
أسـر عـن عالم الإنسان كتمانـا

وقصيدته « الصبح يتنفس » .. لاأجد بعد أن أثبتها هنا أروع بياناً ولا أجمل تحليلاً من تحليل الشاعر نفسه للقصيدة ، مما يعطينا صورة دقيقة صافية عن أسلوب الشاعر وفكرته عن الربط بين مخلوقات الكون كافة في إطار شامل وصورة متكاملة:

نسمـات زفهـا الفجر الـوليد
بعدمـا جاش بهـا صدر الحيـاة
ناعمـات مثـل أنفـاس الورود
بلـل الطـل شـذاه بنـداه

كانت الدنيـا يغشيهـا السكون
وظـلام الليل والنـوم العميـق
طفلة قد ضمهـا الليـل الحنون
ضمـة الرحمـة كالأم الشفـوق

وتراءى الصبح في صمت بديـع
فإذا الطفلة تصحو مـن سبـات
ترسـل الأنفاس في رفق وديع
وإذا الأنفـاس تلـك النسمـات

وإذا الزهر يحيي في ابتسام
ذلك الصبح ويرنو في هدوء
كابتسام الطفل في عهد الفطام
حيثما يحلم بالثدي المليء

وإذا الطير وقد ران النعاس
فوق عينيه تنزى فصحا
يرمق النور بهمس واختلاس
ويحييه طروباً مرحا

وانبثاق الفجر من سدف الظلام
مثلما يبسم للعاني الأمل
يلثم الكون ببشر وابتسام
ويحييه برفق في القبل

وإذا الأنفس في هذا الحنان
وادعات بين أحضان الطبيعه
ساهيات راضيات في أمان
ترسل الطرف برنوات وديعه

حالمات في كراها يقظات
سابحات في التعلات الوضاء
تنشد الآمال عذب الاغنيات
بين سمعيها ويحدوها الرجاء

فترة في مطلع الفجر تمر
هي حلم مثل أيام الطفوله

فـإذا مـرت فجـو مكـفهـر
هـو في الطفـل شبـاب وكهوله

ليتني عشت بأحضـان الصبـاح
أو قضيت العمر استمتع طفـلا
لا . ولا هذا من الدهـر يتـاح
لا . ولا قد عدت استمتع . كلا

* * *

ويلقي الشاعر أضواء على قصيدته هذه ليرسم أجمل الظلال وينقلنا إلى جو نفسي رضي حالم حينما يقول : « إن الحياة طفلة ، كان يضمها الليل في كنفه ، ثم لما أبصرت الصباح استيقظت وتنفست ، فكانت أنفاسها هي نسمات الفجر الرقيقة .. هو في الحقيقة لايتخيل ، ولكنه يتعمق في طبيعة الحياة أكثر من الفرد العادي الذي لايرى إلا ظواهرها ، فإذا الحياة طفلة لانهـا لاتزال ولا تزال غريرة صغيرة ، وإذا الليل يضم هذه الطفلة بين عطفيه كالأم الحانية ، وإذا الصبح فتنة تلك الطفلة التي تأخذها المظاهر ، وتجتذبها الأضواء . ونظرة إلى الدنيا في الصبح الباكر لابد أن تصورها طفلة وديعـة .

وكذلك حين يشبه الزهر في تفتحه لنسمات الفجـر بالطفل المبتسم لحلمه بالثدي ، بعد فطامه .. لم يهده الخيال إلى ذلك ، ولكن هداه إحساسه الوثيق الذي يلمح العلاقة بين الزهر والطفولة ، وبين ابتهاج الزهرة بنسمات تحييها وتغذيهـا وابتهاج الطفل بحلمه البريء بثديه الذي يحييه ويغذيه !

وكذلك تشبيه انبثاق الفجر مـن أسداف الظـلام ، بانبثاق الأمـل للعاني المكدود ... فاسترواح النفس للفجر كاسترواحها للأمل ، وأدق من ذلك أن الفجر هو أمل الحياة ، الذي يقشع عنها ظلمة الليل البهيم .

فإذا رأى الناس بعد ذلك خيالاً في الشعر الحقيق بهذا الاسم ، ورأوه بعيداً عن الحقيقة التي يدركونها هم ، فذلك لأن الشاعر أدرك من الأعماق ما لم تدركه

الجماهير ، ودق في إحساسه حتى تراءى خيـالاً ، لمن يحس بقرارات الطبيعـة ، والصلات الخفية بين أبنائها جميعاً » [١] .

ونلاحظ عبر دراسة شعر سيد أشياء يمكن البوح بها والإشارة إليها :

الشاعر يدعو إلى التجديد في الموضوع والتناول والصور المرسومة .

ولذا نراه يدعو إلى سبر الأغوار وبلوغ الأعماق لا العيش على السطح في سذاجة بلهـاء وغفلة غبيـة !

وهو لايرى مانعاً من تعدد قافية الشاعر في القصيدة الواحدة طالما يلوّن بذلك الصور ويعطيها مزيداً مـن الظلال المؤثرة الساحرة كما نرى في قصيدته « الصبح يتنفس » ..

ونَفَس الشاعر كما أتصور عبر الاطّلاع على كثير مما قاله نَفَس قصير ، ولكنه يعطي ويبدع ويغني ولو لم يكن من أصحاب المطوّلات التي يبدع فيهـا أصحابها أو يستهلكون فيها المعاني والألفاظ والصور فتأتي في النهـاية متهالكة متداعيـة ! .

وتأثر الشاعر بالأسلوب القرآني واضح في بعض قصائده .. فهو يعطي لقصيدة من قصائده عنوان « الصبح يتنفس » .. وهو يقول في أخرى :

وبـات قلبي كالمحراب دارسـة
أطلالـه يتراءى موحشـاً خربـا

وهو ينقل لنا صورتين قرآنيتين وتعبيرين قرآنيين في آن واحد في بيت واحد :

ستخلّف الأيـام قاعـا صفصفـا
تذرو الرياح بهـا غبـار الفدفد

---

(١) مهمة الشاعر في الحياة لسيد قطب ص ٥٦ ، ٥٧ ـ الناشر الدار العربية ببيروت ومكتبة الاقصى بعمان .

وقد جاء شعر سيد قطب عمودياً في كل ما نظم وإن تعددت القوافي في بعض قصائده ولكن في صور متكاملة ولوحات ذات وحدة وترابط وثيق ..

أما الشعر الحديث فللشاعر فيه رأي معتدل مقبول إذ لايعتبره القالب المثالي والصياغة الفضلى وما سوى ذلك لغو هراء كما يرى أنصار الشعر الحديث ، كما لايعده ضعفاً أو خروجاً عن الأصالة الشعرية والموهبة الأدبية الرائعة ..

وقد تحدث الاستاذ سيد قطب عن الشعر الحديث حديث المنصف عبر رأيه في قصيدة لنازك الملائكة في ديوانها « قرارة الموجة » حيث يقول :

« تعد رائدة كوكبة من الشعراء في العراق وفي لبنـان يمثلون فجراً جديداً للشعر العربي قد لانقر كل اتجاهاته ، ولكننا نرى فيه طليعة مبشرة ترتقب استقرارها على قواعد مطمئنة واثقـة » .

* * *

ولم تكن أهداف الحياة عند الشاعر الشاب سيد قطب كأهـداف الحياة عند غيره من الشعراء عبر العصور المختلفة تنحصر في اجتناء لذة وجمع مال واتباع هوى، ولكنها كانت أهدافاً ذات بال ، وكأني به طائر غرد يتنقل من غصن إلى غصن ومن رابية إلى رابية يسمع حفيف الشجر وثرثرة الينبوع ، ويحس بعبير الزهر وشعاع الشمس وضياء القمر لينطلق عبر ما يحس وما يسمع ومـا يشاهد في تفكر وتدبر وعمق سؤال ، ثم يكون الشعر رسالة من رسالات الحياة البانية الهادفة !

ومن الشعر الهادف والصفاء المشرق انطلق سيد قطب الى ميدان من الفكر أرحب وغور من الحياة والوجود أعمق ، ولو انصرف للشعر انصراف إقبال إليه أو قَصَر حياته كما فعل حسان عليه لكان سيد قطب في الطليعة من شعراء العصر الذين لايبلغ مداهم كثيرون ممن كان لهم في مجال الشعر باع .. وفي ميدانه سبق وتألق !

* * *

ولا بد من التلميح بل التوكيد هنا في نهاية مطافنا بسيد قطب الأديب إلى أن نشير إلى رأي غير جاد ولا سليم يعرضه بين الحين والآخر خصوم لسيد أو شانئون حين يرون أنه أديب ولكن غير مفسر .

وسر هذا الرأي إن أحسنّا الظن بأصحابه أن أسلوب سيد الأدبي المشرق الذي يلوح بل يسري روحاً حياً في ثنايا عباراته ـ يأخذ باللب ويأسر القارىء الذواقة والمطلع الأديب ، وما من عيب يعيب الرجل هنا ، والقرآن نفسه كان معجزة فصاحة ونبع بلاغة وبيان ! .

إن الذي نراه أن سيد قطب الأديب هو الذي قدَّم لنا سيد قطب المفسر ، ذلك أن صفاء الوجدان وقوة البيان قد التقيا بصفاء العقيدة وقوة الإيمان ، فكان المفسر الملهم كما يلمح ذلك ويدركه كل من كان له أدنى أثارة من ذوق أدبي مرهف وإحساس فني رفيع !

* * *

وفي أتون المحنة ونار الابتلاء .. تنفجر شاعرية سيد الداعية ، فينظم بعض القصائد وراء القضبان ، يعبر بها عما يدور بين جوانحه ، وما يختلج في صدره ، وما تحمله النفس الكبيرة من ازدراء لكل مظاهر العبودية الهابطة التي تمثلها صنمية الطغاة وهوان الأذلاء الذين هانت عليهم أنفسهم ورخصت لديهم قيم الحياة الحرة الكريمة .

يتحدث سيد الشاعر عن صنم جديد نصب نفسه في الساحات وقام يخطب الجماهير وراح يقود الجموع نحو مزيد من الضلال والضياع والمذلة ، إنه هبل ... حفيد الصنم الأكبر الذي كانت تقدسه الجاهلية الأولى عند الكعبة :

هبل هبل .. رمز السخّافة والدجل
من بعد ما اندثرت على أيدي الأباة
عادت إلينا اليوم في ثوب الطغاة
تتنشق البخور تحرقه أساطير النفاق
من قيدت بالأسر في قيد الخنا والارتزاق
وثن يقود جموعهم ... يا للخجل

ويشير إلى عمالة ذلك الصنم .. وإلى العدو الذي يتكفل به يضفي عليه ثياباً من التوقير وأسمالاً مهترئة من الاحترام .. والقطيع الغبي يسعى لتقديس جلاده ويقبّل اليد التي تحمل له سكين الجزار في معركة الإذلال :

هبـل ... هبـل
رمز السخافـة والجهالة والدجـل
لا تسألنْ يا صاحبي تلك الجمـوع
لمن التعبّد والمثوبة ... والخضوع
دَعْهـا فما هي غير خرفـان ... القطيع
معبودهـا صنم يـراه .. العم سـام
وتكفّل الدولار كي يضفي عليه الاحترام
وسعى القطيـع غباوةً ... يا للبطـل

ويصور الصفات التي أضفاها القطيع على « معبوده » الجديد والهالة التي أحاطه بهـا .. حتى جعله يشارك الأنبياء في صفاتهم والملائكة في طباعهم ؛ وذلك لعمري من الجهالة .. ومن الجهالة كما يقول الشاعر .. ما قتل !

هبـل ... هبـل
رمز الخيانة والجهالة والسخافة والدجل
هتافة التهريج مـا ملوا الثنـاء
زعمـوا له مـا ليس ... عند الأنبيـاء
مَلَكٌ تجلبب بالضياءوجاء من كبدالسماء
هـو فاتح ... هو عبقري ملهم
هـو مرسـل ... هو عالم ومعلّم
ومن الجهالة مـا قتـل

ويأتي دور الصنم الغبي الذي صدّق ما يقال ودور الحر الأبي الذي يأبى الذل ويرفض العبودية ولكن الرجال قليل .

فليصبروا الصبر الجميل .. وليتوقعوا نهاية الصنم .. وسقوط الطاغية ..

هبل ... هبل

رمز الخيانة والعمالة والدجل

صيغت له الأمجاد زائفة فصدقها الغبي

واستنكر الكذب الصراح ورده الحرّ الأبي

لكنما الأحرار في هذا الزمان هُمُ القليل

فليدخلوا السجن الرهيب ويصبروا الصبر الجميل

وليشهدوا أقسى رواية .. فلكل طاغية نهاية

ولكل مخلوق أجل .. هبل ... هبل

هبل ... هبل

* * *

وفي قصيدة أخرى يخاطب سيد كل أخ له في الدعوة ، وكل رفيق في طريق الإيمان وميدان الجهاد والاستشهاد :

أخي أنت حرٌّ وراء السدود

أخي أنت حرٌّ بتلك القيود

إذا كنت بالله مستعصماً

فماذا يضيرك كيد العبيد

أخي ستبيد جيوش الظلام

ويشرق في الكون فجر جديد

فأطلق لروحك أشواقها

ترَ الفجر يرمقنا من بعيد !

ويؤكد سيد المعذب السجين أنه أقوى من سجّانيه وجلاديه ، وأن المؤمن في سجنه أكثر سعادة من الحاكم المستعلي في بروجه العاجية ومواكب الحراس تحيط به من كل جانب في رهبة وفزع :

أخي قد أصابك سهم ذليل
وغدراً رماك ذراع كليل
سيبتر يوماً فصبر جميل
ولم يرم بعد عرين الأسود

أخي قد سرت من يديك الدماء
أبت أن تشل بقيد الإماء
سترفع قربانها للسماء
مخضبة بوسام الخلود

ويعاتب الشاعر المؤمن أخاه ورفيق جهاده .. ويدفعه لمزيد من الثبات ومزيد من التضحيات :

أخي هل تراك سئمت الكفاح ؟
وألقيت عن كاهليك السلاح ؟
فمن للضحايا يواسي الجراح ؟
ويرفع رايتها من جديد ؟

ثم يخاطب صاحبه وكأنما يزيح سجف الغيب ويرى ختام حياته على أيدي الظالمين فيقول :

أخي إن ذرفت عليّ الدموع
وبللت قبري بها في خشوع
فأوقد لهم من رفاتي الشموع
وسيروا بها نحو مجد تليد!

وأخيراً يرى نهايته الكريمة التي ينالها كل شهيد ويحظى بها المقربون :

أخي إن نَمُتْ نلقَ أحبابنا
فروضات ربي أُعدت لنا
وأطيارها رفرفت حولنا
فطوبى لنا في ديار الخلود !

ويسجل الشاعر الشهيد على لسان أخيه جواب الواثق بالله المطمئن إلى رحمته المعتز بدينه :

سأثأر لكن .. لرب ودين
وأمضي على سنتي في يقين
فإما إلى النصر فوق الأنام
وإما إلى الله في الخالدين !

أرأيتم كيف يكون الشعر الجاد الهادف رقّت حواشي صاحبه أم التهب جنبه بنار الظالمين وعذاب الطغاة ، ذلك أن الشعر عند المجاهدين من الرجال ليس وسيلة عبث ولا طريق عيش رخيص ولكنه وسيلة تعبير صادقة تنفجر أحرفه ناراً تحرق الظلمة أو تنساب نوراً يضيء طريق الأجيال .

* * *

وأقف في تقدير وإعجاب عند قصيدة « فلسطين الدامية » التي عبر بها الشاعر عن أحاسيسه الصادقة نحو فلسطين المتآمر عليها وشعبها المجاهد المنكوب . وكان ذلك في وقت مبكّر كانت فيه مصر تتردى بين أحضان الفرعونية والفرعونيين ، فانبرى الشاعر الشاب يحيي بقصيدته جهاد المجاهدين ، وينعَى على الدخلاء تآمرهم وغدرهم بالشعوب المغلوبة والأوطان السليبة : (١)

فلسطين الدامية

عهد على الأيام ألا تهزموا
النصر ينبت حيث يرويه الدم
في حيث تعتبط الدماء فأيقنوا
أن سوف تحيوا بالدماء وتعظموا

---

(١) جريدة الشباب المصرية ـ العدد الصادر في ١٩٣٨/١٠/٥

تبغـون الاستقـلال تلك طريقـه

ولقـد أخذتـم بالطريق فيمموا

وهـو الجهـاد حميـة جياشـة

ما أن تخاف من الردى أو تحجم

إن الخلود لمـن يطيق ميسـر

فليمضِ طلاب الخلود ويقدمـوا

وطـن يُقَسَّم للدخيـل هديـة

فعلام يحجم بعد هـذا محجم ؟

والشرق ويح الشرق تلك دماؤه

والغرب ويح الغرب يضربه الدم

وحشية كشف الزمـان حجابهـا

لا بـل أشد من الوحوش وأظلم

الوحش يفتك جائعاً ويعف عن

فتكـاته إذ مـا يحب ويطعـم

كان هذا الإحساس من سيد قطب الشاب نحو فلسطين وأهلها قبل أن يتخذها بعض أدعياء الوطنية ميداناً للارتزاق يأكلون بها وبالحديث عنها فاخر الطعام ويرتدون وثير الثياب ...

وهكذا نرى أن الشاعر كما يراه سيد قطب ليس مَسْلاة لذوي السلطان ولا ملهاة للمترفين ، ولكنه إنسان مرهف الحس شفيف الوجدان ، لايتوقف عند رؤية الكون بعينيه رؤية ظاهرة مجردة ، بل يسبر أغوار الحياة بقلبه ويستشف الكون بأحاسيسه ، فيصور لنا الإنسانية من حوله بمسراتها وأحزانها عميقة عميقة .. أبعد بكثير من السطح الظاهر والأشكال التي تفنى وتزول !

ولئن كان الشهيد أحس في تفجر شاعريته شاباً ينزه الشعر عن عبث العابثين وتدني الغاية ، فقد ختم حياته وهو يرفع مكانة الشعر إلى مرتبة علوية يعتبره معها سلاح معركة وهتاف مجاهد ومناجاة شهيد !

ومن الإنصاف أن نقول في ختام الحديث عن سيد قطب الشاعر أنه لايعد في الأفذاذ من الشعراء كما يعد في الأفذاذ من المفكرين ، ويرجع ذلك لانصرافه عن الشعر إلى الفكر وعن العاطفة الجياشة المشبوبة إلى الرأي المتزن والدراسات الرصينة . ولو تناول الشاعر الشاب ـ كما أرى ـ موهبته الشعرية بالصقل والبلورة والتطوير لكان له في عالم الشعر مكانة عالية وفي دنيا القصيد منزلة رفيعة وكيان مرموق !..

النزعة الاخلاقية
في ادب سيد قطب

ليست النزعة الأخلاقية والاتجاه السوي في الدعوة إلى الفضيلة والخير والبناء دخيلة على حياة الأديب سيد قطب ، وهو الذي عرفناه أخلاقياً في بيت متدين محافظ يعرف الدين نوراً في حياة الانسان والمحافظة استقامة في السلوك وتطافة في المعاملة .

ومن هنا جاء في ثنايا عطاء الأديب كثير من الأفكار النابعة من مثل هذه الروح الصافية وهذا الاتجاه السليم .

غير أننا نلاحظ بصورة أكثر وضوحاً وفي إطار أكثر تحديداً واتجاه أكثر انطلاقاً في كثير مما كتب من المقالات في الأعوام الأولى من عطائه الأدبي ، ثم تعمقت الصورة ووضحت الرؤية حين اتخذ الاسلام منهاج حياة متكامل في عطائه الفكري الهادف .

وفي العدد الأول من السنة السابعة من صحيفة دار العلوم الصادر في عام ١٩٤٠ نشر الأديب سيد قطب مقالا[٢] يقع في أربع صفحات بعنوان « المطربون والمطربات هم الطابور الخامس في مصر » .. وقد أشار فيه إلى آثار التهتك الأخلاقي الذي تتركه أخلاق المطربين والمطربات في حياة الأسرة ، وما يتبع ذلك من تفسخ وضعف في كيان الأمة ، مما يجعلها لقمة سائغة في فم المحتل وألعوبة رخيصة هزيلة في يد الدخيل .. بالاضافة لما نعرفه جميعاً عبر ما ينشر وما يذاع من فضائح تكشف بين الحين والآخر عن العلاقة الوثيقة بين المطربين والمطربات من جهة وبين مخابرات عدد من الدول

الأجنبية من جهة أخرى ، حيث تستطيع الجاسوسية العالمية أن تعرف كثيراً مما تريد في حفل راقص أو على مائدة قمار أو مقصف خمر .. أو ليلة منكرة حمراء روادها الساقطون والساقطات باسم الغناء .. والطرب .. والموسيقى .. والفنون !

وفي العدد ٣٧٤ من مجلة الرسالة الصادر عام ١٩٤٠ مقال عنوانه « الغناء المريض ينخر الخلق المصري والمجتمع » وقد والى فيه حملته على الغناء الرخيص والأداء الهابط الذي أحال الأمة إلى زمر من العابثين وفرق من المخربين ، لايخربون جدران بيوت صماء وإنما أنفساً بريئة وأسراً آمنة مطمئنة .

وفي العدد ٣٩٥ من مجلة الرسالة الصادر عام ١٩٤١ مقال قيم هادف بعنوان « فرق مكافحة الغناء المريض » أشار فيه إلى الأثر السيء الذي يخلفه الغناء المريض في نفسية الجيل وكيان المجتمع ، ودعا أن يقوم بين ذوي الرأي والفكر والمسؤولية « فرق » جادة هادفة من دعاة الخير تمنع الكلمة الرخيصة والأداء الهابط أن يتسلل إلى النفس البشرية عبر الأذن المستغفلة الساذجة !

ثم يستمر الأديب الأخلاقي في حملته على الانحراف والانحلال ، فيكتب عدداً من المقالات تحت زاوية « من لغو الصيف » تناول فيها أسواق الرقيق الرخيصة التي تتناول المرأة في الحفلات وعلى الشواطىء عارية أو شبه عارية ، كما تناول فيها حياة الارستقراطيين العابثة ومدى بعدهم عن آمال الأمة وآلامها وغير ذلك مما نشر في الأعداد (٦٨١ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٨٧ ، ٦٨٩) من مجلة الرسالة عام ١٩٤٦ م.

وفي العدد ٩٩٩ من السنة العشرين ١٩٥٢ تناول الأديب المسلم الأدب الساقط والكلمة الرخيصة ووضعهما على المشرحة في مقال « أدب الانحلال » ــ الذي دعا فيه إلى أدب هادف قوي ، يربي أجيالاً ، ويقيم مجتمعاً ، ويصنع أمة القرآن صناعة جديدة تجعلها كما وصفها ربها : « خير أمة أخرجت للناس » !



سيّد قطب

النّاقد المنصف

- مهمة الشاعر في الحيـاة
- نقد مستقبل الثقافة في مصر
- كتـب وشخصيـات
- النقد الأدبي (اصوله ومناهجه)

سيد قطب

الناقد المنصف

في أوائل الثلاثينات وفي صفحات كثر من صحف مصر الأدبية ـ ومصر يومئذ أم الصحافة ـ نشر الأديب سيد قطب ثمرات شتى من عطائه النقدي ، بدا واضحاً في مقالات عديدة استمرت في ميدان النقد حتى عام ١٩٥٠ م .

وليس بالمستطاع هنا أن نعرض مقالاته دراسة وتحليلاً لأن ذلك يستغرق صفحات كثيرة جديرة بأن تؤلف كتاباً قائماً بذاته في موضوع النقد ، بالإضافة للكتب النقدية الأخرى الذي قدمها الناقد سيد قطب والتي سنقدمها في دراستنا هنا عن « سيد قطب الناقد المنصف » .

غير أنه يحسن بنا أن نشير لعدد من هذه المقالات تعداداً لاحصراً حتى نلم بالروح التي كان يكتب بها الناقد وبالخط الذي كان عليه يسير .

وأبرز مابدأ به سيد قطب حياته ناقداً انتصاره للعقاد على الرافعي في معركة أدبية شارك فيها عدد من كتاب العربية المعروفين يومئذ في شتى أقطارهم ، بالاضافة للرافعي والعقاد قطبي الرحى في معركة المفاضلة بينهما والموازنة بين ما كانا يقدمان للعربية من عطاء أدبي وثمار قلمية كان لها الأثر العميق في دنيا الكلمة العربية والثقافة الاسلامية ، مما تتلمذ عليه وأفاد منه كثير من ذوي المواهب والقدرات الأدبية الفكرية المبدعة اليوم .

ومن أبرز الذين شاركوا في تلك المعركة الأدبية العنيفة الصاخبة الحادة الأساتذة : محمود محمد شاكر ، وعبد الفتاح غندور ، وعبد المتعال الصعيدي ، وكامل محمود حبيب ، وعلي الطنطاوي ، واسماعيل مظهر ، ومحمد سعيد العريان، وعبد الوهاب الأمين ، وصلاح الدين المنجد ، ومحمد رفيق اللبابيدي ، ومحمد أحمد الغمراوي ، وعبد القادر الجنيدي ، وغيرهم .

أما مقالات سيد قطب النقدية في هذه المعركة فقد كانت في حدود أربع عشرة مقالة وكانت بعنوان « آراء حرة بين العقاد والرافعي » • وكان سيد قطب يدافع فيها عن العقاد ويعده بين المعاصرين من الكتاب والمفكرين رائد الثقافة العميقة الأصيلة والكلمة المعبرة ، في حين كان يعدّ الرافعي ويراه أديباً يحرص على جرس اللفظ أكثر من جوهر المعنى • وقد ختم مقالاته تلك بمقالة أخيرة عنوانها :

كلمة أخيرة •• بين العقاد والرافعي وبيني وبين الرافعيين !

وبعد ذلك تناول في مجموعة أخرى من المقالات غزل العقاد وقد بلغت تسع مقالات دافع فيها عن شاعرية العقاد ، وعده يومئذ في الطليعة من شعراء الوجدان المعبرين عن المشاعر أصدق تعبير •

وعند دراسة سيد قطب الناقد والبحث في عطائه النقدي نستطيع الوقوف على مراحل ثـلاث :

١ ــ المرحلة الأولى :

وهي مرحلة التفتح والبداية ويمثلها كتابه أو بحثه أو محاضرته « مهمة الشاعر في الحياة » الذي قدمه في مطلع شبابه وهو يمسك بالقلم الفتي ليقدم باكورة العطاء النقدي الهادف •

٢ ــ المرحلة الثانية :

وهي مرحلة كان يغذي خلالهـا الصحف الأدبية التي طغت عليهـا فيما بعد الصحف المتبرجة الملونة ، تحمل للناس الصور العارية بدل الفكر الهادف ، وقد نشر معظم عطائه في مجلتي الرسالة والثقافة وقليلاً منه في مجلتي المقتطف والكتاب • ثم صدر كثير من هذا العطاء في كتابه « كتب وشخصيات » • وظل بعض هذا العطاء مخزوناً في مجلدات تلك الصحف التي لم تعد ترى النور بعد أن توقفت عن الصدور •

٣ ـ المرحلة الثالثة :

وهي المرحلة التي قدم فيها الثمرة الناضجة من عطائه النقدي ممثلاً في كتابه « النقد الأدبي : أصوله ومناهجه » . وهو الأمر الذي سوف نشير له بشيء من الوضوح والتفصيل بإذن الله .

* * *

غير أن أبرز أعمال الأديب سيد قطب النقدية ما ورد في صورة كتب متكاملة الموضوع موحدة الفكرة وأهمها :

١ ـ مهمة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر :

وهو موضوع محاضرة ألقاها الأديب الشاب في المدرج بدار العلوم . وقد أشرف على المحاضرة يومئذ وكتب مقدمتها حين طبعت كتاباً في الثامن والعشرين من شهر شباط (فبراير) عام ١٩٣٢ م ـ أستاذ سيد قطب الدكتور محمد مهدي علام أستاذ التربية بدار العلوم يومذاك .

٢ ـ نقد مستقبل الثقافة في مصر :

وهو نقد للكتاب الذي ألفه الدكتور طه حسين عام ١٩٣٩ م بعنوان « مستقبل الثقافة في مصر » . وقد تناول الكتاب كاتب آخر قومي الاتجاه هو الأستاذ ساطع الحصري في مقالات نشرتها الرسالة في جملة من أعدادها [١] .

أما سيد قطب فقد نشر نقده بحثاً متكاملاً في عدد واحد [٢] من صحيفة دار العلوم . ولقد توهم من ظن وكتب أن البحث قد نشر في أعداد متتالية من صحيفة الدار . ولا بد من الاشارة هنا إلى أن الناقد الشاب كان يومئذ محرراً في جريدة الأهرام مما أعانه على نشر رده على الدكتور طه حسين .

---

(١) اعداد الرسالة التي تحمل الأرقام ابتداء من ٣١٦ وحتى ٣٢١ .

(٢) الصفحات من ٢٨ ـ ٧٩ من العدد الرابع في السنة الخامسة من صحيفة دار العلوم الصادرة في ربيع الأول ١٣٥٨ هـ الموافق نيسان (ابريل) ١٩٣٩ م

ويبدو أن جريدة (الاخوان المسلمون) وهي صحيفة يومية كبرى كانت تصدر في تلك الفترة قد أعجبت بالرد فنشرته على صفحاتها ، وكانت هذه اللفتة بداية صلة ودودة هادئة غير منظمة بين الأديب الشاب المهتم بشؤون الأدب وحدها والحركة الاسلامية الكبرى التي تهتم بتربية الشباب المسلم وتوجيه الأمة أجمع ، نحو التكامل والشمول في الفكر الاسلامي الأصيل . وسيكون لهذا الكتاب نصيب من دراستنا عن سيد قطب الناقد في الصفحات التالية .

٣ ــ النقد الادبي (اصوله ومنهجه) :

وهو الكتاب الذي تناول فيه الأديب النقد وقدمه موضوعاً متكاملاً له أصوله ومناهجه . وقد أقر خلال دراسته تلك من سبقه من النقــاد على جوانب أحياناً ، وتميز عنهم في جوانب شتى أحياناً أخرى .

وهذا الكتاب كما سنبين يمثل قمة النضج لدى الناقد قبل أن يتخلى عن الكتابة في النقد الأدبي والتوجه إلى العطــاء الفكري والاصلاح الاجتماعي في حيــاة مصر والعالم الاسلامي أجمع ، وكان ذلك عام ١٩٥١ م حيث ودّع العطاء الأدبي المحض ليدخل التاريخ من باب طلائع المصلحين . وكان سيد قطب قد ودع دنيا النقد الأدبي بأكثر من مقالة نشرها في أعداد شتى من مجلة الرسالة تحت عنوان[١] : هل الأدب قــد مــات ؟

مهمة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر[٢]

أول عمل جاد وأول دراسة هادفة قدمها سيد قطب في (النقد الأدبي) كانت كتاب « مهمة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر » .. وكان الكتاب محاضرة أعدها ليلقيها في مدرج دار العلوم : الكلية التي درس فيها ومنها تخرج .. وقــد طبع محاضرته تلك في شهر شباط (فبراير) عام ١٩٣٢ م .

---

(١) الأعداد ٩٣٩ ، ٩٤١ ، ٩٤٣ ، من مجلة الرسالة لعام ١٩٥١ م .

(٢) يقع الكتاب في « ١٢٣ » صفحة من القطع الصغير .

وقد قدَّم للمحاضرة أحد أساتذته في دار العلوم الدكتور محمد مهدي علام الذي أرى أن تثبت تقديمه الموجز القيم هنا لما له من دلالات كثيرة لابد من تناولها عبر حديثنا عن سيد الناقد :

« لقد كان من بواعث اغتباطي ، أن أشرفت على إلقاء هذه المحاضرة ، بمدرج (دار العلوم) معهد العلم والأدب ، الذي قال فيه المرحوم الإمام الأستاذ « محمد عبده » : إن باحثاً مدققاً ، لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا ، لوجدها تموت في كل مكان ، وتحيا في « دار العلوم » .

ولئن كنت قدمت المحاضر « سيد قطب » بأنه طالب يسرني أن يكون أحد تلاميذي ، فإنني أقول اليوم — وقد سمعت محاضرته — إنه لو لم يكن لي تلميذ سواه ، لكفاني ذلك سروراً وقناعة واطمئناناً إلى أنني سأحمّل أمانة العلم والأدب من لا أشك في حسن قيامه عليها .

لقد كتبت منذ أسبوع كلمة قدمت بها كتاب « تاريخ اللغات السامية » لنجم آخر من نجوم (دار العلوم) هو « جودة الطحلاوي » وقد قلت في تلك الكلمة : إن في « دار العلوم » اليوم نهضة علمية أدبية ، يحمل لواءها نفر من أعز أبنائنا علينا ، وإنني حين ذكرت ذلك كنت أفكر في رهطٍ أعد « سيد قطب » في طليعتهم .

يعجبني في كاتب هذه المحاضرة جرأته الحازمة التي لم تَسْفه فتصبح تهوراً ، ولم تذل فتغدو جبناً . وإن هذه الجرأة الرشيدة التي دعته إلى الاستقلال بالرأي في بحثه — حتى ولو خالفنا في بعض ما نعتقده من الآراء الأدبية — لهي التي تجعله أحب إلى قلوبنا ، ولا أتردد هنا في أن أعلن أنه قسا على « شوقي » قسوة لا أغفرها له . لقد نقَّب في شعر شوقي حتى أخرج منه سقطات لايسلم منها فحل من فحول الشعراء في أي عصر أو في أية أمة ، وليس ذلك من الانصاف ، لأن لشوقي كنوزاً عظيمة من الشعر الخالد ، كان جديراً بالمحاضر أن يضعها في كفة وتلك السقطات في كفة أخرى ، ولست أشك في أنه إن فعل رجَّح كفة الحسنات ترجيحاً . على أنني لو سلمت له

جدلاً بأن جميع ما ذكر عن شوقي صحيح ، لكان من القلة إزاء بحوره الزاخرة ، بحيث لايقدح في منزلته ، ولا ينزله عن عرش الشعر الذي قلّما نازعه فيه منازع .

و (سيد قطب) باحث ناشيء ، تعجبني منه عصبيته البصيرة ، وإشادته بذكر الشعراء الناشئين من أمثاله ، وهو جدّ موفق في اختياره لهم ، وليس أقل توفقاً في اختياره من شعر نفسه ، وإن ستره تواضعه وراء ستار « لشاعر الناشيء » .

وقصارى القراء ، أن أقول لهم : إنني أعد « سيد قطب » مفخرة من مفاخر (دار العلوم) ، وإذا قلت (دار العلوم) فقد عنيت دار الحكمة والأدب » . .

ونستطيع عبر هـذا التقديم الواضح المتزن أن نخلص إلى نتائـج محدودة مرموقة أهمهـا :

● أن سيد قطب كان طالباً لامعاً وهو على مقاعد الدرس في دار العلوم .

● وأنه كان من مفاخر دار العلوم معهـداً ، ومن مفاخر أساتذتهـا : مربين وعلماء وأدبـاء !

● وأنه ببحثه هذا كان يقدم باكورة من إنتاجه في النقد الأدبي الذي عمق مع الأيام واتسعت مجالاته ، فشملت عدداً من الاشخاص والأقلام والأعمال الأدبية في شتى الفنون وشتى الأساليب والأغراض ...

● وأنـه كان يطرق باب النقد ويخطو نحو دنياه بقدم ثابتـة وثقة لاتعرف الخوف أو التردد ، مما جعله يرد بعد تقديم أستاذه الدكتور مهدي علام فيقول :

« مع احترامي الكبير لما ذكره أستاذي عن شوقي .. إني أميل إلى أن أقرر : أنني فيما ذكرته في محاضرتي لم أكن بصدد إصدار حكم على شوقي ، وإنما اخترت أمثلة من شعره ، وإذا كنت قاسياً في تعليقي ، فتلك قسوة على المثال الذي اخترت لاقسوة على شوقي نفسه ـ وإن كان رأيي في شوقي كله بعد دراسة كاملة لكل ما أتنجه لا يختلف كثيراً عن تعليقي على الأمثلة المختارة . وبهذه المناسبة أعد بأن أكتب نتيجة دراستي لشوقي في محاضـرة أو كتاب آخر ، يتسع للبحث والدراسة

والاستقصاء ، ويكون رأيي إذ ذاك مؤيداً بكل ما أتتجه شوقي بلا استثناء ، وأنا أعود فأشكر لاستاذي الفاضل أن حفزني إلى إخراج مبحث جديد . » .

وفي ثنايا هذا الحوار النقدي الهادف وبين سطور هذه المناقشة الودية في النقد الرصين بين « الاستاذ » الشيخ و « تلميذه » الشاب نلاحظ اعتداد الأديب الشاب سيد قطب بنفسه وبقلمه ، وبمقدرته على أن يكشف أخطاء الكبار من الأدباء والشعراء ، بحيث يعمل كما قال على إخراج مبحث جديد يخص به شوقي وسواه . وقد فعل ذلك في كتابه الذي جاء بعد حين وسماه « كتب وشخصيات » !

غيرأنه من الحق الذي لابد أن يقال أن الأديب الشاب كان يهدف في كتابه هذا « مهمة الشاعرفي الحياة وشعر الجيل الحاضر » إلى اثبات وجود الجيل الجديد من الشعراء الناشئين ، لئلا يطغى عليهم تيار شهرة القدامى ويدعهم تحت ركام النسيان وفي ظلام التعمية المقصودة التي تحسن مثلها صحافة « الباشوات » و « البكوات » في مصر المظاهر والألقاب .. ومن هنا كانت جرأته في أن ينقد حتى القسوة ويكشف حتى التعرية سقطات الذين لايعترفون حتى بكبوات الجياد وهفوات الرجال ، ويمضون في استعلاء أدبي وغطرسة قلمية تدفن في ثناياها كل كفاءة وتقتل بقسوتها ابداع المبدعين من الناشئين ومواهب الموهوبين من الشباب !

ومن الواضح في عنوان الكتاب أن الناقد يريد أن يحدد أهداف الشاعر في الحياة لتخرج عما تعارف عليه الناس في بعض العصور من أن الشاعر إنسان يبحث عن اللذة واللهو حيثما كان ، وأنه يدفع في سبيل ذلك ضريبة باهظة تكلفه الكثير من كرامته وإنسانيته .. فارتقى سيد قطب بكتابه البكر هذا وهو يتحدث عن أهداف الشاعر في الحياة الإنسانية ومهمته بين الناس حتى بلغت مستوى يجعله في مصاف أصحاب الأهداف النبيلة والغايات السامية للإسهام في دحر الباطل وتبديد الظلمات وبناء النفس الانسانية والمجتمع الفاضل .

وهكذا يحدد لنا الناقد الشاب مهمة الشاعر في الحياة الانسانية ، ثم يلقي بأسلوبه المشرق وكلماته الواثقة الاضواء على الشاعر الانسان ليبين لنا من هو ذلك الشاعر الانسان ؟

ويربط الناقد الشاب بمهمة الشاعر في الحياة شعر الجيل الحاضر ويعني بهم الشعراء من الشباب ، ويعرض نماذج من شعرهم ليبين للناس أن الشباب قد خرجوا عما تعارف عليه قراء الشعر أو عشاق الأدب من أنه وسيلة للتسلية أو أسلوب من أساليب الترفيه عن ذوي الجاه والمال والسلطان ـ ذلك أن الشعر والأدب ليسا سوى أسلوبين من أساليب التعبير عن مشاعر الانسان ووجدانه ، وأنهما وسيلتان من وسائل بناء المجتمعات حين يتولى أمرهما عقول نيّرة وقلوب كبيرة ونفوس زكية .

ويعرض الناقد الشاب لنا نماذج من شعر الشعراء الناشئين معتزاً بهم معتداً بشعرهم وهو واحد منهم مشيراً لنفسه بكلمتي «شاعر ناشىء» . ومن أبرز الذين عرض أسماءهم وشعرهم في تطلع إلى مزيد من الابداع ومزيد من العطاء : عبد الرزاق عتيق ، وعلي عبد العظيم ، ومحمود عماد ، ومحمد الهواري .

وقد كان لهؤلاء جميعاً دور فيما بعد في ميدان الشعر العربي المعاصر في مصر ولكنه دور دون المستوى الذي كان الناقد يطمع فيه أو يطمح إليه كما أرى .

ولذا نراه يقول : « والمفروض بعد ذلك أن للشاعر مكانه الممتاز بين الداعين إلى المثل الأعلى ، في أنه صورة من صور الدعوة ، وهو إذن سيؤثر في الوسط الانساني المحيط به ، ويقوم بمهمة التعارف بين الجماهير والحياة الخفية الأسرار ، بما يطلعهم عليه من صور فنية لهذه الحياة » [1] .

ثم يؤكد طراز الشعراء المؤثرين الصادقين الذين يفعلون ما يقولون وهم الذين استثناهم القرآن الكريم بقوله تعالى : (إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

فيقول : « والمعروف في الدراسات النفسية أن الانسان لايستطيع التأثير في غيره مالم يكن ذا شخصية واضحة يعتز بها ولا يفرّط فيها . شخصية واضحة تستطيع الإقناع الصامت والإغراء بالمتابعة » [2] .

ويرفض الأديب الشاب والناقد الناشىء يومئذ أن يكون الشاعر صورة لعصره

(١ ـ ٢) مهمة الشاعر في الحياة لسيد قطب ص ١٠٧ .

دون اعتبار شخصيته ولا أن يعبر عن شخصه مبتوراً عما يحيط به ، وإنما يدعو إلى التداخل بين العصر والشخصية حتى يعيش الانسان لأهداف نبيلة في الحياة الانسانية ولكن في إطار من الحياة الانسانية المتفاعلة التي تحيط به ويتعايش هو معها في غير عزلة ولا انطواء .

نقد مستقبل الثقافة في مصر[1]

كان سيد قطب معجباً بجوانب كثيرة من حياة الدكتور طه حسين ...

وأول هذه الجوانب عصاميته التي ألقى عليها طه حسين ضوءاً في كتابه «الأيام» مما حدا بسيد قطب متأثراً بصورة مباشرة أو غير مباشرة أن ينسج ـ كما يقال ـ على منواله ويؤلف كتابه (طفل من القرية) ليأتي صفحات من تاريخ القرية المصرية والحياة المصرية والتعليم في مصر في تلك الحقبة من الزمن .

ثم هذا الاسلوب المشرق وفيه بعض التكرار المحبب الذي عرف به أسلوب طه حسين في العصر الحديث ، كان هذا قبل أن يستقل سيد قطب في أسلوبه ويصبح صاحب مدرسة خاصة به في الفكر والاسلوب ، ليجمع أحلى مافي رياض الأدباء من ثمرات متمثلة في عمق العقـاد ، وإشراقة طـه حسين ، وروح الجملة القرآنية في أسلوب الرافعي العظيم .

ومن مظاهر الإعجاب بطه حسين ما أورده سيد قطب في كتابه (نقد مستقبل الثقافة في مصر) من الصفات التي أضفاها على كتاب طه حسين رغم سقوطه في الكتاب أكثر من مرة ورغم اعتراض سيد قطب عليه ورفضه لكثير من أفكاره .

لقد سمّى كتاب طه حسين ذاك عملاً عظيماً ، وسمى كتابه ذاك كتاب الموسم أو كتاباً ضخماً ، وذكر أن كاتبه خليق بعمله العظيم ، خليق بتقدير هذا العمل .

وكتاب (مستقبل الثقافة في مصر) .. أصدره الدكتور طه حسين في الثلاثينيات عن « مستقبل الثقافة في مصر » ضمنه تصوره لمستقبل الثقافة في مصر بعد استقلالها،

---

(١) يقع الكتاب في ٨٠ صفحة من القطع المتوسط .

وعرض فيه سياسة كاملة للثقافة النظرية شملت التعليم الرسمي ابتداء من مرحلته الأولية وانتهاء بالمرحلة الجامعية العليا ، كما تجاوز في تصوره مراحل التعليم جميعاً إلى الأدب والثقافة عبر وسائلها العديدة وأساليبها المختلفة من مسرح وخيّالة ومذياع وصحافة ...

ولعل الدكتور طه حسين في كتابه ذاك أصاب في جوانب من الموضوع وهو يدعو لإكرام المعلم وتقديره ومنحه مزيداً من الثقة ومزيداً من الرعاية ، ولعله أحسن كذلك وهو يطالب بوضع حل لمشكلة الامتحانات التي ترهق الطالب ولا تمثل المقياس الحقيقي لعقلية الطالب ومستواه العلمي والثقافي العام ..

وليس هذا هو مجال حديثنا عن الكتاب ولكنا نريد أن نبين كيف أن الشهيد ــ وهو الذي كان يعجب بطه حسين في جوانب معينة ــ قد رفض السقوط الذي سقطه طه حسين في كتابه وهو يدعو إلى التوجه نحو أوروبا والأخذ منها بلا تحفظ والتأثر بحضارتها بلا تمحيص : « حلوها ومرّها خيرها وشرها » وقد بنى دعوته وأقام دعواه على مغالطات ثقافية واجتماعية وانسانية وعرقية موهومة أبرزها الشهيد في كتابه (نقد مستقبل الثقافة في مصر) بصورة واضحة لالبس فيها ولا غموض ..

يقول طه حسين في كتابه ذاك :

« ولكن المسألة الخطيرة حقاً ، والتي لابد من أن نجلّيها لأنفسنا تجلية تزيل عنها كل شك ، وتعصمها من كل لَبْس ، وتبرئها من كل ريب ــ هي أن نعرف : أمصر من الشرق أم من الغرب ؟ وأنا لا أريد بالطبع الشرق الجغرافي والغرب الجغرافي ، وإنما أريد الشرق الثقافي والغرب الثقافي ... »

« فهل العقل المصري شرقي التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء ؟ أم هل هو غربي التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء ؟ وبعبارة موجزة جلية : أيهما أيسر على العقل المصري : أن يفهم الرجل الصيني أو الياباني أو أن يفهم الرجل الفرنسي أو الإنجليزي ؟ »

ويرفض ذلك سيد قطب ويكشفه من بداية الطريق وهو الذي عمل مدير مكتب لطه حسين يوم كان الأديب العربي الكبير مستشاراً لوزارة التربية والتعليم ،

وسيد قطب يومئذ أديب شاب يحمل القلم منذ أن كان على مقاعد الدراسة في دار العلوم إلى أن ولج ميدان الحياة الأدبية رحباً فسيحاً يقدم فيه العطاء تلو العطاء ويغرس فيه الفكرة بعد الفكرة ...

يقول سيد قطب في الرد على السقوط الذريع الذي يدعو مصر إلى إدارة ظهرها للسانها وعقيدتها وحضارتها لتقف مسخاً بين الأمم كما حدث لتركيا « الكمالية » الطورانية :

« ووضع المسألة في هذا الوضع تتجلى فيه كل مهارة الدكتور في المناقشة : فهو قد قسم الدنيا قسمين اثنين لاثالث لهما : قسم تمثله الصين واليابان ، وإن شئت فضم إليهما الهند وأندونيسيا . وقسم تمثله فرنسا وانجلترا ، وإن شئت فضم إليهما كل دول أوروبا وأمريكا !!

فلا بد للإجابة عن سؤال الدكتور في هذا الوضع أن تكون مصر أمة غربية لأنها ــ بلا تردد وبدون شك ــ تفهم الإنجليزي والفرنسي أكثر مما تفهم الصيني والياباني في هذا الزمان .

وهذا ما قصد إليه الدكتور من توجيه السؤال على هذا المنوال .

ولكن ــ لاريب ــ أن وجه المسألة يتغير لو كان الشرق الذي يواجهك به غير الصين واليابان والهند وأندونيسيا ــ أي لو كان هناك قسم ثالث للدنيا يمثله الشرق العربي والغرب العربي ومصر بينهما حلقة الاتصال .

ثم يزداد وجه المسألة تغيراً لو كانت الدنيا أكثر أقساماً حسب عقلياتها المختلفة ــ وهو الواقع ــ فكانت أوروبا وأمريكا تنقسمان بحسب العقلية الديمقراطية والعقلية الدكتاتورية ــ وبينهما خلاف أساسي لاشك فيه ــ وكان الشرق ينقسم بحسب أجناسه وهي كثيرة ، وحسب طبيعة بلاده وهي متغايرة .. إلى آخر الأقسام التي لابد أن يفطن إليها ويدقق في تمحيصها من يريد وضع مناهج الثقافة حسب العقليات . » .

وهكذا لاتنطلي على سيد قطب الشاب الخدعة التي ساقها الدكتور طه حسين في سؤاله المراوغ ومغالطته البارعة التي أراد عبرها أن يربط مستقبل الثقافة في مصر

بمستقبل الثقافة الغربية ، لاتخرج عنها ، ولا تتخلى عن إطارها العام ، أو تبتعد عن روحها بما فيها من حلو ومر وخير وشر كما يقـول العميد المعجب بالفكر اليوناني والثقافة الفرنسية !

ومن هنا فنّد سيد قطب ما أورده الأديب العربي الكبير وناقش ما قد ارتآه حتى رد الحق إلى نصابه والمقاييس الصحيحة إلى قواعدها ، ليكون الحَكَم العدل بعد ذلـك إقبال مصر على الشـرق والعربية والاسـلام لا على الغرب والتفرنج والصليبية الحاقدة !

ولو كان بحثنا هذا عرضاً لكتاب طه حسين أو كتاب سيد قطب لفصلنا فيـه وأوردنا ما يستغرق صفحات من هذا الكتاب ، ولكنه بحث يتناول جانب الإنصاف وروح النقد البنّاء لدى سيد قطب الذي كان في فترة من حياته معجباً بطه حسين ولكن في غير انهزام ، مقدّراً لما يكتب ولكن في غير ضعف ولا تراجع !!

إنه الإنصـاف في النقد الذي يضع الحق في نصابه ويذكر مواقف الرجـال وثمرات الأقـلام بما تستحق مـن الثناء العطر أو الجرح الهـادف دون مـواربة ولا التواء ...

كتب وشخصيات (١)

ليس من السهل ولا المستطاع أن أكتب آراء مفصلة في فصل من كتاب عن كل كاتب وكل عمل أدبي له ممن تناولهم الناقد في كتابه النقدي الثالث «كتب وشخصيات» ؛ لأنه تناول فيه أكثر من ثلاثين أديباً وبعض ماقدموا في عالم الشعر والقصة والرواية والنفس والبحوث والتراجم والتاريخ .

ولعل الصواب الذي أرى والمعقول الذي أقدم هو أن أُبرِز أهمّ ما ورد في الكتاب من أفكار وآراء ذات قيمة ووزن في عالم النقد ، مع رسم الاطار النقدي الذي وضع فيه الناقد رأيه وصاغ فيه عبارته .

---

(١) يقع الكتاب في ٣٣٢ صفحة من القطع الكبير .

واول ما يطالعنا في « كتب وشخصيات » الذي قدمه سيد قطب الشاب لمكتبة النقد العربية .. ملامح من الوفاء والجراة والانصاف وسعة الاطلاع !

اما الوفاء فيتبين لنا من إهدائه الكتاب : (إلى الملأ من الأدباء والشعراء والقصاصين والباحثين ، الذين اوحوا إليّ بهذه الفصول نقداً لاعمالهم الأدبية .. اهدي هذا الكتاب .. رداً للفضل واعترافاً بالجميل) .

وأما الجرأة فواضحة في اختياره عدداً من كبار الكتاب الذين سبقوه إلى دنيا الأدب وميدان الكلمة يصولون فيه ، وفيهم أساتذة أعلام من أمثال شوقي وطه حسين والعقاد !

وإنه ليخاطبهم خطاب الواثق بما يكتب المطمئن لما يعرض من فصول فيقول في إهدائه :

« فاذا غضب منهم من غضب ، ورضي منهم من رضي ، فعذري إلى اولئك ، وعذري إلى هؤلاء : انني لم اقصد إلى إغضاب او إلى إرضاء . وانما هي المرآة ارفعها لهم ليروا فيها صفحتي الوجه الذي لم يروا منه من قبل إلا الصفحة الجميلة .. ولكل وجه صفحتان !! » .

ومثل هذا القول يقودنا إلى الإنصاف الذي أشرنا إليه فقد راح يذكر لكل أديب إبداعه وعطاءه ، ثم يتناول هذا الإبداع والعطاء بما يستحق من الثناء عليه وما يجدر أن ينبه له .. حتى جاءت آراؤه متزنة مدروسة واثقة .

واما سعة اطلاع الناقد فتبدو عبر نافذتين مضيئتين :

نافذة تعدد الفنون وتنوع الموضوعات من قصة وشعر وعلم نفس وبحوث ودراسات وتراجم وتاريخ .. تناولها تناول الخبير الملم بل المطلع الدارس لكل فن من هذه الفنون العديدة ، التي يحتاج الاطّلاع عليها والبحث في آفاقها إلى جلَد ومثابرة لايتوفران إلا للقليل من الأدباء والناقدين .

ونافذة أخرى مكانية ذات ارتباط بديار الأديب الذي ينقد والشاعر الذي يتناول بين بيروت والقاهرة وعمّان ودمشق وبغداد ، مما يوحي أن للرجل اطّلاعاً واسعاً على ما كانت تقدمه الأقلام العربية في مصر بخاصة وفي أرجاء الديار العربية

كلها بعامة رغم حداثة عهده بدنيا الأدب يومذاك •• وحداثة سنه لو قيس بالذين سبقوه بالتأليف والكتابة والعطاء من أمثـال أستاذه العقـاد في تلك الآونة من حياته الأدبية •

ونعود لإبراز أهم ما ورد في الكتاب من آراء نقدية وفكر أدبي يكاد يكون معظمه جديداً غير مطروق ولا مسبوق إليه :

يعرض الناقد في أول فصـل من الكتاب تحت عنوان (في أصـول النقد) موضوعات شتى تتناول (النقد والفن) و (طريقة الأداء الفني) و (الصور والظلال في الفن) ـ عرضاً يدل على اطّلاع واسع وخبرة ذات أبعاد تغوص في أعماق القضايا الفنية المعاصرة ، ولا تكتفي بالمرور السطحي أو الوقفة الساذجة عند كل مؤشر أو معلم من معالم الميدان النقدي الفسيح •• ثم يمضي في فصل آخر من الكتاب تحت عنوان (في عالم الشعر) ليتناول موضوعات شتى عن (الوعي في الشعر) و (النفس الانسانية في الشعر العربي) و (الطبيعة في الشعر العربي) • فينقل القارىء إلى أجواء من الثقافة النقدية الرصينة التي تنبىء أن وراء هذه الصفحات القليلة نفساً شفافة ، وقلباً كبيراً ، وعقلاً نيّراً ، وثقافة واسعة تلمّ بكثير من معطيات الأقـلام وثمرات العقول ، مما مكن قلم الناقد الهادف أن يعرض رأيه في اعتداد وجرأة وعمق يضعه في الطليعة من زمرة النقاد الرّواد الذين يرجون لثمرات العقول والأقلام مزيداً من الإشراق ومزيداً من العطاء المثمر الباني •••

ويمضي الناقد سيد قطب في كتابه « كتب وشخصيات » ليتناول عدداً مـن الأعمال الأدبية في عالم القصة والرواية ـ من أمثال على هامش السيرة لطه حسين ، وبيجماليون والرباط المقدس لتوفيق الحكيم ، وإبراهيم الثاني للمازني ، والرواية الشعرية بين شوقي وعزيز أباظة ، وسارق النار لخليل الهنداوي ، وخـان الخليلي لنجيب محفوظ ، ومليم الاكبر لعادل كامل ، وبنت الشيطان لمحمود تيمور ، وقنديل أم هاشم ليحيى حقي ، وهمزات الشيطان لعبد الحميد جودت السحار • ويعرج على البيادر لميخائيل نعيمة ، وأومن بالانسان لعبد المنعم خـلاّف ، وسندباد عصري

لحسين فوزي ، والعناصر النفسية في سياسة العرب لشفيق جبري .. كل ذلك في فصل ضمها تحت عنوان « في النفس والعالم » .

وفي عرض مشوق وجلَد راسخ يعرض لنا (في البحوث والدراسات) على هامش التاريخ المصري القديم لعبد القادر حمزه وانطون الجميل الصحافي والأديب والناقد .. في كتابه عن شوقي .. ودفاع عن البلاغه للزيات ، وبين الفلسفة والأدب لعلي أدهم . ثم ينتقل إلى « التراجم والتاريخ » ليقدم لنا العقاد شاعر الغزل تحت عنوان دراسة الشخصيات بين العقاد وهيكل وطه ، وكتاب محمد علي الكبير لشفيق غربال ، ومن شعراء المجون بشار للمازني وعبد الرحمن صدقي ، وأبي نواس لعبد الحليم عباس . وأخيراً يأتي كتابان عن دمشق لمحمد كرد علي ، وبغداد لطه الراوي.

ولا نملك بعد هذا العرض السريع لمحتويات الكتاب أن نقدم كل ما كتبه سيد قطب عن كل كتاب أو كل كاتب ممن أشرت إليهم في هده العجالة الجامعة ، غير أن من الإنصاف أن نقدّم نماذج لما كتبه الرجل عن بعض الأعمال الأدبية التي نقدها تاركين لمن أراد التخصص في قراءة « سيد قطب الناقد » أو كتابه الذي نحن بصدده أن يعود للكتاب نفسه يطالعه ويعيش معه ساعات من العمر يثريه بكثير من أسباب المتعة الفنية والإنصاف القلمي الرفيع .

لقد تناول الناقد نفحات من الشعر الفارسي في « أغاني شيراز » لحافظ الشيرازي ، وقبل أن يحلق في آفاق النقد والتحليل راح يثني على الدكتور ابراهيم أمين الذي أتاح له ساعات حلوة لاتقدر بثمن « تكافىء من ينقلك من الأيام الثقيلة الصاخبة الكئيبة إلى جو طليق هادىء رفّاف تشيع فيه الأنداء والأضواء ، وترف فيه الأنسام والأصداء ، ويستقبلك بالطلاقة والبشر والإيناس ! » .

ثم خلص إلى القول بأن « هذه الأغاني تجيء في وقتها المناسب ـ والشعر العربي يعاني أزمة يحتاج فيها إلى مثل هذا الزاد ـ فلقد آن نسعر أن يكون غناءً بحتاً ، بعد ما طوّح بنفسه في مجالات لم تعدّ له . أو لم يعد يبدو فيها بأجمل ألوانه ... طوّح بنفسه في مجال الفلسفة وفي لجج الفكر . كما أخذ يطوّح بنفسه كذلك في مجال القصة والمسرحية وما إليها . بعد أن عادت روح عصر لاتهش للقصة . ولا للمسرحية الشعرية » .

وسيد قطب يرى أن الموجة الفكرية الفلسفية في الشعر العربي الحديث ضرورة في وقت من الأوقات أنقذت الشعر من العبث بالمحسّنات البديعية الجوفاء ، ومن الإيقاع الموسيقي الذي لايحمل وراءه حياة ولا جِد[3] •• ولكنه يرى أن هـذه الموجة قد تخطت الحدود التي يجب أن تقف عندها « فوقفت بالشعر الحديث حيث لايجوز الوقوف ، قصّت من أجنحته المرفرفة ، وغضّت من غنائيته المنغمة ، وأقلّت فيه من السبحات والومضات ، وجعلت عنصر الوعي الفكري بارزاً فيه » •

ويمضي مقارناً بين شعر الخيّام وحافظ الشيرازي حيناً وبين رأي عبد الوهاب عزام ورأي ابراهيم أمين في شعر حافظ نفسه ليصل في النهاية إلى قوله :

« وعلى مافي هذا التصوير لطبيعة حافظ وطريقة أدائه من تناقض واضح بين بعضه وبعض ، واندفاع في سجعات رنانة قد تفوّت الدقة على الأداء ، فإنهـا في صميمها تخالف صورة حافظ وطبيعته التي يستشفهـا قارىء الغزليات • وهبني مخطئاً في هذا لأن النص الفارسي ليس في متناول يدي ، فها هو ذا تصوير الدكتور عزام لأسلوب حافظ يؤيدُني • وأغلب الظن أن التوفيق هنـا لم يحالف الدكتور إبراهيم أمين » •

ويتناول سيد قطب الناقد •• العقاد الشاعر وديوانه (أعاصير مغرب) فيشير إلى الينابيع التي يتفجر منها شعر العقاد ويقول :

« في وضح النهار يعيش العقاد ، صاحي الحس ، واعي الذهن ، حي الطبع ، لا يهوّم إلا نادراً ، ولا يتوه فيما وراء الوعي أبداً •

ومعالم الإحساس والتصور عند العقاد واضحة ، وهي على رحابتها أو انفساحها وعلى عمقها ودقتها ، يحدّها اطار من الوعي المتيقظ ، فلا تهيم في وديان مسحورة ، ولا تنطلق من متاهات مجهولة •

على أن للمجهول حسابه في نفس العقاد • ولكن هـذا المجهول نفسه فكرة يحيط بها الوعي ، ويدعو إلى فرضها العقل • وليس الايمان بهـذا المجهول توهاناً روحياً ولا صوفية غامضة ، إنما هو رحابة نفسية وفكرية • ومن هذه الينابيع يتفجر

شعر العقاد • فيكثر فيه تصوير الحالات النفسية وتسجيل الخواطر الفكرية ، واثبات التأملات المنطقية ـ إذا صح هذا التعبير ـ بقدر ما تقلّ فيه السبحات الهائمة • والانطلاقات التائهة والظلال الشائعة • فكل شيء واضح ، وكل شيء له حدود • »

لكنه يعود فيشير إلى أن التأمــلات التجريدية والتجارب المنطقية حين تدخل شعر العقاد تهبط به عن مستواه وتنزل به من آفاقه التي يحلّق فيها ـ فيقول بعد أن يعرض نماذج حية رائعة من شعر العقاد :

« ومثل هذا اللون الشجي قليل عند العقاد • ولكنه قد يرتفع في قمة الشاعرية عن الصرخات والرقصات في ديوانه •••

وهناك ألــوان شتى من هــذه الآفاق ، وكلها شعر يمثل طبيعة معينة أصدق التمثيل •

ولقد هممت أن أجمعها وأسميها (الشعر في ديوان العقاد) مصدّرة ببحث واف عن (العقاد الشاعر) • وأنقل التأملات التجريدية ، والقضايا المنطقية ، والحقائق التعليمية إلى مكانها في كتب النثر أيضاً • فإني لأحسب اختلاط هذه وتلك في دواوين الشعر ، ما يصد الكثيرين عن تذوق شعر العقاد !

ولعل سؤالاً يطوف بالأذهان : ما حدود الشعر إذن في تعريفك ؟

وجوابي أن الشعر لايحدده الموضوع الذي يقال فيه • ولكن تحدده درجــة الشعور بهذا الموضوع ، وبطريقة التعبير عن هذا الشعور • »

ويتناول الناقد شوقي وعزيز أباظة فيقارن بين الشاعرين في عملين أدبيين لهما : مجنون ليلى لشوقي وقيس ولبنى لعزيز أباظة ، ويحرص على التأكيد بأن المقارنة إنما تجري بين العملين لابين الشاعرين ، فشوقي الشاعر على حد قوله قد يكون أكبر من عزيز أباظة الشاعر في مجموعهما ، ولكن رواية مجنون ليلى أصغر بما لايقاس من رواية قيس ولبنى ، أصغر من جميع الوجوه التي تقاس بها الرواية الشعرية • ومن هنا نراه يقول :

« وإلا فما يمكن أن يقرأ الانسان هاتين الروايتين في وقت واحد ، دون أن يحس بالفارق الهائــل بين الحياة الحارة والصدق الطبيعي ، في (قيس ولبنى) ، وبين الموت البارد والتلفيق المتهافت في (مجنون ليلى) من ناحية رسم الشخصيات وإجراء الحوادث والعرض الفني . ولا بين الطلاقة والقدرة على الأداء في الرواية الأولى ، والاضطرار والتهافت في مواضع كثيرة من الرواية الثانية . »

ثم يقول مبيناً ما يقع فيه النقاد والكتاب من خطأ حين تضبعهم شهرة الكاتب أو الشاعر ويخضعهم طنين ماضيه في آذانهم ، حتى تُصمّ عن الأصوات الجديدة التي قد تكون أعمق واقعاً وأصفى نغماً ــ فيقول :

« إن معظم الخطأ الذي قد نقع فيه عند الموازنة بين عمل شاعر كشوقي نال في زمانه شهرة عالية ، وعمــل لأحــد الأدباء المعاصرين ؛ إنما ينشأ من اعتمادنا على ما تحوي ذاكرتنا من طنين سابق ، واطمئناننا إلى هذه الأوهام المقررة ، والاستغناء بذلك عن مراجعة الأثر الفني مراجعة جديدة » .

وينصف الناقد شوقي تاريخياً ليسجــل له سبقه التاريخي على عزيز أباظة في ميدان المسرحية الشعرية ، دون أن يضبع بذلك الشعراء الذين يمكن أن يقومــوا بمحاولات جديدة في هذا المجال قد تكون أروع وأعمــق وأصفى مما قدم شوقي وأعطى في هذا الميدان فيقــول :

« إن عمل شوقي بك في (مجنون ليلى) كان عمــلاً مشكوراً مــن الوجهة التاريخية في الأدب . وذلك لفتح هذا المجال ، ومحاولة نظم الرواية في اللغة العربية ــ وإن يكن غيره قد حاول قبله ولم يبلغ ما بلغه ــ وعند هذا الحد يقف تقدير هذه الروايات التي أخرجها جميعاً و (مجنون ليلى) في أولها .

فأما حين تعرض هذه الروايات للتقدير الفني ، فإنها تبدو عملاً بدائياً متهافتاً من جميع الوجوه .

وأول ما يلحظه الناقد في « مجنون ليلى » هــو البرود والركود . فالمجنون ــ وهو المثل الأعلى لحرارة العاطفة ، وللجد فيها ذلك الجد المتلف ــ يصبح في يد

شوقي طيفاً متهافتاً ، كأنه أحد شبان القاهرة المترفين الأطرياء اللطاف ! كل حرارة الحب عنده بكاء ودموع وإغمــاء . وذلك كل نصيبه من الجد في هــذه العاطفة المشبوبة . بينما يلمح في (قيس ولبنى) حرارة العاشق ، وحركة الانسان ، وفحولة هذه العاطفة في نفسه المحبة المهتاجة » .

وينعى الناقد على شوقي لجوءه إلى الترخيم في كثير من المواقف وإسرافه في في استعماله كلما نادى واحتاج للحذف خضوعاً للضرورات النظمية ، ويسوق على ذلك من رواية مجنون ليلى أكثر من مثال !

النقد الادبي : اصوله ومناهجه [1]

هذا الكتاب أرشحه ــ لو كان لي من الأمر شيء ــ ليكون موضوع دراسة لطلاب كليات الدراسات الأدبية في الجامعات العربية ، ذلك أنه كتاب بحث متخصص ، وفيه من عمق الاطلاع وأصالة البحث والجدّة في الموضوع ــ ما يجعله فوق مستوى كثير من الكتب التي يرشحها كثير من المتخصصين لتكون بين أيدي طــلاب الجامعات العربية في الدراسات اللغوية والبحوث الأدبية .

والكتاب يحمل أسس نظرية يدعو لها سيد قطب هي نظرية « المنهج المتكامل » الذي يجمع كل المناهج التي تناولها كثير من النقاد مجزأة متناثرة مع الأعمال الأدبية المختلطة في بطون الكتب ، وقد أطلقوا عليها أسماء شتى أبرزها : المنهج الفني ، والمنهج التاريخي ، والمنهج النفسي ، حيث يتناول كل منهج من هذه المناهج جانباً واحداً من العمل الأدبي لا يتعداه إلى سواه .

وأرى من الإنصاف أن أقدّم هنا جانباً ممــا كتبه الاستاذ نور الدين أحمد تحت عنوان « منهج النقد عند سيد قطب » [2] وهو من أحسن ما كتب عن هــذا

---

(١) يقع هذا الكتاب في ٢٣٨ صفحة من القطع الكبير .

(٢) العدد «   » من مجلة المجتمع الكويتية .

الكتاب كما أظن ، وسأقتصر على ما خص به كاتب المقال كتاب « النقد الأدبي : أصوله ومناهجه » وهو الذي يمثل في نظر الكاتب المرحلة الثانية من مراحل الدراسات النقدية عند سيد قطب :

« ونحن نلاحظ أن سيد قطب في هذا الكتاب يضع أسس نظرية نقدية جديدة في النقد العربي • فهو يدعو إلى اتباع « المنهج المتكامل » في النقد الأدبي ، وهو يتبنى فكرة هذا المنهج ليس كقضية مطروحة للبحث ، أو كعملية فكرية ليس لها سوابق عملية ، كما يلاحظ على كثير من النظريات النقدية ــ بل يضع فكرة المنهج المتكامل نتيجة ممارسة وخبرة استغرقت وقتاً طويلاً ، تلك الممارسة تشمل أعماله الأدبية وأعمال الأدباء الآخرين في العالم العربي أمثال طه حسين والعقاد •

وفكرة (المنهج المتكامل) تجيء بعد إيمان الناقد من أن الغلو في اتباع منهج نقدي معين هو عبارة عن انحراف وفساد في التقويم الأدبي النقدي • إذ أن العمل الأدبي بحكم كونه « تعبيراً عن تجربة شعورية فيصورة موحية » يخضع لعدة عوامل ومؤثرات داخلية وخارجية تجعله في منأى عن الحصر داخل مؤثر واحد وتطبعه بالتالي بطابع كل عامل من هذه العوامل •

وعليه فإن القول بأن العملالأدبي هو نتيجة البيئة أو النفس والعوامل الاخرى الطبيعية والبيولوجية هو قول مردود لأنه يجانبه الكثير من الصواب فيعالم الواقع •

ولأجل وضع « أصول النقد » يحاول سيد قطب وضع « الاطار » للعملالأدبي فيعرفه بأنه « التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية » ، فالعمل الأدبي ــ وهو موضوع النقد الأدبي ــ بهذه الصورة يضع « أصولاً » للنقد تعتبر ممهدة للخروج نتيجة اتباع « المنهج المتكامل » بعد ثبوت أن خضوع العمل الأدبي لمنهج واحد هو غلو وفساد في شأن التقييم النقدي للعمل الأدبي •

ولا شك في أن هذا التعريف تحديد لمهمات النقد إذ أن كون العمل الأدبي تعبيراً يخضعه للمنهج الفني ، وكونه صادراً بعد تجربة شعورية يعطي لـ « الانفعال » دوراً مهماً ، يتدخل فيه علم النفس لتحديد مدى التأثر والتأثير في خلق العمل الأدبي

ثم إن العمل الأدبي ليس فقط تعبيراً عن تجربة شعورية وإنما (في صورة موحية) وهذا هو عين التكامل في العمل الأدبي .

ومن هنا تجيء مهمة الأديب في أنه (يهيىء للألفاظ نظاماً ونسقاً وجواً يسمح لها بأن تشع أكبر شحنتها من الصور والظلال والايقاع) وفي هذا التحديد لمهمة الأديب يطغي المنهج الفني ؛ إلا أن ذلك لايمنع بل هو يؤكد على (نفس الأديب) فيخضع الناقد إلى المنهج النفسي في عملية الموازنة والتقويم .

وهو ــ أي سيد قطب ــ في الوقت الذي يضع أصولاً للنقد الأدبي إلا أنه في الوقت نفسه يحاول تطبيق منهجه المتكامل ــ خصوصاً في الفصول الأولى من كتابه لنقد المناهج الأخرى في النقد . ويظهر ذلك بوضوح في محاولاته للتوفيق بين القيم التعبيرية والقيم الشعورية في العمل الأدبي ، وبين الطريقة (النفسية) والطريقة (الاستعراضية) التاريخية في كتابة السيرة.فيلاحظ عليه محاولته استخلاص التأثيرات النفسية الذاتية تحت ستار من الألفاظ والتعبيرات الفنية ، فيبدو ــ ولأول وهلة ــ أن منهجه منهج فني وذلك لاختفاء أثر الجانب النفسي خلف الألفاظ والتعبيرات الفنية .

أما بصدد مناهج النقد الأدبي فهو لكي يمهد الطريق للخروج بنتيجة صلاحية المنهج المتكامل للنقد أكثر من غيره من المناهج ، فإنه يحاول تقويم المناهج النقدية مبيناً محاسنها ومساوئها وضرر اتباع منهج معين دون غيره كحل نهائي أو كمنهج مستقل يخضع له العمل الأدبي دون سواه .

فالمنهج الفني يحاول تقويم العمل الأدبي من خلال الألفاظ والتعابير الخارجية وهو بذلك يبعد العمل الأدبي عن المؤثرات الأخرى .

ومن هنا يرفض سيد قطب الميل كلياً نحو تفضيل القيم التعبيرية على القيم الشعورية كما فعل الجاحظ ومدرسته ، بل يوفق بينها كما أشرنا سابقاً .

غير أن محاسن هذا المنهج أنه يستوجب من صاحبه موهبة ذوقية تأثيرية وثقافة لغوية فنية .

والمنهج التاريخي (يميل الى اعتبار العمل الادبي ظاهرة من ظواهر البيئة) وعليه فإن منْ أبرز مخاطر هذه الطريقة (الاستقراء الناقص والأحكام الجازمة والتعميم العلمي) كما يتمثل ذلك عند طه حسين في حديث الاربعاء ، والعقاد في دراسته عن عمر بن أبي ربيعة ،و عند سيد قطب في كتابه (كتب وشخصيات) .

أما المنهج النفسي فيميل إلى اعتبار العمل الأدبي نتيجة دوافع وانفعالات تسمى بـ « العقد النفسية » ، وفي الوقت الذي يبدو أن لعلم النفس أنصاره ومؤيديه في العالم ، فإن أثره يبدو ناقصاً في تقييم العمل الفني ، باعتبار أن النفس أكبر من علم النفس وأن ما يصدر من النفس هو مزيج من الدوافع الشخصية والعوامل الخارجية . غير أن هذا المنهج يبدو شديد الصلة بالعمل الأدبي . ومن هنا فإن المنهج التاريخي والفني يبدوان ممتزجين فيه إلا أن أهميته تبقى في أنه يصبح عاملاً مساعداً في تفهُّم العمل الأدبي .

وبعد أن يخلص من نقد المناهج يخرج بنتيجة وهي أن المنهج المتكامل (لا يعد النتاج الفني إفرازاً للبيئة العامة) كما يفعل المنهج التاريخي ، (ولا يأخذ النتاج الأدبي بوصفه إفرازاً سيكولوجياً محدد البواعث) كما يميل المنهج النفسي ، بل (يتناول العمل الأدبي من جميع زواياه). بقي أن نعرف مدى قيمة هذا المنهج من الناحية التطبيقية : إن سيد قطب يشير في بحث كل منهج إلى أتباعه والكتب التي ألفت فيه . وكثيراً ما رأيناه يستشهد بكتاب مرة على أن فيه منهجاً فنياً ومرة على أن فيه منهجاً تاريخيا ونفسياً .. وقد جعل من الفصول الأولى في كتابه النقد الأدبي على انها جاءت تطبيقاً لمنهجه .

إذن هذا المنهج جاء يضع أصولاً لنتاجات سبق وأن تبلور فيها هذا الاتجاه . وسيد قطب يعدّ كتّاباً مثل طه حسين في كتبه عن أبي العلاء والمتنبي ، والعقاد في كتبه عن ابن الرومي وعمر بن أبي ربيعة ؛ ذوي منهج تكاملي في الأدب العربي .

إن أبرز سمات هذه المرحلة هي ابتعاد الناقد سيد قطب عن الميل الى النقد الغربي كما لاحظنا عليه ذلك في المرحلة الأولى . إلا فيما وجده ملائماً لطبيعة الأدب

العربي ، والشيء الآخر هو تبلور منهج نقدي في هذه المرحلة بعكس المرحلة الاولى التي كانت ـ بشهادة الناقد نفسه ـ يسودهـا الكثير من عدم الوضوح لعـدم اتباعه منهجاً معيناً .

أما ابتعاده عن التركيز على الشخصية والاهتمام بالمنهج المتكامل فقد تبعه استقلال سيد قطب في نقده عن أستاذه العقاد .

فالعقاد بقي إلى أخريات أيامه يفضل النقد النفسي على بقية مناهج النقد ومن ذلك قوله سنة ١٩٦١ : « إذا لم يكن بدٌّ من تفضيل إحدى مدارس النقد على سائر مدارسه الجامعة فمدرسة « النقد السيكلوجي » أو النفساني أحقها جميعا بالتفضيل في رأيي وفي ذوقي معاً ، لأنها المدرسة التي نستغني بها عن غيرها ولا نفقد شيئاً من جوهر الفن والفنان المنقود » .

أما سيد قطب فيقول عن منهج التكامل : « إنه ينتفع بهذه المناهج الثلاثـة جميعاً ، ولا يحصر نفسه داخل قالب جامد أو منهج واحد » .

إن نقطة التلاقي بين منهج العقاد ومنهج سيد قطب في النقد تكمن من نزوع كليهما إلى « المنهج المتكامل » غير أن العقاد يعتبر ذلك منحصراً في المنهج النفسي باعتباره يجعلنا نستغني بمدرسة النفس عن غيرها ولانفقد شيئاً . بينما سيد قطب يجعل من كل المناهج مجتمعة منهجاً متكاملاً .

ويبدو ذلك جلياً في إخضاع العقاد كل العلوم في دراسة للشاعر ابن الرومي ، وقد عده سيد قطب ذا منهج تكاملي في هذه الدراسة .

* * *

سيد قطب

المفكر الإسلامي الرائد

* العدالة الاجتماعية في الاسلام
* معركة الإسلام والراسمالية
* السلام العالمــي والإســلام
* دراســـات اســـلامية
* نحـو مجتمـع اسـلامي
* هـــذا الـديـــن
* المستقبـل لهـذا الـدين
* خصائص التصور الاسلامي ومقوماته
* الاسلام ومشكلات الحضارة
* معـالم فـي الطـريق
* افـــراح الـــروح

تمهيد :

نلقي في الصفحات التالية ضوءاً على ما قدّم الشهيد من كتب في مجال الفكر الاسلامي ، وإن كان الحديث المفصّل عن عدد من هذه الكتب قد ورد في ثنايا حديثنا عن « آراء الرجل وأفكاره بين التنزيه المتشنّج والتجني المقصود » أو عند التفصيل في «خصائص العطاء الفكري ومميزاته عند الشهيد سيد قطب» أو عند بحثنا لموضوع « سيد قطب السياسي الواعي » أو «سيد قطب الانسان » .

وما نعرضه هنا ليس سوى إبراز معالم كل كتاب ، وعرض لما ورد بين دفتيه من فكر جدير بالدراسة والفهم والتقدير .

مراحل العطاء الفكري الاسلامي
للشهيد سيد قطب

إذا استثنينا عطاء الأديب سيد قطب فيما قدمناه في باب « سيد قطب الأديب الموهوب » من قصة وشعر ومقال ، وعطاءه الذي قدمناه في باب « سيد قطب الناقد المنصف » ـ فإن عطاءه في مجال الفكر الاسلامي يكاد ينقسم إلى مراحل زمنية ثلاث :

المرحلة الاولى ـ الاسلاميات الفنية :

وهي التي كتبها بقصد التدبر الفني والتذوق الجمالي دون أن يهدف إلى فكر منظم أو منهاج مدروس ، وقد شملت : « التصوير الفني في القرآن » و « مشاهد القيامة في القرآن » سواء ورد ذلك في مقال تحمله للناس صحيفة أو بحث متكامل يحمله للناس كتاب . وسنعرض لذلك بالتفصيل عند حديثنا عن « سيد قطب المفسر الملهم » وكيف كان هذان الكتابان طريقاً قاد سيد قطب إلى تأليف كتابه القيم وعطائه المبلور الهادف « في ظلال القرآن » .

المرحلة الثانية ـ الاسلاميات العامة :

وهي التي كتبها بقصد الحث على تدبر ما ورد في الاسلام من فكر عميق ومعان نبيلة ، وبها يستثير الهمم ويحرك موات الأنفس : أن عودوا إلى هذا الدين العظيم الذي يغنينا عن استيراد الفكر من الشرق أو الغرب ، ويثرينا بكل ما نريد لأنفسنا من خلاص وما نرجوه لأمتنا من أسباب المنعة والنصر . وقد كتب عطاء هذه المرحلة بلغة أقرب الى الحديث النفسي أو الخطاب الحماسي .. يهمس بهذا ويثور في ذلك ، ولكنه في الحالين يتحدث بعاطفة نبيلة وغيرة متقدة مشبوبة تستعجل القوم أن يتنبهوا قبل أن يفوت الأوان .

وأشهر كتب هذه المرحلة :

العدالة الاجتماعية في الاسلام .

ومعركة الاسلام والرأسمالية .

والسلام العالمي والاسلام .

وكلها تشتمل على فكر اسلامي ثرٍ وثقافة إسلامية نيرة تفتح أمامنا الآفـاق وتضع أقدام الحيارى على أول الطريق نحو وعي إسلامي شامل وتدبر إسلامي عميـق .

أمـا كتابه « دراسات اسلامية » فإني سأعرض له عند الحديث عن « سيد قطب الصحفي الصادق » .

المرحلة الثالثة ـ الاسلاميات الحركية الهادفة :

وهي التي كتبها بعد دراسة ومعاناة ، لتكون منهاجاً لعمـل حرَكي منظّم وخطة لجماعة تلتزم بالإسلام وتتميز به بين الناس ، حتى تكون نواة العمل المنظم وطلائع الفداء والتضحيات لإقامة حكم اسلامي عادل وتطبيق شرع الله في الأرض .

ويتمثل عطاء هذه المرحلة في كتبه :

هذا الدين .

والمستقبل لهذا الدين .

وخصائص التصور الاسلامي ومقوماته .

والاسلام ومشكلات الحضارة .

وأخيراً .. في ظلال القرآن .. ومعالم في الطريق .

وسنقدم في الصفحات التي تلي كلَّ كتاب منفرداً في عرض خـاص واضح ودراسة موجزة هادفة ، كما سنخص أهم كتبه وخلاصة فكره في عمله « القمة » وعطائه « السامق » بعنوان مستقل وباب خاص به هو « سيد قطب المفسر الملهم » .

مشيرين إلى أسلوبه في عرض القرآن وطريقته في فهمه وتدبر معانية ، طريقاً لعمل حركي منظم ووسيلة من وسائل الجهاد الذي لا تسقط رايته حتى قيام الساعة •

وأكاد عبر دراستي المتواضعة لفكر سيد قطب واطّلاعي عليه أن أقول : لقد بلور سيد قطب رحمه الله معظم فكره الحركي وعطائه الذي قدّمه في كتبه العديدة في هذه المرحلة الناضجة الواعية في كتابين اثنين :

في ظلال القرآن •

ومعالم في الطريق •

واذا كان الشهيد يحيلنا بين الحين والآخر ــ ونحن نطالع الظلال ــ لهذا الكتاب أو ذاك من كتبه الأخرى ، فهو نوع من الحث على طلب المزيد من البحث ، وأسلوب من أساليب التدبر المفصل في كتاب أعطى هذه المسألة أو تلك مزيداً من الوضوح ومزيداً من العناية •

ان معظم ما جاء به الشهيد من فكر مبلور واضح الرؤى جاء في كتابيه « الظلال » و « المعالم » وإن كانت طريقة العرض تختلف أحياناً باختلاف الوقت الذي عرض فيه ، وأسلوب التقديم يتفاوت بتفاوت الحالة النفسية التي قدم خلالها العطاء •

ولكي نحدّد فكر سيد قطب يرحمه الله بأسلوب أكثر وضوحاً واطار أكثر موضوعية فقد خصصنا لهذه الغاية ــ في هذا الكتاب ــ بحثين اثنين لعلهما يفيان بالغرض ويبلغان المقصود :

الأول : خصائص العطاء الفكري ومميزاته عند الشهيد سيد قطب ...

والثاني : آراء الشهيد وافكاره بين التنزيه المتشنج والتجني المقصود ...

* * *

العدالة الاجتماعية في الإسلام

« الطبعة الأولى ١٩٤٧ م »

في عام ١٩٤٧ م ألف الأستاذ سيد قطب « العدالة الاجتماعية في الاسلام » .. أول كتاب له في الفكر والثقافة النابعين من الاسلام ، دون أن يحصر ذلك في الجوانب الجمالية البلاغية مثلما فعل في (التصوير الفني في القرآن) و (مشاهد القيامة في القرآن) .

ويبدو أن هذه الفترة كانت هي بداية التحول في حياة الشهيد من ناقد أدبي أو كاتب عن « التصوير الفني في القرآن » أو « مشاهد القيامة في القرآن » إلى كاتب في الفكر الاسلامي العميق والدراسات الاسلامية الهادفة ، بحيث ظل يتدرج حتى بلغ المستوى الذي حدد فيه معالم شخصيته الاسلامية الواثقة ومعالم مدرسته الفكرية الواعية ومنهاجه الحركي المحدد الذي يدعو إلى إقامة شرع الله في الأرض .

يظهر ذلك التحول بوضوح في رسالتين بعث بهما الشهيد يوم كان في أمريكا في بعثة اطلاع دراسية الى صديق له بمصر هو الكاتب الناقد المرحوم أنور المعداوي .

ويبرز في الرسالتين فكرتان هامتان هما :

الأولى : يأخذ على بعض المصريين أنهم يفقدون شخصيتهم عند الخروج إلى العالم الغربي ، فيسحرهم بريق الحضارة المادية ويخطف منهم الأبصار والبصائر ، وما يقال عن هؤلاء المصريين يقال عن كل الضائعين الحيارى في ديار الإسلام .

والثانية : أن الرجل بدأ يخطط لهدف بعيد المدى نبيل الغاية حين يعلن أنه قرر تخصيص ما بقي من حياته لبرنامج اجتماعي كامل « يستغرق أعمار الكثيرين » كما يقول !!

الرسالة الأولى :

أخي أنور :

سلامي إليك وشوقي ، وبعد : فكيف أنت وكيف الأدب والفن على حسك ؟! أحس آباداً وآماداً بيني وبين ذلك الماضي القريب منذ عام . هنا الغربة . الغربة

الحقيقية . غربة النفس والفكر . غربة الروح والجسد . هنا في تلك الورشة الضخمة التي يدعونها العالم الجديد .

عرفت الآن مدى الدعاية التي تغمر بها أمريكا العالم ، والتي يسهم فيها المصريون الذين جاؤوا الى أمريكا ثم عادوا . وأستطيع أن أقيس — على ضوئها — مدى الدعاية التي تغمرنا بها أوروبا والتي يسهم فيها المصريون العائدون من هناك ، وأشخاصهم الضئيلة ، إنهم لا يجدون لأنفسهم قيمة ذاتية ، فيبالغون في تضخيم أوروبا وتضخيم أمريكا علّهم يستمدون منها قيمة ذاتية .

وبعد : فقد انتهيت من المهمة الأولى في اللغة الانجليزية وأصبح لدي من الوقت ما يسمح أن أعرف أحوالكم وأخباركم هناك في الوطن المجهول من أبنائه ، فلعلك تجد بين يديك ما تحدثني به عن الحياة وعن الأدب وعن خواطرك الخاصة .

والسلام عليك ورحمة الله .

من أخيك سيد قطب

كولورادو : ٢٣ — ١٢ — ١٩٤٩

والرسالة الثانية :

أخي أنــور

كنت في حاجة نفسية إلى رسالتك لأفرح بك ولك . ثم لأصدّق ظني فيك . فلقد كان الكثيرون يلومونني — في مواراة — أن قدمتك للنقد الأدبي في مجلة « العالم العربي » وكنت أعرف ماذا أصنع وهم لايعرفون .

وإنك لتزيدني فرحاً وغبطة إذا أنت بعثت إلي بين الحين والحين بقصاصات من مقالاتك في « الرسالة » في شتى الموضوعات .

تنتظر عودتي لآخذ مكاني في ميدان النقد الأدبي ؟ أخشى أن أقول لك : إن هذا لن يكون ، وإنه من الأولى أن ينبثق ناقد جديد ، إنني سأخصص مابقي من حياتي وجهدي لبرنامج اجتماعي كامل يستغرق أعمار الكثيرين . ويكفي أن أجدك في ميدان النقد الأدبي لأطمئن إلى هذا الميدان .

بهذه المناسبة هل لي أن أذكر لك بعض أخطار الطريق التي بلوتها فيه : إن أخطر مافي طريق النقد الأدبي هو مغريات الصداقة والجفوة ، مغريات الشهرة ولفت الأنظار، مغريات الملابسات الكثيرة في حياة الفرد وحياة الشعب ، ثم تكاليف كلمة الحق التي كثيراً ما يكون ثمنها غالياً . فهل لي أن أطمئن إلى أنك ستتيقظ بهذه الدوافع كلها فلا تدع واحدة منها أو جميعها تغشى صفحاتك بالضباب .

أرجو وأدعو الله لك بالتوفيق . وأشرتَ إلى ما بيني وبين الدكتور طه . إنني أعتقد على أية حال أنه من الخير للبلد أن يكون هـذا الرجل في وزارة المعـارف . ولست أسأل عما يكون لي أو علي ، فطريقي واضح أمامي . وهدفي معروف لي في جميع الظروف .

بهذه المناسبة أتذكر مقال «بدء المعركة بين الشيوخ والشباب في العالم العربي»: كتب إلي أستاذ في جامعة هاليفكس بكندا في هـذه الأيام يستأذن في ترجمته للغة الانجليزية لينشر في أمريكا . وقد أجبته بالموافقة .

اكتب إلي كثيراً ولا تنتظر رسالة برسالة .

أخوك سيد قطب

واشنطن في ٦ مارس ١٩٥٠م

وأحب أن أشير هنا إلى أن الاستاذ الشهيد عليه الرحمة كان قد رحـل إلى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٤٨ وترك في مصر كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » . وكان الاخوان المسلمون يتلقّون على جهادهم في فلسطين مكافأة من الجاحدين ، وذلك بزجّ شبابهم في المعتقلات وقتل مرشدهم على قارعـة الطريق . ولما صدر الكتاب وفيه مقدمة تقول :

« إلى الفتية الذين ألمحهم في خيالي قادمين يردون هذا الدين جديداً كما بدأ .. يقاتلون في سبيل الله فيقتُلون ويقتَلُون ، مؤمنين في قرارة أنفسهم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ...

إلى أولئك الفتية الذين لاأشك لحظة أن روح الإسلام القويـة ستبعثهم من ماضي الأجيال إلى مقبل الأجيال في يوم قريب .. جد قريب » .

فَهِمَ الذين اطّلعوا عليها أن الكاتب يقصد بذلك شباب الإخوان المسلمين ، فبادرت الحكومة المصرية يومئذ لمصادرة الكتاب وسحبه من الأسـواق ، وبادر « الاخوان المسلمون » خارج المعتقلات وداخلها باقتناء الكتاب وتدارسه والانتفاع بمحتواه .. ولست هنا مع الذين يقولون إن الشهيد لم يكن يقصد بمقدمته تلك ، شباب الاخوان ولا حركتهم .. ولكني أرى أنه لم ينتظم بعد في صفوفهم ، ولم يكن يومئذ على المستوى الحركي واحداً منهم ؛ غير أنه بإيمانه الصادق وحسه العميق وذكائه الوقّاد كان قد وجد ضالته في جيل منظم مـن الشباب وحركة أدركـ عبر صلاته القلمية أو لقاءاته الخاصة أنها الحركة المرجوة لخلاص هذه الأمة .. وإلاّ من يستطيع القول أنّ مفكراً وأديباً أو كاتباً ذا عقل وتدبر وموهبة مثل سيد قطب لم يكن قد أدركـ من الاخوان المسلمين ما أدركـ ، وقد وعى من حركتهم ما وعى ؟!

ومن هنا كان تعليق الامام الشهيد حسن البنا على الكتاب عندما قرأه واطلع عليه : **« هذه افكارنا وكان ينبغي ان يكون صاحبها واحداً منا »** .

ولما قـدّر للرجل المؤمن أن يعود من الولايات المتحدة .. وأن يوطـد صلته بالجماعة وأن يقيم معهم علاقـات من الود والتعاطف والإعجاب ، صدرت الطبعة الثانية من « العدالة الاجتماعية في الإسلام » تقول : « إلى الفتية الذين كنت ألمحهم في خيالي قادمين ... فوجدتهم .. » .

وكان ذلك في أواخر عام ١٩٥٠ م حيث بدأ ينشر مقالاته القوية المؤثرة في عدد من الصحف مما سنشير إليه بالتفصيل في موضوعنا عن «سيدقطب الصحفي الصادق» بإذن الله .

ونعود إلى كتاب « العدالـة الاجتماعية في الاسلام » الذي يعتبر الخطوة الأولى على « الطريق » التي سلكها الشهيد ليحدّد فيمـا بعد « معالمه » ويتفيأ في مسيرته فيما بعد « ظلال القرآن » .

ولقد تناول في كتابه ذاكـ الفرق بين « طبيعة الاسلام » و « طبيعة المسيحية » ، ودعوة الإسلام للعلم وحَجْر الكنيسة على العقل والمعرفة ، وانطلاق أوروبا في

ميادين العلم بعد هجرها للدين الذي حرّفه أهله وبدله ذووه . كما تناول بالبحث والدراسة الكوارث التي تصيب الأمة المسلمة نتيجة خلطهـا بين مفهومي الدينين وطبيعتي العقيدتين .

وقد خصص المؤلف ـ يرحمه الله ـ فصلاً كاملاً وضّح فيه علاقة الانسان والكون والحياة بعضها ببعض ، وعلاقتها جميعاً بالله جل وعـلا ، وركز على هذه القاعدة واعتبرها أصلاً لكل ما يطرق من بحوث وما يتناول من موضوعات .

وقد أعاد كل فكرة تطرق وكل موضوع يبحث لهذه القاعدة الراسخة وهذه الحقيقة الهامة من حقائق الوجود .

ومن الجدير بالذكر أن الاستاذ الشهيد وعد في كتابه هذا « العدالة الاجتماعية في الاسلام » أن يخصص كتاباً مستقلاً يطرق فيه بتفصيل هذه القاعدة ويوضح فيه هذا الأساس ، وقد كتب الله له أن يفي بوعده فمنّ عليه وامتحنه بالسجن ليخرج للناس الجزء الأول من كتابه « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » .

لقد أفرد الاستاذ الشهيد في كتابه « العدالة الاجتماعية في الاسلام » باباً خاصاً لـ « سياسة المـال في الاسلام » كما أفرد باباً آخر لـ « سياسة الحكم في الاسلام » وأورد في البابين من التفصيل ما يمكن أن يعتبر قواعد أساسية وأركاناً عامة لنظامي الاسلام في السياسة والاقتصاد مما دفع « شيخاً » (1) إلى أن يستلّ الفصلين وأن يطبعهما في كتابين مستقلين تحت عناوين أخرى عن « النظام الاقتصادي في الاسلام » و « نظام الحكم في الاسلام » وأن يكتّل حول مفاهيم الفصلين بعض الشباب المسلم يدعون إلى استئناف حياة اسلامية جديدة .

وللتاريخ أسجل أنني كنت يوماً في منزل الشهيد بحلوان ـ بعد صلاة عصر يوم جمعة ـ فدخل بيته شابان يحملان كتاباً مما أشرت إليه وطلبا أن يقرأ الكتاب وأن يعطيهما رأياً فيما يقرأ ، فتصفح الشهيد الكتاب وابتسم ، ثم وعدهما خيراً ودعا لهمـا بالتوفيـق .

---

(1) المرحوم الشيخ تقي الدين النبهاني رئيس حزب التحرير الذي اسسه عام ١٩٥٣ م .

وأصررت حين رأيت الابتسامة على شفتيه على أن يذكر لي السبب ــ وكان هذا الحديث بيني وبينه بعد أن خرجا ــ وحاول عليه الرحمة أن أعفيَه من الإجابة ، ولكني أصررت إصرار التلميذ المحب على أستاذه الذي يستحق كل تقدير واجلال .

وعندها فقط وأمام إلحاحي عليه قلب صفحات الكتيِّب الصغير وأشار بهدوء لبعض موضوعاته وعناوينه وقال : عد مرة أخرى لفصل سياسة المال في الاسلام .

وعدت أتصفح الكتاب الأصل ، والفصل المستل الذي صار كتاباً يدرَّس في كوادر الحزب الجديد بعد تبديل في العناوين وتقديم في بعض الفقرات وتأخير في بعضها الآخر ، فعرفت سر عجب الشهيد ودهشته التيعبر عنها بابتسامة هادئة رضية.

ولعل في تطرف أستاذنا ــ عليه الرحمة ــ فيما أورد من هجوم في طبعة هذا الكتاب الأولى على بني أمية وما ظهر من تهجم على أمير المؤمنين معاوية بن أبيسفيان مادعاه إلى إعادة النظر في بعض ماجاء في الكتاب في هذا المجال ، فجاءت الطبعات التالية خالية مما أشرنا إليه من تطرف وتشنج وانفعال .

بقي أن أقول : إن سيد قطب عليه الرحمة أول من كشف في كتابه هــذا اللقاء الذي تم بين الماركسية والرأسمالية ، وأشار إلى التعايش الذي يمكن أن يتم بينهما، فيما عرفناه بعد ثلاثين عاماً من علاقات الود الجديد بين الولايات المتحدة والصين من جانب أو بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي من جانب آخر ..

وهذا ما سنشير إليه بالتفصيل عند حديثنا عن « سيد قطب السياسيالواعي » بإذن الله .

معركة الاسلام والرأسمالية

صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب عام ١٩٥٠ م ،ثم صدرت الطبعة الثانية منه عام ١٩٥٢ م .

وكانت الطبعة الثالثة عــام ١٣٨٦هـ الموافق ١٩٦٦م بعد أن نفذ في الشهيد حكم الاعدام .

وصدور طبعات الكتاب على هذا النحو وفي التواريخ المحددة المذكورة له دلالة هامة ومؤشرات ذات أبعاد موحية ؛ حيث تبدو قوة الكاتب والكتاب معاً بصدور الطبعة الاولى فيعهدالملك فاروق وإبان طغيان حكمه واستبداد «الباشوات» من أصحاب النفوذ والسلطان ؛ مما لم يعرف عن كاتب مصري قط إذا استثنينا رجلين اثنين من حملة الاقلام :

الأول : الاستاذ أبو الخير نجيب رئيس تحرير جريدة الجمهور المصري وكان وفدي الانتماء ، وهو ما يضعف موقف الرجل لأن حزب الوفد كان بؤرة تعشش فيها غطرسة الاقطاع واستعلاء الباشوات ، ولكن الرجل كان جريئاً حين كتب مقالاً عن نهاية الحكم الملكي في رومانيا وكان بعنوان « العروش تتهاوى » واعتبر المقال ماساً بالمقامات العليا بمصر وطعناً في الذات الملكية ، وقد لقي الرجل من جراء ذلك العنت ونال كثيراً من الأذى ٠

والثاني : الاستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة ورئيس تحرير المجلة الناطقة باسم الحزب الذي سمي فيما بعد بالحزب الاشتراكي ، ومفهومه للاشتراكية لايمت إلى الاشتراكية العلمانية بصلة ، وقد كتب يوماً مقالاً مصوراً عنوانه « رعاياك ٠٠ يا مولاي » !

وقد جمع في المقال من الصور والحقائق ما يندى له جبين الحكم في مصر إن كان قد بقي في نظام الحكم يومئذ أثارة من خجل أو بقية من حياء !

غير أن هذين الرجلين الجريئين لم يكونا على مستوى من الوضوح الفكري والانتماء القرآني مثلما كان لسيد قطب ، حين كتب كتابه «معركة الاسلام والرأسمالية» الذي مرغ بكل حرف من حروفه وكل كلمة من كلماته سمعة الاقطاع والاقطاعيين والملك وزبانيته في الوحل والرغام !!

وقد وصف بعض الكتاب المصريين « سيد قطب » عندما قامت الثورة المصرية عام ١٩٥٢ بأنه « ميرابو الثورة المصرية » ـ مشيرين بذلك إلى الكاتب الفرنسي الذي كان يحث الناس على الثورة في فرنسا ضد الاقطاع والاستبداد ٠٠ وكان كتابه « معركة الاسلام والرأسمالية » هو أعنف ما قدم الرجل يومئذ من فكر يحمل روح

التمرد على الباطل ، ويدعو لرفض الفساد والترف المدمر ؛ ولكن في وعي نيّر وعلى هدى وبصيرة من كتاب الله وسنة رسوله .

وقد جاءت تسمية الكتاب دلالة على وعي الكاتب الذي كان يعلم إذ ذاك أن المعركة كانت على أشدها بين الاسلام المسحوق أهله وبين الرأسمالية البشعة الشجعة التي لاترحم .

أما الطبعة الثانية من الكتاب فقد صدر في شهر نيسان (أبريل) أي قبل قيام الثورة بثلاثة أشهر ، فتلقفته الجماهير كأنه بَلْسَم يمسح جراحها وترياق ينقذها من العلل والأوجاع التي أعلنت الثورة أنها ماجاءت إلا لتزيلها وتخلص الشعب منها.

وكان ان مضى عهد « الباشـاوات » الملكي ليحل محله عهـد « البكباشات » الثوري ، وانتهى عهد « فاروق » واحد ليبدأ عهد « الفواريق » الكثر الذين اقاموا في كل بلد عرشاً ، وعلى كل واحد منهم تاجاً من الفطرسة غير منظور ..

أما صدور الكتاب عام١٩٦٦م بعد أن نُفِّذ حكم الاعدام في الشهيد، فهو دليل على إحساس الجماهير ببراءة الرجل وصدقه في القول والعمل ، وإقبال الناس على الكتاب يشترونه يومئذ بحيث لم يبق منه نسخة واحدة في الأسواق ـ تأييد مطلق لأفكار الرجل وآرائه ، واحتجاج صارخ ضد جلادي الحق سجاني الحرية !!

لقد قـال الاستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه « مذكرات سائح في الشرق العربي » وهو يطالع كتاب « معركة الاسلام والرأسمالية » بعد أن التقى بالشهيد وأهدى له نسخة :

« لقد أعجبتني قوة الكاتب وصراحته في هـذا الكتاب وإيمانه ، ومن فتوح الاسلام الجديدة أنه يسخر لرسالته مثل هذا الكاتب الكبير والأديب المثقف »[1].

ويعدكتاب « معركة الاسلام والرأسمالية » من أدق وأعنف ما نشر ضد الفساد والاقطاع والترف وأصحاب النفوذ من وزراء العهد الملكي الفاروقي البائد ، وقد

---

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي ص ٩٠ الطبعة الاولى ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤م الناشر : مكتبة وهبة ـ القاهرة .

صدر والقوم يحكمون ونفوذهم يسيطر على مصر من أقصاها إلى أقصاها ، فكان الكتاب أشبه بالقنبلة الموقوتة التي تفجرت في المكان والزمان المناسبين لتعلن انتهاء عهد وضرورة قيام عهد بدله •• ولكن ــ بكل أسف ــ على غير ما أراد الشهيد وما ابتغى إذ قام فريق مــن الأفّاقين الذين لم يرعوا عهداً ولا ذمة لكل المواثيق التي قطعوها وعلاقات الود التي ادّعوها حتى راح الشهيد نفسه ضحية من ضحايا ذلك الغدر الذي ما عدّ يوماً من أخلاق الرجال •

لقد ورد في الكتاب موضوعات شتى متمردة على الباطل كان من أبرزها « إني أتهم » حيث وجه الكاتب المؤمن تهماً تدين كل الذين أسهموا في إفساد مصر والعالم العربي وراءها من رجال حكم وصحافة وفن ومال ومن تاجروا باسم الدين ، وأرسل « صيحة النذير » مقالاً عنيفاً أطلقه في وجــوه المفسدين في الأرض الذين لم يعوا الصيحة فحلّ بهم البوار ••

وكان أن تتلمذ الشباب المؤمن على صيحة النذير ودعوة التمرد ؛ ليقوم في العالم العربي بعد الشهيد جيل مؤمن لايدين بالولاء إلا لله ولا بالانتماء إلا لعقيدة التوحيــد •

السلام العالمي والاسلام

« السلام » شعار يرفعه الكثيرون ، ونداء تعلو به حتى حناجر الذين لايؤمنون به ولا يريدونه مثابة للناس وأمناً •

وسيد قطب في كتابه هذا لايرفع السلام شعاراً بل يلقي عليه الضوء بذرة حية في خبايا النفس الانسانية وأعماق ضمير الانسان السوي •

ويوضح الشهيد في فصول الكتاب كيف أن الاسلام بذر بذرة السلام في النفس البشرية لتنمو أشجاره وارفة في محضن الأسرة وحديقة المجتمع ورحاب الانسانية الفسيح ؛ حيث خص كلاً من سلام الضمير وسلام البيت وسلام المجتمع وسلام العالم بفصل مستقل ــ بين فيه أسلوب دعم السلام وتوطيد أركانه بتدرج وتلاحم في تلك الميادين •

وبتسلسل منطقي وإشراق روحي غامر ينتقل بك المؤلف من حقل إلى حقل ومن ميدان إلى ميدان وأنت تحس أن للسلام بذوراً تمتد وفروعاً تورق وأغصاناً تبرعم وثمرات تزكو ويحلو منها الجني ...

وقد عرض المؤلف أسلوب بناء المجتمع في الاسلام بحيث يبدأ تشريعات ربانية وتوجيهات نبوية وتربية للأفراد على القواعد الأخلاقية المنبثقة من الإيمان ، ثم وضع أسس الضمانات القانونية التي تشكل المخطط التنفيذي والسياج المتين الذي يحمي الأفراد والمجتمع معاً .

لقد دعم الشهيد كل فكرة عرضها وكل رأي نادى به بآية من الكتاب أو حديث من أحاديث النبي ﷺ ، ثم انتهى به المطاف في كتابه هذا بختام رائع ووقفة مبصرة أن السلام في الاسلام سلام عزيز لا يعرف الذل ولا المهانة ، ولا الخضوع ولا الاستكانة..

إنه التفريق الواعي بين السلام والاستسلام وهو ما لم يعه الكثيرون ، وما تخبّط في الخلط بينهما ضعاف النفوس من المستسلمين الصغار والمتبجحين الكبار !

ويظهر وعي الرجل فيما كتب ونظرته النافذة فيما قدم حين يكشف زيف الحضارة المادية بشقيها رأسمالية مهترئة أو اشتراكية زائفة ، وذلك قبل أن يظهر بلاء الاشتراكية وكوارث الماركسية التي أسهمت في اقتسام مناطق النفوذ في العالم مع الدول الاستعمارية العريقة في استعمارها المأفون ، لتعرف الدنيا عن يقين أن الكفر ملّة واحدة ، وأن الاستعمار هو الاستعمار ولو تعددت أسماؤه وتباينت ألوان الثياب التي يرتديها على مسرح السياسة الدولية !!

لقد طبع كتاب « السلام العالمي والاسلام » طبعته الاولى عام ١٩٥٢ م وما زال يطبع .. وكل ما فيه جديد ، نور يبدد ظلمات الجهالة والعمى أمام الحيارى والضائعين ، ويهيب بهم ألا يخدعهم بريق الأضواء المخادعة التي يطلع علينا بها الشرق الاحمر بين الحين والحين ، أو زيف الوعود المكذوبة التي تزجيها لهم فلول الرأسمالية المهزومة والديمقراطية الكسيح ، وكلهم يهتف بصاحبه في ذهول وولاء غبي لليهودية العالمية : اسرائيل وجدت لتبقى !

بقي أمر هام لابد من الإشارة إليه وهو أن السلطات المصرية في الثورة المتحررة أمرت بحذف فصل كامل من الكتاب عنوانه « والآن » لأنه يفضح السياسة الاستعمارية الامريكية في المنطقة ويكشف زيف الادعاءات الامريكية بتقديم المعونات المالية والاقتصادية للدول النامية ...

ومن أراد أن يعرف دقة الموضوع الذي طرحه الشهيد في هذا الفصل المحذوف من الطبعات الأخيرة من الكتاب ، فليرجع لما كتبناه في هذا الكتاب عن الشهيد « سيد قطب السياسي الواعي » ، أو ليرجع إن استطاع لطبعة سابقة من كتاب الشهيد « السلام العالمي والاسلام » الذي نحن بصدد تحليله وتقديمه للناس عبر هذه العجالة .

نحو مجتمع اسلامي

يلتقي هذا الكتاب مع كتاب « دراسات اسلامية » في أنه مجموعة من المقالات والأبحاث .. ويختلف عنه في أن مقالاته ينتظمها موضوع واحد وتبحث في فكرة واحدة هي قيام المجتمع الاسلامي المنشود .

لقد نشرت موضوعات الكتاب جميعاً في مجلة (المسلمون)[1] التي صدرت في القاهرة عام ١٣٧١هـ/١٩٥١م ، حيث نشر الشهيد ثلاثة مقالات تحت عنوان : «نحو مجتمع اسلامي » في موضوع واحد عنوانه « المستقبل للاسلام » وقد نشر الأول منها في العدد العاشر من السنة الاولى للمجلة ، ونشر المقالان الآخران في العددين الاول والثاني من السنة الثانية .

ثم نشر الكاتب في العدد الثالث من السنة الثانية مقالاً بعنوان «كيف نستوحي الاسلام » وفي العددين الرابع والخامس من السنة الثانية نشر مقالاً بعنوان « طبيعة المجتمع الاسلامي » .

---

(١) صدر العدد الاول من مجلة (المسلمون) بتاريخ ربيع الثاني ١٣٧١ هـ الموافق نوفمبر ١٩٥١ ، ونشر اول مقال من مقالات الشهيد فيها بعنوان ـ نحو مجتمع اسلامي ـ في العدد العاشر من السنة الاولى في شهر ذي الحجة ١٣٧١ هـ الموافق شهر آب ١٩٥٢م

أما في العدد السادس والسابع والثامن والتاسع من نفس السنة فقد جاءت مقالاته بعنوان : « مجتمع عالمي » ، وفي العدد العاشر من السنة الثانية نشر مقالاً بعنوان : « حاجة البشرية كلها إلينا » .

أما مقاله « نظام رباني » فقد ورد في العدد الاول من السنة الثالثة للمجلة المذكورة .

وقد قامت مكتبة الاقصى في (عمان ـ الاردن)بتقصّي تلك المقالات وجمعها فيكتاب واحد صدر بعنوان « نحومجتمعاسلامي» عام١٣٨٩هـ الموافق ١٩٦٩م ـ واختارت المكتبة الناشرة مقال « حاجة البشرية كلها إلينا » ليكون مقدمة للكتاب .

وقد أكد الكاتب في مطلع كتابه أن مهمة الاسلام مهمة خطيرة وجادة وهادفة ، وهي ليست إنقاذ المسلمين والأمة الاسلامية وحدها وإنما إنقاذ البشرية بأسرها مما تتعثر فيه من متاهات ـ ولذا فإن العالم كله بحاجة إلينا لو أدركنا حقيقة دعوتنا ووعينا أهمية وجودنا أمة ذات رسالة وطليعة ذات غاية مثلى في حياة الانسانية .

ويشير المؤلف إلى أن النظام الاسلامي ليس مجرد نظام عاش في فترة من فترات التاريخ ثم اندثر ، ولكنه يبرهن ويسوق الأدلة القوية والحجج الدامغة على أن النظام الاسلامي مازال حياً وأنه لابد من تطبيقه في واقع الحياة .

ويفرق الشهيد في كتابه هذا بين « الشريعة الاسلامية » و « الفقه الاسلامي » ذلك أن الشريعة في أصلها ما نزل من عند الله أو جاء علىلسان رسوله الكريم واضحاً بلا اجتهاد ولا نقاش ، وأما الفقه فهو محاولة فهم لتلك الشريعة ويقوم بها عدد من الرجال ذوي العقول النيرة التي تبحث في أمر الحياتين الدنيا والآخرة .

ومثل هذا التفريق فهمه البعض خطأً أن الرجل ليس مع الفقه ولا مع رجاله مع أنه واحد من تلاميذ أولئك الرجال الذين يقدر لهم جهودهم ويدعو لهم بحسن الثواب . ولقد بلغ الرجل من التواضع حداً في هذا الكتاب أو هذا المقال أنه أزجى للقراء رجاء أن ينصحوه في هذا الباب وأن يشيروا عليه فيما يطرح من رأي ؛ لعله يستنير برأي أو ينتفع بفكر يزجيه أحد الباحثين المطلعين أو الدارسين المحصين .

ويعدد الشهيد في مقالاته هذه التي ضمها الكتاب خصائص المجتمع الاسلامي الأمثل ، فيوضح أن من خصائص ذلك المجتمع أنه من صنع إله مطّلع على أحوال الناس عارف بطبيعة الخلق جميعاً وهو لهم كافة وليس لفريق منهم دون فريق .

ومن خصائص ذلك المجتمع أنه جاء في صورة مبادىء كلية ثابتة الأصول، وأن التفريعات والجزئيات ترك كثير منها لاجتهاد العقل البشري المؤمن الذي يبدع في إعطاء الرأي دون أن يحل حراماً أو يحرم حلالاً . ثم هو مجتمع رباني تغمره الرحمة وترفرف فوقه ألوية العدل بلا تجنٍ على أحد ولا محاباة لانسان .

وهو مجتمع عالمي مثلما شريعة الاسلام شريعة كونية ؛ وليس مجتمعاً محلياً محدود العلاقات مجتث الجذور مقطع الأواصر .. إنه مجتمع الانسانية بأسرها حين تقبل الانسانية على منهل الايمان ترتوي منه ومحضن الايمان تعيش في دفئه ومرحمته .

هـذا الدين

كتب الشهيد عليه الرحمة كتابيه : هذا الدين ، والمستقبل لهذا الدين ، بعد انتهائه من كتاب « الظلال » في فترة كان « الاخوان » فيها قد أنهكوا ، بعد أن نالوا من العذاب مالا يحتمل ، ومن البلاء ماتندك له الراسيات . وفي فترة التساؤل المضني : متى نصر الله ؟ .. انطلق الشهيد يكتب للجماعة المؤمنة كي تمضي في ثبات، وللشباب الممتحن كي يستعيد الحيوية ويستعين بالصبر .. وكان أن وفقهم الله لمثل هذا وزيادة بما أذهل الجلادين وأثار حقد الحاقدين عليهم !

ومعنى ذلك أن الكتابين جاءا خلاصة لفكر الشهيد الحركي الهادف ، وإن لكل كتاب منهما فكرة واضحة وهدف محدد .

كتب « هذا الدين » [1] ليؤكد لشباب الدعوة الاسلامية المعاصرة ــ شباب جماعة الاخوان المسلمين ــ أنه لايمكن لهذا الدين أن ينمو في فراغ ، ولا أن يتحرك

---

(١) يقع هذا الكتاب في ٩٦ صفحة من القطع المتوسط ، طبعة دار الشروق/بيروت.

في خواء ، ولذا لابد للجماعة المسلمة أن تحمله ، وللحركة الاسلامية أن تتبنى فكره لينمو بنموها وينبعث بانبعاثها ، لا أن ينمو ويتحرك بصورة سحرية وطريقة أسطورية خيالية تتنافى مع سنن الكون الربانية وطبائع الأشياء .

لقد دعا الشهيد شباب « الاخوان » أن يثبتوا والأرض من تحتهم تميد ، وقد بلغت القلوب الحناجر ، فقتل من قتل ، وشرّد من شرد ، وما من مخلّص سوى الله وما من مغيث سوى رب هذا الدين .

ثم بيَّن لهم بعض خصائص هذا الدين باعتباره منهجاً صالحاً للبشرية في كل أزمانها وحيثما تواجد الناس في بقاع الأرض وأصقاعها . وهو ما يؤكده الشهيد في معظم ما كتب أن الاسلام ماجاء ليكون ديناً تعبدياً في النطاق الضيق للعبادة ؛ كما لم يرسل به الرسول العظيم ﷺ ليكون نظرية أكاديمية تطرح أو فكرة فلسفية تقال؛ وإنما جاء ليكون عقيدة أمـة حية ينبثق عنها شريعة متكاملة ومنهاج شامـل لكل شؤون الحيـاة .

ويعرض الشهيد هذا المنهاج باعتباره منهاجاً متفرداً يحرر الانسان من كل لون من ألوان العبودية ليكون عبداً لله وحده ؛ مما يجعله يحس في أعماقه بالتحرر الشامل من كل شـيء في الحياة في حدود عبوديته لله ونطاق اعترافه بإفراد خـالقه سبحانه وتعالى بالألوهية دون سواه .

كما يعرض الاسلام منهاجاً ميسراً ليس من مهامه وضع العقبات والصعاب في طريق الخلق ليعجزوا عن ممارسة الحياة في إطاره الشامل الهادف النظيف ، وإنما جاء ليكون سهلاً يقوم على اليسر والتسامح والرفق والمودة الحانية ، مما يؤكد أن واضع المنهج رحمن يحنو على خلقه ، بر يشفق على عباده . وقمة هذا اليسر وهذا الحنو أن يبعث لهم الرحمة المهداة ﷺ ليدلهم على طريق الخير ويسلك بهم سبل الهدى .

ويؤكد الشهيدعمق الأثر الذي يتركه المنهج الإسلامي فيمن يؤمنون بـه ويطبقونه ، لأنه منهج مؤثر ينبع من أعماق فطرة الانسان وينبثق من جذور قضاياهم

واهتماماتهم ومشكلاتهم ، كما ينطلق إلى أعماقهم ليستقر ويبذر البذرة الخيرة القوية النامية التي لا تموت ، ذلك أن الايمان بهذا المنهج المؤثر كان على يد الأسوة الحسنة والقدوة المثلى التي تربي فتحسن التربية وتعطي فتجزل العطاء تضحية وإقداماً وصدق يقين .

ثم يكشف الشهيد عليه الرحمة رصيدين لهذا الدين في حياة المسلمين لا غنى عنهما عبر المسيرة الطويلة المضنية .. أما الأول فرصيد الفطرة الذي ذخره الله في طباع الناس النقية ونفوس البشر السوية وهم يعملون على أن يعيشوا بلا معصية ولا فسوق ولا تلوث ، وأن يحيوا ــ عندما يعودون إلى فطرتهم الأولى ــ مؤمنين بمن خلق فسوى وقدّر فهدى . والرصيد الثاني الذي يشير إليه أن الأمة الاسلامية لا تنطلق من فراغ إلى خيال وإنما من تجربة رائدة سادت بها الكون السيادة الرشيدة التي لا تستعلي ، وقادت بها العالم القيادة المهدية التي لا تضل ولا تشقى ، وما دامت الأمة المسلمة في فطرتها الصافية تلتقي مع البشرية في لقاء الفطرة الأولى وتزيد عليها بتجربة حكيمة أسعدت الخلق وبددت ظلمات الجاهلية ، فما عليها الا أن تنفض الركام عن هذا الرصيد الضخم النامي لتقدمه للناس من جديد عقيدة ومنهاج حياة .

ويبرز الشهيد في كتابه هذا الخطوط المستقرة في المنهاج الاسلامي الرشيد والحركة الاسلامية الرائدة التي تسعى لإقامة شرع الله في الارض ــ فتكون الانسانية الواحدة التي ترفض العصبية للقبيلة والعشيرة والأسرة ، واللون والجنس ، والجاه والنسب ، وتكون الأمة الواحدة التي تربطها رابطة العقيدة والدين لا رابطة التراب والطين : « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

وينهي الشهيد كتابه هذا بالدعوة إلى ضرورة اتخاذ زاد في الطريق الشاقة وسلاح في المعركة الضارية التي لا ترحم عبر إقامة المجتمع الانساني الرفيع ونشوء الدولة الانسانية المثلى ــ ويتساءل هنا : ولكن ما الزاد ؟

وتكون الإجابة واضحة محددة حاسمة :

« إنه زاد واحد[1] .. زاد التقوى .. إنه الشعور بالله على حقيقته . إنه التعامل مباشرة مع الله .. والثقة المطلقة بوعده الجازم الحاسم » :

« وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

والأمر كله هو أمر العصبة المؤمنة التي تضع يدها في يد الله ، ثم تمضي في الطريق . وعد الله لها هو واقعها الذي لا واقع غيره ، ومرضاة الله هي هدفها الأول وهدفها الأخير .

وهذه العصبة هي التي تجري بها سنة الله في تحقيق منهج الله ، وهي التي تنفض ركام الجاهلية عن الفطرة ، وهي التي يتمثل فيها قدر الله في أن تعلو كلمته في الأرض ، ويتسلم منهجه الزمام :

« قد خلَت من قبلكم سُنَن ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيانٌ للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرحٌ فقد مَسَّ القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين »[2] .

المستقبل لهذا الدين

وكتب الشهيد « المستقبل لهذا الدين » [3] ليسوق فيه الدليل أثر الدليل ، والحجة بعد الحجة ، عقلية ونقلية من نصوص الشرع وآراء المفكرين وصور الواقع وأحداث الزمن ــ على أن الحضارة الغربية إلى زوال ، وأنها قد بدأت تترنح على

(١) ص ٩٦ من « هذا الدين » طبعة دار الشروق ــ بيروت .

(٢) الآيات ١٣٧ ــ ١٤١ من سورة آل عمران .

(٣) يقع هذا الكتاب في ١٤٠ صفحة من القطع المتوسط .

طريق الانهيار والدمار ، وأن الاسلام وحده هو البديل الذي يخلّص البشرية بعطائه ، ويسعد الإنسانية بروائه وجناه •

وفي كل سطر من سطور هذا الكتاب يؤكد الشهيد « المستقبلية » لهذا الدين ، ويجلو صوراً من الأمل المشرق الذي باتت الإنسانية المعذبة كلها في شوق إليه •

يعرض الكاتب أول موضوعله في الكتاب ليبرهن على أن « الاسلام منهج للحياة » ويؤكد أنه منهج متكامل ، وهو أمر أبرزه الكاتب في أكثر من بحث وأكثر من كتاب فيما قدم من عطاء فكري هادف •

وهو يؤكد أن المنهاج لا بد أن يكون ديناً ، والدين لا بد أن يكون منهاجاً ، وإلا فإن المنهاج البشري القاصر خاضع للأهواء والرغبات إن لم يكن ديناً منزلاً ، والدين بلا منهاج لابد أن ترفضه الحياة التي تنشد حلولاً للمشكلات والمجتمع الذي يطلب منهاجاً للسير على هداه • ولقد فطن لذلك الشيوعيون أنفسهم وهم لا يؤمنون بدين ولا يعتقدون بإله، فجعلوا من « رأس المال » كتابهم المقدس وجعلوا من « ماركس » نبيهم الموعود •

ثم يشير إلى خطورة الفصام النكد الذي ابتليت به الانسانية والعالم الاسلامي بخاصة حين نقل انحرافات أوروبا وإقصاءها الدين عن الحياة وادعاءها أن الدين شيء والحياة شيء آخر • وارتكست الانسانية كلها من جراء ذلك أن يقودها رجال دين غافلون عما يحيط بهم من ضلال وانحراف أو صامتون ساكتون مباركون لما يرون •• أو رجال دنيا فحسب تحركهم ضمائر خربة وتوجههم مادية بشعة مدمرة •

ويسوق لنا الشهيد في كتابه هذا صيحات الخطر التي يطلقها العقلاء والمفكرون من رجال الغرب وهم يعلنون للعالم أجمع أن الحضارة المادية آن أوان انهيارها ، وأن الاعتماد على معطياتها بلا روح ولا قيم ، إنما يعذب الانسانية ويقضي على كرامة الانسان ، وأنه لابد للبشرية من مخلّص ينقذها مما هي مقبلة عليه •• ثم يؤكد الكاتب أن لاخلاص إلاّ بالعقيدة الصالحة والمنهاج الصالح المتكامل ••بالاسلام !

وفي الفصل الأخير من كتابه هذا •• المستقبل لهذا الدين •• وهو الفصل الذي يحمل اسم الكتاب نفسه ـــ يركز الشهيد على أمرين هامين :

الاول :أن الحرب المشبوبة ضد هذا الدين يوقدها أعداؤه في الخارج والداخل سواء ؛ من ينتمون لديار غير ديار الاسلام أو لثقافات غير ثقافة الاسلام ولو كانوا يحملون أسماء المسلمين ويتكلمون أحيانا بألسنتهم •

هذه الحرب الضارية الموجهة لطلائع البعث الاسلامي لايجوز أن تفقدنا الثقة المطلقة في أن « المستقبل لهذا الدين » لأن الاسلام ــ كما يقول المؤلف ــ قد صمد في حياته المديدة لما هو أعنف وأقسى من هذه الضربات التي توجه اليوم •

والأمر الثاني الذي يركز عليه الشهيد هو : الكفاح المرير الشاق الطويل الذي لابد منه لاستنقاذ الفطرة من الركام ثم لتغليب الفطرة على الركام •• هذا الأمر لا بد أن يكون في حسابنا ••

« إن أمامنا كفاحاً مريراً شاقاً طويلاً لاستنقاذ الفطرة من الركام ، ثم لتغليب الفطرة على هذا الركام •

كفاحاً مريراً يجب أن نستعد له استعداداً طويلاً ••

يجب أن نستعد بأن نرتفع إلى مستوى هذا الدين :

نرتفع إلى مستواه في حقيقة إيماننا بالله • وفي حقيقة معرفتنا بالله • فإننا لن نؤمن به حق الإيمان حتى نعرفه حق المعرفة ••

ونرتفع إلى مستواه في عبادتنا لله ، فإننا لن نعرف الله حق المعرفة إلا إذا عبدناه حق العبادة •

ونرتفع إلى مستواه في وعينا بما حولنا ، ومعرفتنا لأساليب عصرنا •• ورحم الله رجلاً عرف زمانه واستقامت طريقته •

ونرتفع إلى مستواه في إحاطتنا بثقافة عصرنا وحضارته ، وممارسة هذه الثقافة وهذه الحضارة ممارسة اختبار واختيار •• فإننا لا نملك الحكم على ماينبغي أن نأخذ منها وما ينبغي أن ندع إلا إذا سيطرنا عليها بالمعرفة والخبرة ، فمن المعرفة والخبرة نستمد سلطان الاختيار ••

ونرتفع إلى مستواه في إدراكنا لطبيعة الحياة البشرية وحاجاتها الحقيقية المتجددة ، فنرفض ما نرفض من هذه الحضارة ونستبقي ما نستبقي ؛ عن خبرة بالحياة ذاتها تعادل خبرتنا بهذه الحضارة كذلك •

وهذا كفاح مرير •• وكفاح طويل •• ولكنه كفاح بصير وكفاح أصيل •

والله معنا •• « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » [1]•

وأراني أقف في عجب وإعجاب •• وتساؤل وحسرة :

أين هذا الأفق الرحب والبصيرة الواعية والإيجابية البناءة والتجربة العميقة والعقل النير والثقافة الواسعة والتفاعل مع الناس ، أين ذلك كله من أولئك الذين يحسبون أنفسهم دعاة يفهمون فكر الشهيد أو يبشرون به بين الناس وهم يحبسون قلوبهم في أقفاص الصدور ، ونفوسهم في زنازين الجسد ، وعقولهم في عظام الجماجم ـ في تقوقع على النفس رهيب وهم يحاربون الوسائل الحديثة والأساليب المتطورة التي يمكن أن تكون في خدمة الدعوة والدعاة معاً وطريقاً من طرق الجهاد والاستشهاد : مذياعاً وتلفازاً وصحيفة وقلماً وجهازاً وآلة ؛ ليعرض عبرها في سبيل الله الأدب والاقتصاد والعبادة والقيادة والتربية والجندية وعلم الاجتماع وعلم النفس من وجهة نظر اسلامية خالصة لمعرفة طباع البشر ومخاطبة الناس ـ كما يقضي أمر الله ـ حسب عقولهم وما يفقهون !!

خصائص التصور الاسلامي ومقوماته[2]

في الكتاب الفكري الاسلامي الأول « العدالة الاجتماعية في الاسلام » الذي صدر للشهيد سيد قطب عام ١٩٤٧م طرق المؤلف موضوعاً هاماً أحسبه منطلقاً لمعظم العطاء الفكري للرجل ، حيث تحدث بإيجاز عن الله والكون والحياة والإنسان في الفكر الاسلامي وعن علاقة كلٍّ بالآخر •

---

(١) المستقبل لهذا الدين ـ آخر صفحتين من الكتاب .

(٢) يقع هذا الكتاب في ٢٣٤ صفحة من القطع الكبير ـ نشر دار إحياء الكتب العربية القاهرة .

ثم وعد المؤلف في الفصل نفسه أنه في سبيل إعداد بحث مفصّل قد يستغرق جزأين كاملين وكتابين كبيرين يتناول فيهما «خصائص التصور الاسلامي ومقوماته».

وقد أكرم الله الشهيد بأن مكّنه من إصدار القسم الأول من الكتاب تحت العنوان نفسه وكانت طبعته الأولى عام ١٩٦٢م .

يبدأ الكتاب بكلمة في المنهج يشير فيها إلى ضرورة تحديد « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » لأنه « لابد للمسلم من تفسير شامل للوجود ، يتعامل على أساسه مع هذا الوجود .. لابد من تفسير يقرّب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التي يتعامل معها ، وطبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق : حقيقة الألوهية . وحقيقة العبودية (وهذه تشتمل على حقيقة الكون . وحقيقة الحياة . وحقيقة الانسان) .. وما بينها جميعاً من تعامل وارتباط »[1] .

وهو يرى أن مثل هذا التحديد مسألة « ضرورية لأنه لابد للمسلم من معرفة حقيقة مركز الانسان في هذا الوجود الكوني ، وغاية وجوده الانساني ؛ فمن هذه المعرفة يتبين دور « الانسان » في « الكون » وحدود اختصاصاته كذلك . وحدود علاقته بخالقه وخالق هذا الكون جميعاً »[2] .

« وضرورية لأنه بناء على ذلك التفسير الشامل ، وعلى معرفة حقيقة مركز الانسان في الوجود الكوني وغاية وجوده الانساني ، يتحدد منهج حياته ، ونوع النظام الذي يحقق هذا المنهج . فنوع النظام الذي يحكم الحياة الانسانية رهين بذلك التفسير الشامل ، ولا بد أن ينبثق منه انبثاقاً ذاتياً . وإلا كان نظاماً مفتعلاً ، قريب الجذور ، سريع الذبول ، والفترة التي يقدّر له فيها البقاء ، هي فترة شقاء « الانسان » ، كما أنها فترة صدام بين هذا النظام وبين الفطرة البشرية ، وحاجات « الانسان » الحقيقية ! الأمر الذي ينطبق اليوم على جميع الأنظمة في الأرض كلها ــ بلا استثناء ــ وبخاصة في الأمم التي تسمى « متقدمة »[3] .

---

(١) و (٢) خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ــ ص٣ الطبعة الأولى .

(٣) راجع كتاب : « الانسان ذلك المجهول » تاليف دكتور الكسيس كاريل ، وكتاب « الاسلام ومشكلات الحضارة » (لسيد قطب) .

« وضرورية لأن هذا الدين جاء لينشىء أمة ذات طابع خاص متميز متفرد، وهي في الوقت ذاته أمة جاءت لقيادة البشرية ، وتحقيق منهج الله في الأرض ، وإنقاذ البشرية مما كانت تعانيه من القيادات الضالة ، والمناهج الضالة ، والتصورات الضالة ــ وهو ما تعاني اليوم مثله مع اختلاف في الصور والاشكال ــ .

وإدراك المسلم لطبيعة التصور الاسلامي ، وخصائصه ومقوماته ، هو الذي يكفل له أن يكون عنصراً صالحاً في بناء هذه الأمة ، ذات الطابع الخاص المتفرد المتميز ، وعنصراً قادراً على القيادة والإنقاذ . فالتصور الاعتقادي هو أداة التوجيه الكبرى ، إلى جانب النظام الواقعي الذي ينبثق منه ، ويقوم على أساسه ، ويتناول النشاط الفردي كله ، والنشاط الجماعي كله ، في شتى حقول النشاط الانساني »[1].

ثم يقول المؤلف في حديثه عن المنهاج : « منهجنا إذن في هذا البحث عن خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ، أن نستلهم القرآن الكريم مباشرة ــ بعد الحياة في ظلال القرآن طويلاً ــ وأن نستحضر ــ بقدر الإمكان ــ الجو الذي تنزلت فيه كلمات الله للبشر ، والملابسات الاعتقادية والاجتماعية والسياسية التي كانت البشرية تتيه فيها وقت أن جاءها هذا الهدى . ثم التيه الذي ضلت فيه بعد انحرافها عن الهدى الإلهي !

ومنهجنا في استلهام القرآن الكريم ألا نواجهه بمقررات سابقة إطلاقاً ؛ لا مقررات عقلية ولا مقررات شعورية ــ من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن ذاته ــ نحاكم إليها نصوصه ، أو نستلهم معاني هذه النصوص وفق تلك المقررات السابقة »[2] .

ويرى المؤلف ــ وهو محق فيما يرى ــ أنه لا يجوز بحال أن نأخذ من الاسلام ما يبرر للمبادىء القائمة الاخرى وجودها ، ومن القرآن ما يحل مشكلات وانحرافات

---

(١) خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ــ ص ٤ الطبعة الاولى .

(٢) المصدر السابق .

صنعها من لايؤمنون بالقرآن . إن القرآن ــ كما يعتقد المؤلف بعمق ــ علاج لمشكلات البشرية وقضايا الناس حين يسيرون وفقه ابتداء لا أن يرقعوا أخطاءهم ويرمموا دمار نفوسهم ، بفتاوى من هنا وهناك ..

ثم يمضي في حديث آخر بعنوان « تيه وركام » يتناول فيه « الركام الهائل من العقائد والتصورات ، والفلسفات والأساطير ، والأفكار ، والأوهام ، والشعائر والتقاليد ، والأوضاع والأحوال .. يختلط فيها الحق بالباطل والصحيح بالزائف ، والدين بالخرافة ، والفلسفة بالأسطورة ، والضمير البشري ــ تحت هذا الركام الهائل ــ يتخبط في ظلمات وظنون ، لايستقر منها على يقين . والحياة ــ بتأثير هذا الركام الهائل ــ تتخبط في فساد وانحلال ، وفي ظلم وذل ، وفي شقاء وتعاسة ، لاتليق بالانسان ، بل لاتليق بقطيع من الحيوان ! »[1] .

ثم يمضي فيبين دور الاسلام في رفع هذا الركام وإرسال النور القوي في تيه الضياع الذي تعيش فيه الانسانية المرتكسة .. حتى استطاع أن يحقق المعجزة وأن يبدل الناس غير الناس والحياة غير الحياة بهذا المنهاج الرباني الأمثل .

ويأخذ المؤلف بعد ذلك في عرض خصائص التصور الاسلامي واحدة بعد الاخرى في مستوى رفيع من وضوح الرؤية وعمق التفكير وصفاء العقيدة :

ويبدأ « بالربانية » حيث يؤكد أن من خصائص التصور الاسلامي ربانية المنهاج الذي وضعه الخالق للخلق ليسعد به الانسانية جمعاء وهو الله الذي يحب لعباده الخير ولا يحابي أحداً على حساب أحد أو يراعي قوماً دون قوم .

ثم يعرض « الثبات » فيبين أن الاسلام لايخضع لمرونة الأهواء و « مطاطية » الرغبات وانسياب الشهوة ، وإنما جاء ليكون مبدأً ثابتاً في أصوله ، وفيه من الدقة والتفصيل ما يوحي بعلم الخالق الأزلي ومعرفته المطلقة بحقائق الحياة وطبائع الناس.

---

(١) خصائص التصور الاسلامي ومقوماته .

ولقد أبان فيما عرض أن من رحمة الله بعباده أن ترك لهم مجالاً لاجتهاد العقل البشري المؤمن لتحقيق الوئام بين الناس والكون والحياة ـ في صورة يُعبد بها الله ويسعد بها الخلق في كل زمان ومكان ما تمسكوا بشريعة الله وطبقوا أحكامه .

وينطلق المؤلف بعد ذلك لـ « الشمول » ليوضح أن الاسلام جاء ديناً متكاملاً يعالج مختلف الشؤون الحياتية التي تحقق للمسلم سعادة الدارين، ولم يأتِ الاسلام مجرد صلوات أو تراتيل وإنما جاء ليكون منهاج حياة شامل يتناول أدق التفاصيل في نفس الانسان وجسده وحياته مبيناً علاقته مع الله ونفسه والناس بصورة فردية وجماعية معاً .

وفي موضوع « التوازن » يبين الكاتب أن الاسلام مبدأ متوازن يحقق للانسان السوي ما يرغب في الحياة الخيرة الكريمة ، فهو يرفض الفقر والترف معاً ، والشح والتبذير ، والجبن والتهور ، والرهبنة والدنس [1] .

ويدعو إلى مراعاة صالح الفرد في إطار الجماعة ، أو صالح الجماعة في نطاق حماية الفرد واحترام انسانيته وتقدير عقله وعواطفه معاً في بشرية سوية بانية .

ويبحث الكاتب « الايجابية » ليبين أن الاسلام دين إيجابي ماجاء للعيش في الصوامع ولا التقوقع في المعابد ، ولكنه جاء بكل مامن شأنه الاسهام في بناء المجتمع الانساني الراقي والحياة الانسانية الفاضلة .

ثم يتناول الكاتب « الواقعية » ليقول إن الاسلام لم يأت للبشرية يحمل خيالات من المثل التي لاتتحقق والقيم التي لايمكن تطبيقها في واقع الحياة ، إنما جاء بما يمكن أن يقوم ، وقد تمّ حين وضع المسلمون الأوائل المنهاج القرآني موضع التنفيذ ومارسوه في الحياة وعاشوه أعماراً مفعمة بالبر والمرحمة .

ولكن الاسلام كذلك ماجاء ليخضع لواقع الحياة المنحرف وسبيل الضالين المعوج ، وإنما جاء ليعدل الواقع الملتوي ويعيد الصورة القبيحة المزرية إلى فطرتها

---

(١) راجع كتاب اخلاقنا الاجتماعية للدكتور مصطفى السباعي رحمه الله .

السوية ليبدو الذوق والحب والجمال وفق مايرتضيه الاسلام للناس من خير وعدل واستقامة •

ويختتم المؤلف كتابه هذا بخاصية « التوحيد » وهي المنطلق الذي يركز عليه وينطلق منه المؤلف وفق فهمه السليم للاسلام في معظم فكره النير وغطائه الخير •••

التوحيد هو القاعدة الأولى والركيزة الثابتة التي تقيم العدل ، وتربي على الشجاعة ، وتوحد الصفوف ، وتعلي الهمم ، وتعلم الاستقامة ، وتسمو بأهداف الحياة الانسانية إلى آفاق عليا لايعرفها إلا الموحدون •

ويختتم المؤلف كتابه هذا بقوله :

« إن الناس في جميع الأنظمة التي يتولى التشريع والحاكمية فيها البشر ـ في صورة من الصور ـ يقعون في عبودية العباد •• وفي الاسلام ـ وحده ـ يتحررون من هذه العبودية للعباد ـ بعبوديتهم لله وحده •

وهذا هو « تحرير الانسان » في حقيقته الكبيرة • •وهذا ـ مِنْ ثَمّ ـ هو « ميلاد الانسان » •• فقبل ذلك لايكون للانسان وجوده (الانساني) الكامل بمعناه الكبير •• الوحيد ••

وهذه هي الهدية الربانية التي يهديها للناس في الأرض بعقيدة التوحيد ••

وهذه هي النعمة الالهية التي يمن الله بها على عباده وهو يقول لهم : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً) •

وهذه هي الهدية التي يملك أصحاب عقيدة التوحيد أن يهدوها ـ بدورهم ـ للبشرية كلها • وهذه هي النعمة التي يملكون أن يفيضوا منها على الناس ، بعد أن يفيضوها على أنفسهم ، ويرضوا منها مارضيه الله لهم •

وهذا هو الجديد الذي يملك أصحاب عقيدة التوحيد أن يتقدموا به للبشرية اليوم كما تقدم به أسلافهم بالأمس ، فتلقته البشرية يومها كما تتلقى الجديد ، ولم تستطيع أن تقاوم جاذبيته لأنه يمنحها مالاتملك بالفعل ، فلا يقف لجاذبيته إباؤها

العنيد .. وهو اليوم يمنحها مالا تملك ، فهو شيء آخر غير كل مالديها من تصورات وعقائد ، وأفكار وفلسفات ، وأنظمة وأوضاع بكل تأكيد .

لقد قال ربعي بن عامر رسول جيش المسلمين إلى رستم قائد الفرس ـ وهو يسأله ما الذي جاء بكم ـ كلمات قلائل تصور طبيعة هذه العقيدة ، وطبيعة الحركة الاسلامية التي انبثقت منها ، كما تصور طبيعة تصور أهلها لهـا ، وإدراكهم لحقيقة دورهم بها .

قال له : (الله ابتعثنا ، لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . ومن ضيق الدنيا إلى سَعَة الدنيا والآخرة . ومن جَوْر الأديان إلىعدل الاسلام).

وفي هذه الكلمات القلائل تتركز قاعدة هذه العقيدة ، وتتجلى طبيعة الحركة الاسلامية التي انبثقت منها ، وانطلقت بها ...

إنها اخراج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ... ورد أمرهم إلى الله وحده في المحيا والممات ، في الدنيا والآخرة . وإفراد الله سبحـانه بالألـوهية وبخصائص الألوهية ، والسلطان والحاكمية والتشريع ـ هي أولى هذه الخصائص التي لاينازع الله فيها مؤمن ، ولا يجرؤ على منازعته إياها إلا كافر ولا توجد حرية للانسان ، بل لايوجد (الانسان) ذاته إلا بخلوصها لله .

وأصحاب عقيدة التوحيد ـ حين يفيئون اليوم إليها ، وحين يرفعون رايتها وحدها ـ يملكون أن يقولوا للبشرية كلها ما قاله ربعي . فالبشرية ـ من هـذه الناحية ـ اليوم كما كانت يوم قال ربعي بن عامر كلمته .. إنها كلها غارقة في عبادة العباد . والتوحيد ـ بمعناه الشامل ـ هو الذي يخرج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وبذلك وحده « يتحرر الانسان » بل « يولد الانسان » .

وأصحاب عقيدة التوحيد ـ حين يفيئون إلى منهج الله الذي منّ به عليهم وينادون به ـ يملكون أن يتقدمـوا للبشرية بالشيء الذي تفقده جميـع المناهج والمذاهب والأنظمة والأوضاع في الأرض كلهـا بلا استثناء .ومن ثَمّ يكون لهم اليوم وغداً دورٌ جديد . دورٌ عالمي إنساني كبير . ودور قيادي أصيل في التيارات

العالمية الانسانية . دور يمنحهم سبباً وجيهاً للوجود العالمي الانساني ؛ كالدور الذي منح العرب الأميين في الجزيرة العربية سبباً وجيهاً للوجود العالمي الانساني ، وللقيادة العالمية الانسانية .

إنهم لا يملكون أن يقدّموا للبشرية اليوم أمجاداً علمية ، ولا فتوحات حضارية يبلغ من ضخامتها أن تتفوق تفوقا ساحقاً على كل مالدى البشرية منها .. ولكنهم يملكون أن يقدموا لها شيئاً آخر .. شيئاً أعظم من كل الأمجاد العلمية ، والفتوحات الحضارية .. إنهم يقدمون « تحرير الانسان » بل « ميلاد الانسان » ..

وهم حين يقدّمون للبشرية هذه الهدية يقدمون معها منهجاً كاملاً للحياة . منهجاً يقوم على تكريم الانسان ، وعلى اطلاق يده وعقله وضميره وروحه من كل عبودية . إطلاقه بكل طاقاته لينهض بالخلافة عن الله في الأرض ، عزيزاً كريماً كما أراد له خالقه. وفي نهوضه بالخلافة وهو حر كريم ، يملك إذن أن يقدم وأن يقوم الأمجاد العلمية ، والفتوحات الحضارية ، وهو في أوج كرامته ، فلا يكون عبداً للآلة ، ولا عبداً للبشر .. على السواء .. »[1] .

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن القسم الثاني من « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » قد كتبه الشهيد في السجن ولم يطبع بعد وسماه « مقومات التصور الاسلامي » . والمأمول أن يرى الكتاب النور ليستكمل الشهيد خصائص التصور الاسلامي ومقوماته في الكتابين إطاراً متماسكاً وصورة متكاملة بإذن الله .

الاسلام ومشكلات الحضارة [2]

ما كان للمؤلف أن يكتب مثل هذا الكتاب وعلى هذا المستوى الذي قدّمه للقارىء المسلم لو لم يكن واسع الاطلاع غزير الثقافة ؛ بالاضافة لما قام به من زيارة

---

(١) ٢٣٢ ــ ٢٣٤ من كتاب خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ــ لسيد قطب.

(٢) يقع هذا الكتاب في ١٩١ صفحة من القطع الكبير صدر عام ١٣٩٨هـ ــ ١٩٦٨م بالقاهرة .

لبلد أجنبي يزعم قادة الفكر والسياسة والتوجيه فيه بل يزعم بنوه جميعاً أنهم رسل الحضارة للعالم !

لقد زار الشهيد الولايات المتحدة الاميركية عام ١٩٤٨ م كما بيّنا ، ومكث فيها عامين عرف خلالهما من عيوب الحضارة المادية ومساوئها مالم يفطن له كثير من المضبوعين الغافلين المرضى الذين يجثون على ركبهم في هيكلها أو يخرون للأذقان سجداً عند ذكرها والحديث عنها بإعجاب الغافلين وذهول المضلّلين .

ولقد حاول الشهيد يوماً أن يصدر كتابه الذي وعد به : « أمريكا التي رأيت »؛ فلم يكتب له ذلك حتى جاء كتابه هـذا : « الاسلام ومشكلات الحضارة » وفيه عرض" هادف للحضارة الاسلامية ورفض إيجابي للسلبيات المدمرة التي تفرزها لنا حضارة العري والضياع والأفيون !

وكأني بالمؤلف قد قـال في هذا الكتاب ما كان ينوي أن يقوله في كتـاب « أمريكا التي رأيت » بعد أن وضع مخططه وكتب رؤوس أقلامه وعناوين أفكاره لولا ظروف قاهرة حالت دون المضي في كتابة الكتاب وإبرازه إلى عالم الوجود[١] .

تناول الشهيد في الكتاب حياة الانسان المعاصر ومنهج الأسلوب المادي الذي يجعل الناس في لهاث مستمر وسعار مضطرب ويقودهم إلى هاوية رهيبة تلتهم قيم الحياة وكرامة الانسان .

ثم يؤكد أن الذين فروا من مادية النظام الرأسمالي وحسبوا أن الخلاص في « الماركسية » و « التفسير المادي للتاريخ » قوم واهمون ؛ لأن الماركسية نفسهـا جزء من الفكر المادي ومرحلة من مراحـل رحلة الدمار وخطوة على الطريق التي تقود إلى الهاوية .

---

(١) لقد قـدّر لمؤلف هذا الكتاب عن الشهيد سيد قطب ان يزور امريكا مرتين مما اعانه على ان يعد الآن كتابا عنوانه « امريكا تنهار من الداخل » .. نرجو الله ان يكتب له بأن يرى النور .

ويمضي المؤلف بعد ذلك إلى « الانسان ذلك المجهول » ويبدأ بالحديث عنه مبيناً كيف أن الحضارة المعاصرة لم تكتشف الانسان بعد ولم تتناول منه إلا جسده وشهوته ، بينما تركت نفسه وروحه وآفاقه العليا في ظلمات بعضهـا فوق بعض . ويستشهد في هذا المقام بآراء عدد من الكتاب والمفكرين الغربيين الذين يعترفون أن حضارتهم المادية لم توفر لهم الأمن ولم تبعث في نفوسهم الطمأنينة ، وإنما زجَّت بهم في أتون مستعر لايرحم من قلق النفس وعذاب الضمير وخواء الروح .

وتيجة لهذا الجهل المطبق في مجال العلم بحقيقة الانسان ــ لأن الجامعات ومناهج البحث العلمي كانت قد نشأت في ظل الاسلام في القرن الخامس عشر ، في حين كانت أوروبا تعيش فترة مظلمة ينيرها بصيص من المعرفة حين تتطلع إلى الأندلس أو الشرق لتقتبس من علمه ــ تمردت أوروبا على الدين الذي لم تجد فيه حلاً لمشكلاتها ومنظماً لشؤون الحياة فيها ، وظنت أن كل دين كذلك فحاربت الدين والروح وكل مالم يكن في عالم المادة وعالم الشهادة ، مما قادها إلى تخبط واضطراب زاد في ضـلالها وضاعف من عمي الأبصار والبصائر في حياة الناس دون خلاص مما كانوا يعانون منه أو فيه يغرقون .

ويؤكد المؤلف « أن هذه الظواهر النكدة تتجلى الآن في كل جوانب الحياة البشرية . وتبدو معها التضحيات الهائلة ، والمذابح الرهيبة ، والتقلبات العاتية ، والشقوة التي تسحق أثمن عناصر الكون .. الانسان » [1] .

ويقف المؤلف بعد ذلك كما يقول : « وقفات مجملة أمام نماذج بعينهـا من تجارب البشرية الذاتية ــ في معزل عن هدى الله ومنهجه للحياة ــ في تاريخ البشرية من القديم إلى الحديث ، تشير إلى سائر النمـاذج مُذ كان استقصاؤها متعذراً ، فضلاً على أن طبيعة هذا البحث المجمل لاتتحمله :

---

(١) الاسلام ومشكلات الحضارة ص ٣٦ طبعة ١٩٦٨ م

هذه النماذج تتناول المسائل الرئيسية الثلاث في حياة الانسان :

١ ــ مسألة النظرة إلى الانسان وحقيقة فطرته واستعداداته •

٢ ــ مسألة النظرة إلى المرأة وعلاقات الجنسين •

٣ ــ مسألة النظم الاقتصادية والاجتماعية •

● أما المسألة الأولى حول النظرة إلى الانسان وحقيقة فطرته واستعداداته فلقد ساق المؤلف أكثر من رأي لأكثر من عالم يؤكدون خلالها أن اعتبار أصل الانسان قرداً بات رأياً بالياً تجاوزه العلم وخلفته المعرفة الانسانية والبحث العلمي ، بحيث تأكد « أن الانسان قد حافظ على سيادته من غير انقسام ، ولقد تم تنوع سلالات الانسان في حدود نوع واحد » و « الانسان لامثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره »[١] •

وبعد أن يعرض المؤلف أكثر من رأي لأكثر من عالم حــول طبيعة الانسان وحقيقة خلقه ورفض « الداروينية » العمياء ــ يقارن بين تعنت الكنيسة في جمودها وتصورها للانسان ومحاربتها للمنهج العلمي وبين « جموح العلماء ثم الجماهير » جموحاً مضاداً لجموح الكنيسة لا يقف عند حد الاعتدال أبداً •

« وتلا ذلك النظريات والمذاهب التي أشرنا إليها ، جامحة في تلويث الانسان وتحقيره ، ومن ثم إباحة كل خساسات الشهوات الجامحة له ، بدون حدود ولا قيود •

وظلت الموجة العاتية في مدها حتى اللحظة الحاضرة ، وانساحت من أوروبا إلى وليدتها أمريكا ، ثم انساحت منها إلى جنبات الأرض ، وما تزال ماضية في طريقها عاصفة مدمرة تنفخ فيهــا أبواق الصحافة والسينما والمســرح والأدب والتصوير والنحت •• وسائر الفنون ، وسائر أجهزة الاعلام والتوجيه •• ومن ورائها جميعاً « بروتوكولات حكماء صهيون » التي تنص على أن هذا كله هدف أصيل للصهيونية العالمية ، لتدمير العالم ــ غير اليهودي ــ وإصابته بالانحلال ، ليسهل بذلك إخضاعه لحكم صهيون !

---

(١) مما نقله المؤلف عن كتاب « الانسان في العلم الحديث » لجوليان هكسلي .

وما تزال البشرية تهوي إلى هاوية الدمار الأكيد ، وعجلة الحياة جامحة مجنونة ، تلهبها سياط الاجهزة المتعددة . حتى يأذن الله ، فتتسلم القيادة غير تلك اليد الرعناء المجنونة الشاردة المحمومة » [1] .

● أما موضوع المرأة وعلاقات الجنسين فقد بدأه المؤلف بقوله :

« ولا يقل أثر الاضطراب والتخبط في النظرة إلى المرأة وإلى علاقات الجنسين في حياة المجتمع الانساني عن أثر التخبط والاضطراب في النظرة إلى الانسان وفطرته واستعداداته ، فكلاهما ينبع من معين واحد : هو الجهل بحقيقة هذا الكائن بنوعيه، ومن الهوى كذلك والضعف ، ثم الانقطاع ـ مع هذا الجهل والهوى والضعف ـ عن منهج الله وهداه » [2] .

ثم مضى يسوق الفكر الاسلامي الواضح والنظرة الاسلامية الكريمة التي نظمت علاقة الجنس بين الرجل والمرأة ، بحيث اعترفت به ولكن في عفة ، وأقرته ولكن في غير تفسخ وانحلال وإنما بأسلوب البناء الذي تشارك فيه المرأة الرجل الحياة : أماً رؤوماً ، وزوجة كريمة ، وأختاً طيبة ، وابنة بارة ، كلهن يقدمن للحياة الانسانية العطاء والخير والعمل الدؤوب جنباً إلى جنب مع الرجل في إطار من الحشمة والوقار والاجلال والتقدير والمودة والمرحمة دون عبث العابثين وثرثرة الثرثارات ، حتى يفوت على اليهودية المنحرفة الحاقدة مارسمته للعالم أن يدمر عبر الجنس ، وأن يمزق عبر المرأة التي خلقها الله للاسهام في بناء الأسرة والحياة لا لتمزيق الانسان والحياة الانسانية !

● ويمضي الكاتب يعرض التخبط نفسه الذي انطلق العالم منه عند البحث في النظرة إلى الانسان وطبيعته ، فيؤكد أن هذا الانحراف قاد الانسانية النكدة المعذبة إلى وضع نظم اجتماعية منحرفة ونظم اقتصادية متمردة مدمرة دفعت بالانسان أن

---

(١) الاسلام ومشكلات الحضارة ص ٦٠ طبعة ١٩٦٨ م

(٢) الاسلام ومشكلات الحضارة ص ٦١

يرفض ظلم الرأسمالية وجشع دعاتها وأصحابها ، ليقع فريسة وهم كاذب وخديعة مضللة لها بريق ولكنه كاذب ووهج ولكنه يعمي البصائر ، وكان ذلك حين صدّق أن خلاصه على يد الماركسية والاشتراكية ، وما يحسبه عدلاً في بنية هذه الأنظمة الجائرة الحاقدة .

ويقدم المؤلف في إيجاز ووضوح فكرة عن منهج الله الذي يمكن أن يعالج الموقف وينقذ الانسانية المعذبة مما تتخبط فيه من كوارث وما تقع فيه من بلاء فيقول :

« ونحن الذين عصمنا الله من الشرود من كنف الله لأنه لم تكن لنا كنيسة تطاردنا باسمه ، فنشرد منها ومن إلهها ودينهـا ، ونمضي كالذين يقـول الله عنهم : « كأنهم حُمُرٌ مستنفرة فَرَّتْ من قَسْوَرَة » !

ونحن الذين عصمنا الله من أن نكل إلى العلم الانساني ـ أو بتعبير العلمـاء إلى الجهل الانساني ! ـ مهمة وضع المناهج الأساسية للحياة الانسانية ، بل أمدنا بقواعد المنهج المنير ، القائم على العلم المطلق بفطرة الانسان واستعداداته وطاقاته وحاجاته الحقيقية .

نحن ـ وهذا فضل الله علينا ـ جديرون أن ننظر إلى المسألة نظرة أخرى ، وأن نأخذ الأمور بالرفق والهدوء والنظر « العلمي » الصحيح ، الذي يتقصّى كل جوانب المسألة ، ولا ينهش منها نهشة ويجري شارداً من الكنيسة ، وإله الكنيسة ، ودين الكنيسة ، وتصورات الكنيسة !

وعندئذ ندرك مظاهر التخبط والتأرجح والأسباب الحقيقية الكامنة وراءها ، وتكون لنا نظرتنا المستقلة ، ونظرياتنـا المستقلة ، ومناهجنا المستقلة القائمة على دراستنا المستقلة ، المستمدة من منهج الله وهداه ..

ومن ثَمَّ نرى أن هناك اختلافاً جذرياً أصيلاً بين منهجنا وكل المناهج السائدة، وبين مذهبنا وكل المذاهب المعروفة ، وبين طبيعة نظرتنا لواقع الحياة البشرية وللتاريخ البشري وكل النظرات القائمة ، وبين تفسيرنا للحياة والتاريخ وكل تفسير آخر ، وبين كل عنوان اتخذته الأنظمة الاجتماعية البشرية وعنوان نظامنا « الاسلامي » .

وليس هذا البحث المجمل مجال هذه الدراسة ، فضلاً على أنها في حاجة إلى كفايات منوعة تتجمع في تنظيم واحد ، وتستوفي الزمن اللازم لهذه الدراسة الضخمة في ظروف وأوضاع جادة في الأخذ بمنهج الله ، وأمـام عزمة حقيقية لتنفيذ هـذا المنهج . ومن ثَمَّ تتجه إلى هـذه الدراسة لتطبيق نتائجها في عالم الواقـع ودنيا التعامل لا لمجرد البحث والدراسة والثقافة ! فالمنهج الاسلامي في التفكير والنظر منهج واقعي جـاد ، لايسمح لأصحابه أن يبذلوا جهودهم لمجرد البحث والدراسة والثقافة ، إنما يبذلونهـا لتطبق ، ولتصبح واقعاً من الواقع ، وذلك حين يكون هناك اتجاه جاد لتحكيم النظام الاسلامي كله في الحياة !

إنما المجال في هذا البحث المجمل مقصور على استعراض بعض التخبطات في الحياة الأوروبية ـ في هذا الجانب ـ هذه الحياة التي طغت ـ مع الأسف ـ على رقعة الأرض كلها في هذا الزمان ، والتي أصبحت مفهوماتها وتفسيراتها وشاراتها وعنواناتها ومصطلحاتها هي التي تغمر رقعة الأرض كلها ، أو تندس في ثنايا التفكير والتعبير والتطبيق في كل مكان » (١) .

ويشير المؤلف إلى أن عقوبة البعد عن الفطرة والتنكر لهـا لابد أن تحـلَّ بالانسانية المنكودة التي تنكرت لمنهج الله واتبعت منـاهج بشرية منحرفة وآراء بشرية ضالة .

« لم يكن بدٌّ وقد شرد الانسان عن ربه ومنهجه وهداه .. وعبد الانسان نفسه واتخذ إلهه هواه . وجهل الانسان نفسه كذلك وراح يخبط في التيه بلا دليل وأقام منهج حياته على قواعد من هذا الجهل ومن ذلك الهوى . واعتدى على فطرته التي فطره الله عليها في حموة الشرود من ربه وفطرته ومنهجه .

لم يكن بد وقد رفض الانسان تكريم ربه له ، فاعتبر نفسه حيواناً ـ وقد أراده الله إنساناً ـ وجعل نفسه آلة ـ وقد أراده الله مهندساً للآلة ؛ بل جعل الآلة إلهاً يحكم فيه بما يريد ، وجعل المادة إلهاً يحكم فيه بما يريد ، وجعل الاقتصاد إلهاً يحكم فيه

---

(١) الاسلام ومشكلات الحضارة ص ٩٠ ـ ٩١

بما يريد ــ وقد أراد له ربه أن يكون سيد المادة ، وسيد الاقتصاد ، ولكنه رفض هذا التكريم كله لينجو فقط من الكنيسة ، ويشرد من إله الكنيسة !

لم يكن بد وقد جعل الانسان من المرأة حيواناً لطيفاً ــ كما أن الرجل حيوان خشن ــ غاية الالتقاء بينهما اللذة ، وغاية الاتصال بينهما المتاع ، ونسي أن الله يرفع هذه العلاقة ويطهرها ويزكيها ، وينوط بها امتداد الحياة من جهة ، وترقية الحياة من جهة أخرى ، ويربط بها عجلة التمدن الانساني ، ويجعل من الأسرة محضن المستقبل، ويجعل من المرأة حارسة الانتاج النفيس .. نتاج المادة الانسانية .. ويصونها من التبذل كي لاتكون مجرد أداة لذة ، ويصونها من الاشتغال بانتاج المواد في المصنع، وهي في الأسرة تنتج وتحرس مادة « الانسان » .

لم يكن بدٌ وقــد عطّل الانسان خصائصه « الانسانية » ليحصر طاقته في الانتاج المادي ، وأقام حياته كلها على أساس مادي ، وتصور مادي ، وكبتالجوانب الحية المرفرفة اللطيفة في حسه ، والتي وهبها الله له لأنه « الانسان» الخليقة الفذة في هذا الكون التي تشمل المتناقضات كلها في تناسق بديع .

لم يكن بدٌ وقد أقــام الانسان نظامه على الربا ليكد القطيع البشري كله في خدمة بضعة آلاف من مؤسسي البيوت المالية والبنوك المرابين ، تعود إليهم حصيلة كد البشرية في أقــاصي الأرض ، وهم قابعون وراء المكاتب الفخمــة ، والنظريات الاقتصادية ، وجميع أجهزة التوجيه والاعلام !

وفي النهاية .. لم يكن بدٌ وقد اتخذ الانسان له آلهة من دون الله ، فاتخذ من المال إلهاً ، ومن الهوى إلهاً ، ومن المادة إلهاً ، ومن الانتاج إلهاً ، ومن الأرض إلهاً ، ومن الجنس إلهاً ، ومن المشرّعين له آلهة يغتصبون اختصاص الله في التشريع لعباده، فيغتصبون بذلك حق الألوهية على عباد الله .. كل هذه الآلهة اتخذها وعبدها ، ليهرب من الله ويستنكف عن عبادته !!!

لم يكن بدٌ وقد فعل الانسان هذا كله بنفسه أن تحلّ به عقوبة الفطرة ، وأن يؤدي ضريبة المخالفة عن ندائها العميق .. وأن يؤديها فادحة قاصمة مدمرة ..

وقد كــان ...

كان •• وأداهـا من نفسه وأعصـابه • ومن بدنه وعافيته • ومن سعادته وطمأنينته • ومن مواهبه وخصائصه • ومن دنياه وآخرته •

أداها ــ وفي الأمم التي بلغت ذروة الحضارة المادية بالذات ــ تناقصاً في النسل يهدد بالانقراض ، وتناقصاً في الخصائص الانسانية يوحي بالنكسة إلى البربرية ، وتناقصاً في الذكاء والمستوى العقلي يهدد بانهيار العلم الذي قامت عليه الحضارة وبانهيار الحضارة ذاتها في النهاية •

وظهرت آثار الكبت للطاقات الأخرى التي لا تحتاج إليها الصناعة بطرائقها الحاضرة، وآثار القلق على المستقبل في المجتمع المادي المتناحر، وآثار الخواء الروحي الذي تفرضه الفلسفات والأوضاع في المدنية الكافرة •• ظهرت آثارها في صورة الأمراض العصبية والعقلية والنفسية والعته والجنـون والشـذوذ والانحـراف والجريمة •

وظهرت آثار التوجيه المتواصل إلى حيوانية الانسان وماديتـه وسلبيته ، وإطلاق شهواته وغرائزه من كل ضابط •• ظهرت في صورة الانحلال ، واللامبالاة ، والسلبية ، وقبول الديكتاتوريات ، وحياة القطيع التي لا هدف لها إلا السّفـاد واللقاح والطعام والشراب •

وكتب على البشرية كلها أن تؤدي الضريبة فادحة صارمة ثقيلة : حروباً رعيبة ضحايا بالملايين قتلى وجرحى ومشوّهين ومعتوهين ومعذّبين•وأزمات تلو أزمات•• أزمات إذا قلّ الإنتاج ، وأزمات إذا زاد الانتاج • أزمات إذا مال الميزان التجاري إلى العجز، وأزمات إذا مال الميزان التجاري إلى الزيادة• أزمات إذا نقصت المحصولات، وأزمات إذا فاضت المحصولات • أزمات إذا قلّ النسل ، وأزمات إذا زاد النسل • وتخبطٌ من هنا وتخبط من هناك• وقلق وحيرة واضطراب وعدم استقرار• وضغط على أعصاب الناس لا تطيقهُ بنيتهم ، فيخرون أمواتـاً بالسكتة وتفجر المـخ ، أو يخرون أشلاء أو مجانين ، كما لو كانت قد سُلّطت عليهم قوى المردة الأسطورية من حيث لا يحتسبون •• وما سلطت عليهم سوى أنفسهم ، وما كان إلا نذير الله الذي لم تنفتح له القلوب والآذان :

« ومن يبدّل نعمة الله من بعد ماجاءته فإن الله شديد العقاب » ..

« البقرة : ٢١١ »

« ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السبيل » ..

« البقرة : ١٠٨ »

* * *

وفي تساءل مشفق يسجل المؤلف عنواناً لفصل « كيف الخلاص » ..

« والآن .. ماذا ياترى يكون حكمنا على هذه الحضارة الصناعية ؟

ماذا بعد هذه الشهادات الدالة على بشاعة الجريمة ، وعلى الخطر الداهم على (الانسانية) ؟ على وجودها ذاته بالميل إلى الانقراض في الدول التي بلغت قمة الحضارة ؟ وعلى خصائصها الثمينة بالميل الى الجنون والأمراض العصبية والنفسية والشذوذ والاجرام ، وهبوط مستوى الذكاء ، وضعف العقل والاحتمال الجسدي والعصبي والنفسي في هذه الدول .. إلى آخر قائمة الاتهام الرهيبة ؟!

ترى نصدر حكمنا بالإعدام ؟ وهو الحكم الذي يبدو متكافئاً مع ظروف الجريمة ؟! »

لكن المؤلف يعود فيقول بفهم المسلم ووعي المفكر العميق :

« إننا أولاً لا نملك إصدار حكم بالإعدام على الحضارة الصناعية . فهي نتاج طبيعي ، له مكانه في تاريخ الحياة البشرية ، ولم يهبط عليها من عالم آخر ، ولا جاء مصادفة ، ولا نبت سدى .. ومن ثمّ فهذه الحضارة عميقة الجذور ، أصيلة الوجود ، وجدت لتلبية حاجة طبيعية للبشرية في موعدها التاريخي المناسب كذلك .. ومن ثمّ لا تكون قابلة للإعدام ، لو اخترنا أن نصدر عليها هذا الحكم ، لفظاعة الجرائم التي ارتكبتها في حق الانسان !!

وعلى فرض أننا نملك تنفيذ حكم كهذا ، أو على فرض أن (تتاراً) جدداً قد انبعثوا في هذه الأرض يحطمون حضارتها ــ كما حطموا حضارة بغداد ــ ويلقون بكتب هذه الحضارة في أنهار الرين والراين والسين والتيمس

والبوتوموك •• أو أن حفنة من مجانين البشر الذين يملكون القنبلة الذرية والقنبلة الأيدروجينية والصواريخ ومـا إليهـا ، قد أصابتهم (النوبة) في لحظة فأطلقوا الدمار على مراكز هذه الحضارة !

وعلى أي فرض من هـذه الفروض ، فإن تحطيم هذه الحضارة على هـذا النحو ، يبدو لنا ــ من خلال نظرتنا البشرية المحدودة ، التي لاتعلم حقيقة الخير والشر ، ولا تعرف شيئا عن مآلات الأفعال ــ أنه ليس في صالح البشرية •• وفي حدود هذه النظرة لا نملك أن نصدر حكم الإعدام على هذه الحضارة على الرغم من جرائمها البشعة ضد العنصر الانساني !

إذن كيف الخلاص ؟

وتأتي الاجابة الواعية الحانية الجادة الهادفة الرقيقة التي تفيض حنـواً على الانسان وإشفاقاً على مصير الانسانية :

« إن البشرية لا تستجيب عادة لمنهج مقروء أو مسموع •• إنما تستجيب لمنهج حي متحرّك ، مجسم ، ممثل في حياة جماعة من البشر ، مترجم إلى واقـع تراه العين وتلمسه اليد ، وتلاحظ آثاره العقول ••

إنهـا تستجيب للمنهج الاسلامي في صورة مجتمـع اسلامي •• وعلى كل مالقيته البشرية من اللأواء والنَّصَب في هاجرة التيه المقفر الذي سارت فيه بـلا دليل ••

وعلى كل ما عانته من التجارب القاسية ، والتخبط المؤلم ، وهي تنهض وتتعثر، وتنزف جروحها طوال الطريق !

وعلى كل ما يهدد خصائصها من الدمار ، ويهدد حياتها من البوار ، في ظل هذه الحضارة المادية التي أقيمت دون علم بالإنسان ، ودون مراعاة لخصائصه في كل زمان !

وعلى كل ما يدرك العقلاء فيها من جسامة الخطر الذي يتعرض له وجودها ذاته ، وتتعرض له خصائصها الثمينة ••

على الرغم من هذا كله ، فإنه ليس من عادة البشرية أن تستجيب لمنهج مقروء أو مسموع .. مالم يتمثل في صورة « مجتمع » يعيش بهذا المنهج ، ويعيش له ، وتتمثل فيه خصائصه ومزاياه ..

وألف كتاب عن الاسلام . وألف خطبة في مسجد أو قاعة أو ميدان .. وألف فيلم في الدعاية للاسلام . وألف بعثة من الأزهر أو غير الأزهر في كل مكان .. كل أولئك لا يغني غناء مجتمع صغير يقوم في ركن من أركـان الأرض ، يعيش بمنهج الاسلام ، ويعيش لمنهج الاسلام ، وتتمثل فيه خصائص هذا المنهج ، وتتمثل فيه صورة الحياة في الاسلام !

وأعداء الإسلام العالميون من الصهيونيين والصليبيين المستعمرين يعرفون هذه الحقيقة جيداً ، ومن أجل معرفتهم العميقة بهذه الحقيقة هم قـد يسمحون بنشر الكتب عن الاسلام ــ في حدود ــ وبإلقاء الخطب عن الاسلام ــ في حدود ــ وبعرض الأفلام عن الاسلام ــ في ندرة ــ وبإرسال البعثات للاسلام ــ في رقابة ــ ولكنهم لا يسمحون أبداً ــ بمالديهم مـن سلطات عالمية ضخمة خافية وظاهرة ــ بقيام مجتمع اسلامي ــ ولو صغير ــ في ركن من أركان الأرض ولو في جزيرة بالمحيط !

ذلك أنهم يعرفون أن هذه هي الوسيلة الجدية الوحيدة (لوجود) الاسلام ! هم قد عانوا من (وجود) الإسلام طويلاً ، إذ حال بينهم وبين أهدافهم الاستعمارية الاستغلالية للوطن الاسلامي وللمجتمع الاسلامي .. وما صدّقوا أنْ أجهزوا ــ كما يتصورون ــ على هذا الجبّار ، فهم يفزعون من شبحه ولا يريدون لـه (الوجود) الفعلي بحال من الأحوال ..

ولكن المجتمع الاسلامي ــ مع هذا كله ــ هو طريق الخلاص الوحيد للبشرية المهددة بالدمار والبوار ..

إنه الاستجابة الوحيدة لنداء الفطرة في ساعة العسرة ، والفطرة في ساعة الخطر تتنبه وتعمل ، مهما تكن في خمار أو دوار !

إنه ضرورة إنسانية وحتمية فطرية .. ومن ثم فإن الدوافع لبروزه أقـوى

من كل قوة معوِّقة . أقوى من الصهيونية الماكرة والصليبية المستعمرة . وأقوى من الأجهزة المسلطة في كل زاوية من زوايا الأرض .. وأقوى كذلك من جهل أهل الاسلام بالإسلام ، وبلادتهم وانغمارهم في التيار الجارف العام !

إنه لا مفر من قيام هذا المجتمع .. المجتمع الاسلامي ..

إنه إن لم يقم اليوم فسيقوم غداً . وإن لم يقم هنا فسيقوم هناك .. ولا نريد أن تتنبأ عن مكان أو زمان ، فنحن ــ البشر ــ تقف تقديراتنا دائماً عند ستر الغيب المسدل الذي لا يعلم ما وراءه إلا الله .

إلا أن الذي ينبغي أن يقال .. هو التحذير من وقع هذه الكلمات ! التحذير من الأمل العريض الذي قد تنشئه في بعض الصدور !

إن حتمية قيام هذا المجتمع بوصفه ضرورة إنسانية لإنقاذ الإنسانية ، وبوصفه الترجمة العملية للمنهج الإلهي الذي لابدّ غالب ..

إن هذه الحتمية ليس معناها أن الطريق إليه نزهة مريحة ، ولا أنه هناك على قيد خطوات .. كلا ، إن حتمية الميلاد لاتغني من آلام المخاض !!

والطريق إلى المجتمع الاسلامي طويل وشاق .. ومليء بالأشواك . وأعسر ما في هذا الطريق هو أن نرتفع نحن بتصوراتنا ، وبأفكارنا ، وبأخلاقنا ، وبسلوكنا ــ ثم بواقعنا الحضاري المادي ــ إلى مستوى الاسلام .

ولكنه ــ بعد هذا كله ــ ضرورة إنسانية وحتمية فطرية ؛ ولابد لـه من ميلاد . ولا بد للميلاد من مخاض . ولا بد للمخاض من آلام ! »[1]

ثم يؤكد المؤلف في نهاية المطاف في كتابه هذا ضرورة قيام المجتمع الاسلامي ولو أن ذلك يبدو لبعض المضبوعين بعيد المنال فيقول :

« ولكن كيف ؟ وهذا الواقع البشري الضخم يواجه الاسلام ؟

على الذين يسألون هذا السؤال أن يتذكروا كيف وقع هذا الأمر أول مرة ؟!

---

(١) الاسلام ومشكلات الحضارة ١٨٠ وما بعد .

لقد وقف رجل واحد يواجه البشرية كلها بمنهج الله ، ويقول لها ـ كما أمر ـ أنها في جاهلية ، وأن الهدى هدى الله ..

ثم تحول التاريخ .. تحول حين استقرت هذه الحقيقة الهائلة في قلب ذلك الرجل الواحد . تحول على النحو الذي يعرفه الأصدقاء والأعداء !

هذه الحقيقة التي استقرت في قلب ذلك الرجل الواحد ، ما تزال قائمة قيام السنن الكونية الكبرى .. وهذه البشرية الضالة قائمة كذلك وقد عادت الى جاهليتها !

وهذا هو الأمر في اختصار وإجمال ..

توجد نقطة البدء . نقطة استقرار هذه الحقيقة في قلب .. في عدة قلوب .. في قلوب العصبة المؤمنة .. ثم تمضي القافلة في الطريق .. في الطريق الطويل . الشائك .. الغريب اليوم على البشرية غربته يوم جاءها الهدى أول مرة ـ فيما عدا بعض الاستثناءات ـ ثم تصل القافلة في نهاية الطريق الطويل الشائك .. كما وصلت القافلة الأولى ..

لست أزعم أنها مسألة هينة ، ولا أنها معركة قصيرة .. ولكنها مضمونة النتيجة .. كل شيء يؤيدها .. كل شيء حقيقي وفطري ، في طبيعة الكون ، وفي طبيعة الإنسان .. ويعارضها ركام كثير ، ويقف في طريقها واقع بشري ضخم ، ولكنه غثاء ! ضخم نعم .. ولكنه غثاء !

« والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

معالم في الطريق

أتاح السجن للشهيد أن يكتب كتاب « معالم الطريق » وأن يضع أفكاره التي وصل إلى قناعة بها بين دفتي هذا الكتاب الذي سنعرضه هنا درساً ومناقشة . تتناول مانراه مخالفاً للصواب أو مانرى أن البعض قد فهمه خطأ وراح يبشر بذلك الفهم الخاطىء والتصور المرفوض !

وقد عرض الشهيد بعد خروجه من السجن كتابه ذلك على الاستــاذ حسن الهضيبي المرشد العام للاخوان المسلمين ؛ ليكون الكتاب معتمداً تتدارسه الجماعة في صفوف أبنائها ، فأقره المرشد وقال له :

لماذا لاننشر الكتاب ليطلع عليه الاخوان ويتداولوه فيما بينهم !!

وقد نفّذ الشهيد الأمر فطبع الكتاب في شهر رجب ١٣٨٤ هـ الموافق شهر كانون الثاني (يناير) عــام ١٩٦٤ م • ونشره بين الناس •• ثم كان من قدر الله ما كان ، وسجن المؤلف وافتري عليه •• وكان من أسباب قتله كما قال الجلادون•• أفكاره في كتاب المعالم ••

وأحب هنا أن أخص هذا الكتاب بشيء من التفصيل سواء هنا في هذه العجالة أو عند حديثي عن « آراء الشهيد وأفكاره بين التنزيه المتشنج والتجني المقصود » لأن كتابه هذا اعتبر يومئذ بحق كتاب الساعة بين آلاف الكتب التي أصدرتها دور النشر وقدمتها المطابع في العصر الحديث •

لقد كتب لأستاذنا أن يرتاد السجون مدة خمسة عشر عاماً لايغادرها إلا لمحكمة ظالمة ، أو مستشفى فيه جانب من الرعاية ضئيل وبصيص من نور الأمــل بالرحمة الانسانية •

وقد جاء كتاب « المعالم » ـــ وهو آخر ما كتب الشهيد ـــ قواعد أساسية للفكر الاسلامي والتنظيم الواعي الذي لابد أن يقوم على الفهم العميق للعقيدة الاسلامية والادراك الواعي لمشكلات الأمة الاسلامية وطريقة معالجتها بالاسلام دون سواه •

كما ركز الكتاب على ضرورة الفصل بين المجتمع الاسلامي المنشود كما قام في العصر الاسلامي الأول وبين المجتمعات الجاهلية التي تحيط به مــن كل جانب أو تتربص به في قسوة لاترق وضراوة لاترحم ؛ أفراداً وبيئات وجماعات !

ولقد كان الشهيد صريحاً إلى أبعد حدود الصراحة وهو يدعو إلى تربية جيل قرآني فريد كالجيل القرآني الأول ، وبعدم مهادنة الباطل كيفما كانت صوره ليقوم مجتمع إسلامي نظيف تنبثق منه الحكومة الاسلامية العادلة •

واعتبر الطغاة في مصرعند صدور الكتاب أن معنى ذلك تحريض على الاوضاع القائمة في كل البلاد العربية • وقد استعدَوا على الشهيد واخوانه كل الحكام الذين تناسوا المؤامرات الدنيئة التي يدبرهـا زبانية القاهرة آنذاك ؛ لاضد الاقطـاع والرأسمالية والاستعمار ــ كما يبدو من عناوين المعركة عبر الإعلام المتآمر المأجور ــ ولكن ضد كل ماهو اسلامي يحمل في ثناياه الخير والحق والفضيلة •

ويعتبر كتاب « المعالم » من أوعى وأدق وأخطر ما كتب الاستاذ سيد قطب في العقيدة والفكر والتنظيم والبناء ، ولكنه كتب بصورة تحتاج إلى كثير من الوعي وشديد من الانتباه وعميق من التدبر ؛ لئلا يفهم على غـير ما قصد أو يدرك على غير ما أراد •

إن أبرز ما يحمله الكتاب بين دفتيه التركيز على أن البشرية باتت بحاجة إلى قيادة جديدة رشيدة بعد أن أفلست قيادات الشرق والغرب معاً ، وراحتا تدفعان العالم نحو الدمار في أبشع صورة من صور الصراع السياسي والتسلح العسكري والانهيار الاقتصادي •

وهو إذ يبين هذا بوضوح وموضوعية يشير بثقة إلى أنّ البشرية لن تسعد إلا بما سعدت به من قبل : قيادة إيمانية منبثقة من الجيل القرآني الأول الذي كان يحيا لله ويسعد الخلق في تفانٍ وتضحية وإيثار وفق منهاج قرآني رباني قويم •

ويلح الشهيد في ثقة بالغة عبر تجارب السنين وحكم الاسلام الحاني؛ أن الاسلام ليس لشعب دون شعب ولا فريق من الناس دون فريق ، ولكنه شريعة كونية تنتظم كل شؤون الحياة ومشكلات البشرية ، تقودها كلمـا ادلهم الخطب الى شاطىء السلامــة •

ويبرز الشهيد في الكتاب خصائص المجتمع الاسلامي فيبين أن الحاكمية فيه لله وحده ، وأن آصرة الناس التي تربطهم فيه بعضهم ببعض ليست سوى العقيدة الايمانية الخالصة التي تتلاشى أمامها كل الأواصر ، وتندكّ أمامها كل الروابط ، وتزول مالم تنسجم مع هذه الآصرة ، وتذوب في إطارها الحميم الودود •

ثم يناقش مفهوم « لا إله إلا الله » •• ويؤكد على أنها القاعدة الكبرى أو الأساس الأعظم الذي يقوم عليه بناء المجتمع الاسلامي أفراداً وأسراً ودولة ، بل عقيدة وسلوكاً ونظام حياة ، وأن هذا الأساس الأمتن والأقوم ليس مجرد شعار يعلن ولا نداء يطلق ، ولكنه مدرسة حركية وتنظيم واعٍ للسكون والحركة والأخذ والعطاء في حياة المسلمين ليكون لهم وجود ويقوم لهم كيان ، وإلا فإن مجرد إطلاق الشعار بلا تحقيق لمضمونه أشبه بالعملة الزائفة التي لاتفيد صاحبها في سوق ولا تعود عليه بالمنفعة في تجارة •

والتجارة مع الله رابحة والتعامل مع الله مأمونة عواقبه ، على أن يكون الصدق وصفاء العقيدة وحسن النية وشرف الغاية هي الأجواء التي تحيط بذلك التعامل الذي يعلن شعاره « لا إله إلا الله » نبضات في القلوب قبل أن يكون كلمات على الألسنة !!

وكما بدأ الشهيد كتابه بفصل « معالم في الطريق » حيث أبرز فيه حاجة البشرية إلى القيادة الجديدة الرشيدة ـ أنهى الكتاب بفصل « هذا هو الطريق » الذي رسم فيه بوضوح طريق الدعاة إلى الله الذين ينبثقون من الجيل القرآني الرائد ، وأن بلوغهم مركز القيادة والتوجيه لابد أن يسبقه تضحيات جسام مما يعانون على يد الطغاة والظالمين الذين يبغون علواً في الأرض وفساداً كبيراً • وهنا يعرض لهم المثل الحي الخالد في « آل ياسر » وموعدهم الجنة ، و « أصحاب الأخدود » الذين ما نقم منهم الكافرون إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد •••

خصائص العطاء الفكري ومميزاته

عند الشهيد سيد قطب

إذا كان لكل أديب مميزات ولكل مفكر خصائص تميز عطاءه عن غيره من الفكر والعطاء ، فإن لما قدمه الشهيد سيد قطب من المميزات والخصائص ما تجعل عطاءه وفكره مدرسة تقوم وحدها راسخة واثقة وسط دوامة الفكر المضطرب والعطاء المتردد المهزوز !!

ولقد تطرقتُ لجانب من ذلك عند الحديث عن « سيد قطب المفسر الملهم » الذي سيأتي ؛ بيدَ أني أستبق الحديث عنه بشيء من التوسع والتفريع يتناول شتى جوانب العطاء في مختلف الميادين :

١ ـ الغزارة :

لايكاد يخطر ببال المفكر المسلم موضوع أو تومض في ذهن صاحب القلم فكرة ينوي تناولها ؛ إلا ويفاجأ بأن الشهيد قد طرقها وتعرض لها بوضوح وتفصيل يندر أن يسبق إليه أو يتفوق في بحثها عليه •

إن عطاءه الفكري الذي قدمه عبر « في ظـلال القرآن » وفي عدد آخر من الكتب ؛ يشكل موسوعة ثقافة إسلامية وفكر قرآني ثَرٍّ لم يبلغه أحد من رجـال الفكر الاسلامي المعاصر مهمـا غزر عطاؤه وتعددت مصنفاته ؛ مما يؤكد أن لقلم الداعية الشهيد غزارة في العطاء لاتطاوَل وزخماً فكرياً لايبلغ مداه •

٢ ـ الشمـول :

وقــد تطرق لــه السيد محمد علي قطب في كتابــه « سيد قطب أو ثــورة الفكر الاسلامي » وتناول (الكلية) في فهم الاسلام لدى الشهيد •• وأحب هنـا أن أفرق بين شمول الفكر والفهم وشمول المعالجة والعطاء لدى الداعية الشهيد •

لقد سبق الامام حسنُ البنا سيدَ قطب في مفهوم التكامل الاسلامي واعتبار الاسلام نظاماً شاملاً يعالج كل شؤون الحياة ، وهي فكرة تعدّ أساساً في رأي كل داعية تتلمذ على هذا المنهاج في الحركة الاسلامية المعاصرة :

« وإنما أريد بالفهم أن تؤمن بأن فكرتنا إسلامية صميمة ، وأن تفهم الاسلام كما نفهمه في حدود هذه الأصول العشرين الموجزة كل الإيجاز :

أولاً : الاسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً : فهو دولة ووطن ، أو حكومة وأمة ، وهو خلق وقوة ، أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة وقانون ، أو علم

وقضاء ، وهو مادة وثروة ، أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة ، أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء » [1] .

وأحسب أن سيد قطب قد تأثر بهذا المفهوم عبر صلته بجماعة الاخوان المسلمين إعجاباً فتعرفاً عليهم وانتماءً إليهم ، وقد بنى عليه فيما بعد فكرهُ الذي آمن به وعطاءه الذي قدم . لكنه لم يكتفِ بهذه الفكرة العامة من الشمول والتكامل وإنما قدم وأعطى بعمق وتفصيل وإبداع ؛ بحيث استغرق جميع الجوانب الفكرية في الاسلام ، مما صنع للحركة منهاجاً وللجيل المسلم مدرسة واضحة المعالم بينة السِّمات .

٣ ـ الايمان بالفكرة والصدق في التعبير عنها :

ليس أروع من صاحب فكرة يؤمن بها ، ولا أصدق في التعبير عنها ممن يكتبها بدمه ويغذيها بقطع من كبده أو دفقات من فؤاده زكية نقية .

ولئن قيل وطرح من الشعارات ما يتناول : الأدب للأدب أو الأدب للحياة ؟ . والفن للفن أو الفن للحياة ؟ . فإن سيد قطب ما حمل الفكر للفكر بل الفكر للحياتين : سعادة في الدنيا طريقاً مستقيماً وجسراً عامراً ومزرعة خصبة خضراء تؤدي بالانسانية كلها إلى سعادة الآخرة ونعيم مقيم ورضوان من الله أكبر .

ولقد كان الشهيد واثقاً من سلامة عقيدته وصحة فكره وصواب رأيه ، صادقاً في التعبير عن ذلك كله صدقاً أغر أبلج أدى به إلى ساح الاستشهاد ، وغيره من من أصحاب الأقلام والأفكار والعقائد الزائفة يرتعون كالقطعان في مزارع السلطان!

٤ ـ العمق :

ويرجع العمق لديه عليه الرحمة إلى الجَلَد في بحثه ومطالعاته ، والمعاناة الحياتية التي مر بها عبر ما قدَّم وأعطى .. ومن هنا فهو يغوص على المعاني والأفكار والمفاهيم بحيث تجيء في مستوى بعيد كل البعد عن زبد السطح وغثاء الحياة .

---

(١) من رسالة التعاليم للامام الشهيد حسن البنا .

ومن هنا فهو يعطي خلاصة التجارب وخلاصة الدراسة والبحث وخلاصة أعمال العقل المؤمن والقلب المشرق بنور الله ، فكراً نيراً وعطاء خيراً لايبغي به إلا رضوان الله وسعادة الانسان .

٥ ــ الخلود والمستقبلية :

إن سيد قطب لايرى في الاسلام خلوداً متحفياً كالذي يراه علماء الآثار في الأهرامات وأبي الهول ، ولا يعده تراثاً عريقاً فحسب يجمد في زوايا المتاحف ودور الآثار ، ولكنه في الوقت الذي يدعو فيه « المنهزمون » لهجر الماضي واعتبار التراث مجرد تركة شعبية ورثهـا الخلف عن السلف ، يرى أن « المستقبل لهذا الدين » ويؤمن أن خلود العقيدة الاسلامية والفكر القرآني خلود يجعلهما جديرين بالتطبيق في واقع الحياة لانقاذ البشرية مما تتردى فيه من تهلكة وذلة وهوان .

٦ ــ الاسلام هو الحضـارة :

إن سيد قطب في نظرته العميقة الشاملة للاسلام جعلته يرفض الرأي القائل إن الاسلام مقوّم من مقومات الحضارة أو أنه أساس من أسسها الهامة ــ لأنه يرى أن الاسلام هو الحضارة نفسها ؛ فالصناعة والعلم والأدب والفن والجهـاد والتربية والأخلاق وآداب السلوك وما إلى ذلك كلها ميادين متعددة ينتظمها إطار الاسلام الكبير الذي يرفض التجزئة ويأبى التفاريق ، والاسلام الذي هو روح الحضارة يحث على ذلك كله ويدعو له ولا يقبل بحال أن يؤخذ بجزء منه وأن يتخلى عن جزء آخر .. إن الاسلام هو الحضارة .. والحضارة الحقّة العفّة النظيفة التي تدعو للإيمان والعلم والحياة الانسانية الرفيعة والتربية السوية هي الاسلام .

٧ ــ التفريق بين الاسلام والكهنوت :

لقد ركّز الشهيد ودعـا إلى ضرورة التركيز على التفريق بوضوح بين روح الكهنوت المتجمد المتزمت وروح الاسلام الحي المتحرك المعطاء ودعـا إلى رفض التوفيق بينهما ولو جمعتهما كلمة « دين » .. ذلك أن الاسلام دين الحياتين وعقيدة الدارين : يعمـل المؤمن في دنياه بكل جد ومثابرة ليبلغ آخرته في طمأنينة وهناءة

ورضى ، وهــو دين يصلح للحقل والميدان والسوق والمصنع والمدرسة والبيت ، وهذه كلها تقوم في أفياء المسجد أو تكون مساجد حيثما طاب للمسلم أن يلقى ربه في لحظات من الطاعة الوادعة والعبادة الخاشعة .. أمــا تقوقع الدين في هيكل أو صومعة على صورة قربان يتناول أو ترنيمة تتردد فهذا ما رضي به المجتمع الاوروبي الآثم الغارق في انحراف السلوك وازدواج الشخصية !

٨ ــ الدعوة إلى « استئناف الحياة الاسلامية » :

هــذه الميزة بلفظهــا ومعناها خاصية من خصائص فكر الشهيد وميزة من ميزات عطائه ، وقد ورد هذا التعبير حسب مــا أعلم لأول مرة في أبحــاث الفكر الاسلامي المعاصر في كتابه « العدالة الاجتماعية في الاسلام » ..

وإذا كان بعض المصلحين المعاصرين من المسلمين قد دعــوا إلى العودة إلى الاسلام فقد جاءت دعوتهم تلك عامة غير واضحة الصورة ولا محددة الإطار ، أما دعوة الشهيد فقد جاءت واضحة المعالم في صورة نظام حكم عادل ومنهــاج حياة قويم .

وحديث الشهيد لايكاد ينقطع حتى يستأنف من جديد حول ضرورة استئناف الحياة الاسلامية بكل معطياتها إسعاداً للانسان وارضاء للرحمن .

٩ ــ العرض الايجابي .. في غير دفاع ولا اتهام :

يؤكد الشهيد ــ حتى في بداية مرحلة عطائه الاسلامي ــ أن الاسلام لايجوز أن يكون في موضع الاتهام ، وأن ذوي الفكر والعطاء من أبنائه لايجوز أن يقفوا موقف الدفاع عنه ــ بل لابد أن يقدم الاسلام لأبنائه أولاً ثم للناس كافة ؛ في صورة إيجابية مشرقة ، وأن يعرض باعتباره الخلاص للانسانية والخروج من الهاوية التي تردت فيها ؛ لا باعتباره نظاماً متهماً يحاول أصحابه الدفاع عنه لتبرئته من كل نقيصة واتهام . وسنتناول هذه الخاصية بالتفصيل عند الحديث عن المآخذ والعثرات كما يراها البعض في فكر الشهيد أو منهاجه في التطبيق .

١٠ ـ كشف زيف الحضارة المادية :

أبرز الشهيد فيما قدم من فكر صورة دقيقة عن فشل الحضارة الغربية المادية ، وأكثر من عرض المشاهد والآراء التي تؤكد فشل تلك الحضارة على لسان عدد من العلماء والمصلحين في الغرب ، وحذر الجيل المسلم ألا يقع في الشرك البراق • ودعا إلى اعتماد الحضارة الاسلامية من جديد لأنها أساس سعادة الانسان الذي عاش الرخاء والهناء والمحبة والطمأنينة في ظلالها ، وعاش الشقاء والكراهية والقلق في دوامة الحضارة الغربية المتفسخة المهزومة •

١١ ـ تميز الاسلام وتفرده :

كثيرون أولئك الذين وقعوا في الخلط بين الفكر الاسلامي وبعض الجوانب التي تبدو إيجابية في بعض تيارات الفكر المعاصر ؛ حتى شاع الخلط بين الاسلام والديمقراطية والاسلام والاشتراكية والاسلام والرأسمالية •• وما إلى ذلك من عناوين وآراء !

أما الشهيد فقد أصرّ على تميز الاسلام وتفرده •• فالاسلام إسلام ولو بدا للمطلع لأول وهلة أن بينه وبين بعض المذاهب جوانب من الانسجام والوفاق واللقاء بينة ظاهرة •

إن الاسلام أسبق منها جميعاً وأوفى ، وهو أولى بالاتباع والتطبيق باعتباره نظاماً ربانياً متميزاً متفرداً لايقلد غيره في ظلالة ولا يقتات من فتات الفكر أو فضلات الحضارة ؛ مع ترك المجال للعقل البشري أن يجتهد وأن يدلي بالرأي الذي لايحل الحرام أو يحرم الحلال •

١٢ ـ الاشراق والعذوبة :

كم يثير عجبي فريقان من الناس يتجنيان :

الفريق الذي يريدك أن تنسى سيداً أديباً ؛ وسيد الأديب معك في كل سطر من سطور « الظلال » وكل فكرة من أفكار « المعالم » وغيرها ••• وهؤلاء الناس يتجنون على « سيد » عبر حبهم له كما يتصورون إذ يحاولون طمس ميزة من أروع الميزات التي عرف بها عطاء الرجل وبه تفرد •••

والفريق الذي يزعم أن سيد قطب أديب فحسب وليس بصاحب دعوة ولامنهاج ولا عطاء فكري غزير .. وهؤلاء يتجنون على « سيد » حسداً أو جهالة ، وإن مثل ذلك لايمكن أن يشوه وجه الحقيقة أو أن يحول دون طلـوع الفجر مهما ادلهمّ ليل الظلمـات !..

إن الحقيقة التي يعرفها المنصفون أن الشهيد قد اتخذ من الأدب وعـاء أفرغ فيه الفكر وقالباً صاغ به الرأي والعطاء ، وكأني به ــ يرحمه الله ــ وهـو يقدّم معطياته الأولى قد تأثر بمن سبقه من رجـال القلم ، فجمع بين عمق العقـاد وروح الرافعي وإشراقة طه حسين في سلاسة الأسلوب وعذوبة التناول .. حتى انتهى به المطاف إلى التميز والتفرد ليكون صاحب مدرسة أصيلة سامقة .

١٣ ــ القوة والتحدي :

إن قارىء سيد قطب يحس أنه أمام طراز جديد ونموذج فـذّ من العطـاء الفكري الثر والأسلوب الأدبي الرفيع ؛ يحس معه أن الرجل يتحدى كل ظلمات الباطل وأصنام الضلال .. إنه يكتب بقوة ويتكلم بقوة ويعرض الفكرة بقوة وكأنه ــ مع عذوبة الأسلوب ورقة العرض ــ يوجه الصفعة تلو الصفعة واللطمة إثر اللطمة في وجه الطاغوت على تعدد صوره واختلاف ألوانه .. إنه عطـاء الحق الذي يتحدى الباطل ويشمخ على الطاغوت .. يقدمه الشهيد عبر « أدب القوة » كما سماه المفكر المسلم محب الدين الخطيب يرحمه الله .

١٤ ــ بلوغ القلوب والأفهام لدى الخاصة والعامة :

من المعروف أن كتّـاب القصة مـن الأدبـاء أو كتّاب الخواطر هم الذين يستطيعون الوصول إلى أفهام العامة من القراء وقلوبهم ، وذلك لبساطة الموضوع المطروق وسهولـة الأسلوب الـذي يكتب بـه . أما أن يحقق كاتب رفيـع الأسلوب عميق الفكر مثل هذا الهدف في دنيا الفكر والرأي ؛ فهذا مالايتوفر إلاّ لعدد قليل من أصحاب الأقلام وعلى رأسهم الشهيد سيد قطب ، حيث يتناول كثيراً

من المسائل الهامة والموضوعات العميقة ذات العـلاقة بالعقيده والسلوك والأنظمة العديدة ، فيعرضها عرضاً سهلاً ميسراً لكنه ممتنع يستطيع به أن ينال رضى العامة وإعجاب الخاصة على حد سواء .

١٥ ـ طموح الأمة وآمال المستضعفين :

يمثل الشهيد فيما قدم من عطاء طموح الأمة المسلمة في استئناف حياة إسلامية جديدة وتطبيق شرع الله في الأرض ، كما يمثل آمال المستضعفين مـن أبنائها في تحقيق عزة المؤمنين وتوفير العيش الكريم لهم في غير ذلة ولا هوان .

كان الشهيد عليه الرحمة المثـل الحي الكريم فيما قدم وأعطى حيث روى بدمه الزكي وغذّى بروحه الطاهرة كل حرف كتبه وكل كلمة قالهـا ، فأنبتت في نفوس أبناء الجيل المؤمن الجديد صفاء عقيدة وصدق يقين .

١٦ ـ صاحب مدرسة متفردة فكراً واسلوباً :

لقد صار الشهيد فيما قدّم من عطـاء وما امتاز به من ملامح وآثار صاحب مدرسة فكرية أدبية متفردة لا يكاد يختلط بها أو يشبهها مدرسة أخرى في الفكر والاسلوب، ويستطيع القارىء أن يلمس ذلك عند قراءة أي موضوع من الموضوعات أو بحث من الأبحاث التي أثرى بها الشهيد مكتبة العربية والفكر الاسلامي المعاصر.

١٧ ـ رائد حركة وداعية تنظيم :

وتيجة لذلك أقبل الشباب على فكر الشهيد يتخذونه منهاجاً ويعدونه إطاراً لحركة رائدة تدعو لاستئناف الحياة الاسلامية من جديد ، بحيث يوجـد بينهم المنهاج في حركة وينتظمهم الاطار في تنظيم وإن بعدت بهم الشقة ونأت بهم الديار .

١٨ ـ الاقبال على عطائه بظمإٍ ورغبة وشوق :

لقد قام لقاء غريب عجيب بين دور النشر التجارية والملتزمة على حد سواء حين راحت تطبع كتب الشهيد وتنشر عطاءه ، حتى إن عدداً منها تجاوز حدود الأمانة العلمية فأغفل تاريخ تأليف كل كتاب وكل طبعة حتى تبدو كل الكتب وكأنها ألفت حديثاً ليقبل عليها المعجبون بالشهيد وفكره المتميز المستنير .

١٩ ـ نقل عطائه وترجمته إلى لغات كثيرة لامم شتى :

ولم يقف الأمر عند حدود الديار الناطقة بالعربية بل تجاوزها إلى غيرها من ديار الاسلام وأقطار المعمورة ، فترجم عطاء الشهيد الى عدد من اللغات الشرقية والغربية على حد سواء مما لا نعرف معه كاتباً أو مفكراً عربياً بلغ هذا المستوى ، إذا استثنينا بعض كتّاب القصة التي تنقل صوراً شعبية وأسلوباً أدبياً لا فكراً عميقاً ومنهاج حياة متكامل •

وقد ترجم عطاء الشهيد كما نعلم إلى الفارسية والأردية والتركية والأندونيسية والأفغانية من اللغات الشرقية ، وإلى الانجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية من اللغات الغربية •

٢٠ ـ سعة الافق وبعد النظر :

المطّلع على ما بحثه الشهيد وما عرض له من شؤون السياسة العالمية والعلاقات الدولية يدرك سعة الأفق وبعد النظر الذي كان يعالج بهما الأمور ويعرض بهما القضايا •• وقد أشار إلى التقارب السوفييتي الأمريكي وحتمية وقوعه قبل أن يقع بربع قرن من الزمان أو يزيد ، كما أشار إلى أهداف السياسة الامريكية في ديارنا وموقفها من عدوان اليهود على فلسطين وكأنه يرسم لوحة عميقة الإيحاء صادقة الظلال دقيقة التعبير عما نراه اليوم ونسمعه • وقد عرضتُ لذلك وبينته عند الحديث عن « سيد قطب السياسي الواعي » الذي كان ينظر بنور المؤمن وبصيرة المسلم فلا يخطىء فيما يقدّر ولا يضل فيما يرى •

* * *

ومن الخير والتكامل ونحن نقدم هذه الدراسة التي تناولنا فيها جانباً من عطاء المفكر الاسلامي الرائد ، أن نقدم بحثاً وافياً عن « سيد قطب السياسي الواعي » ، الذي عرّى زيف الاشتراكية والرأسمالية معاً في معسكريهما الشرقي والغربي على حد سواء ، ودعا الشباب المسلم إلى ضرورة التمسك بإيمانه والعمل على احترام ذاته وكرامته ووجوده ، لئلا يكون أحد القطيعين اللذين يسيران في ركاب التبعية الذليلة للدولتين العظميين أو المبدأين المستوردين من الشرق أو الغرب •

★ ★ ★

سيد قطب

السياسي الواعي

صداقة شخصية ، ثم طلب منه أن يغادر مصر في صورة بعثة الى الولايات المتحدة لدراسة النظم التعليمية فيها لمدة عامين .. وكان الهدف من وراء ذلك إبعاده عن الكتابة والاعتقال معاً ! ..

وتردد الشهيد عاماً كاملاً قبل أن يقبل مثل ذلك العرض ، ثم عاد فرضي به ، بحثاً عن مزيد من الاطلاع ومزيد من الدراسة ، والتوثق مما يريد أن يكتبه ويصل إليه وهو يناقش في شتى البلاد ومختلف الديار الأنظمة التعليمية والفكر الحضاري والمنطلقات السياسية .. وكان أن حل الرجل دارساً في جامعة « » بولاية كولورادو . وفي الولايات المتحدة الأمريكية ازداد تعلق الرجل بالاسلام ، وازداد إعجابه به لما رأى من مهزلة الحياة الاجتماعية والهبوط الأخلاقي والتمييز العنصري ، ثم كانت الحادثة الرهيبة العجيبة التي وجهت تفكيره ورسخت عقيدته أن يكون عضواً في جماعة الاخوان المسلمين ، وألاّ يكتفي بأن يكون كاتباً إسلامياً فحسب بل جندياً في كتيبة الاسلام وهو يخوض معركة المصير مع الكفر في مختلف صوره وشتى ألوانه !

لاحظ الكاتب المسلم وهو على سرير المرض في أحد المستشفيات الأمريكية بهجة وسروراً يغمران من حوله من الممرضات والمرضى ، فظنّ الرجل أن القوم في عيد ، غير أنه ذهل حين سألهم عن سبب بهجتهم تلك ، وكانت الإجابة الحاقدة الوقحة :

لقد تخلصنا من عدو الغرب الأول في ديار الشرق .. لقد قتل حسن البنا !

* * *

لقد كان من أسباب استشهاد سيد قطب التي عجّلت بموت جسده لافكره الذي يبقى ولا إيمانه الذي يخلد على مدى الأجيال ــ التحليل السياسي العميق الذي تناول عبره سياسة الشرق والغرب معاً وكشف به عيوب السياسة الاستعمارية وألاعيبها وأهواء عبيد المال وتجار الحروب .

وكان رد الكاتب الشاب سيد قطب عنيفاً يقول فيه :

« يا صاحب اليد الحديدية .. إنك لو بحثت عن يدك الحديدية تلك لوجدتها قد صدئت واهترأت » !

فغضب رئيس الوزراء لقسوة الكلمة وطلب أن يقابل كاتب الكلمة ليتفاهم معه شخصياً ، فذهب سيد إليه ودخل مكتبه فبهت الرئيس المصري يومئذ لما رأى من حداثة سنه فقال له :

ــ أنت الذي كتبت هذه المقالة ؟

قال سيد : نعم .

فقال الرئيس : لماذا كتبتها بهذه اللهجة العنيفة ؟

قال الكاتب الشاب : هذا ما أومن به !

فما كان من رئيس الحكومة إلا أن قال له : اذهب يا بني واكتب كما تشاء !!!

وفيما كان الكاتب الشاب يعالج من زاوية فنية أدبية محضة موضوع « التصوير الفني في القرآن » تنبه بذكاء إلى شمول الدعوة الاسلامية وتكامل الفكر الاسلامي الذي بدأ يلمح فيه سيد أنه الحل الوحيد لمشكلات البشرية، وأنه لاخلاص لمصر وغيرها مما تعانيه إلا بالاسلام . وكان الصراع في مصر يومئذ يقوم على قدم وساق بين المسلمين من جهة ممثلين في « جماعة الاخوان المسلمين » ومن يؤيدهم وبين الحركات اليسارية المتعددة التي يوجهها الحزب الشيوعي المصري الذي كان لليهود دور كبير في إنشائه .

وراح الرجل يكتب ويكتب في عدد من المجلات والصحف التي منها : العالم العربي ، والرسالة ، والمصري ، وأخبار اليوم ، والاخوان المسلمون ، ومصر الفتاة ، والعهد الجديد ، والدعوة ، والنور المحمدي ، ونور الاسلام ــ فأقلقت مقالاته الدولة وأقضت مضاجع الطغاة فأمر الملك فاروق باعتقاله ليحال بينه وبين الكتابة ، غير أن رئيس الوزراء[1] يومئذ نصح بعدم اعتقاله وكانت تربطه بالكاتب الشاب

---

(1) من المفارقات ان يكون رئيس الوزراء هذا هو محمود فهمي النقراشي .

صداقة شخصية ، ثم طلب منه أن يغادر مصر في صورة بعثة الى الولايات المتحدة لدراسة النظم التعليمية فيها لمدة عامين •• وكان الهدف من وراء ذلك إبعاده عن الكتابة والاعتقال معاً ! ••

وتردد الشهيد عاماً كاملاً قبل أن يقبل مثل ذلك العرض ، ثم عاد فرضي به ، بحثاً عن مزيد من الاطلاع ومزيد من الدراسة ، والتوثق مما يريد أن يكتبه ويصل إليه وهو يناقش في شتى البلاد ومختلف الديار الأنظمة التعليمية والفكر الحضاري والمنطلقات السياسية •• وكان أن حل الرجل دارساً في جامعة «   » بولاية كولورادو • وفي الولايات المتحدة الأمريكية ازداد تعلق الرجل بالاسلام ، وازداد إعجابه به لما رأى من مهزلة الحياة الاجتماعية والهبوط الأخلاقي والتمييز العنصري ، ثم كانت الحادثة الرهيبة العجيبة التي وجهت تفكيره ورسخت عقيدته أن يكون عضواً في جماعة الاخوان المسلمين ، وألا يكتفي بأن يكون كاتباً إسلامياً فحسب بل جندياً في كتيبة الاسلام وهو يخوض معركة المصير مع الكفر في مختلف صوره وشتى ألوانه !

لاحظ الكاتب المسلم وهو على سرير المرض في أحد المستشفيات الأمريكية بهجة وسروراً يغمران من حوله من الممرضات والمرضى ، فظن الرجل أن القوم في عيد ، غير أنه ذهل حين سألهم عن سبب بهجتهم تلك ، وكانت الإجابة الحاقدة الوقحة :

لقد تخلصنا من عدو الغرب الأول في ديار الشرق . . لقد قتل حسن البنا !

* * *

لقد كان من أسباب استشهاد سيد قطب التي عجّلت بموت جسده لافكره الذي يبقى ولا إيمانه الذي يخلد على مدى الأجيال ـ التحليل السياسي العميق الذي تناول عبره سياسة الشرق والغرب معاً وكشف به عيوب السياسة الاستعمارية وألاعيبها وأهواء عبيد المال وتجار الحروب •

ولقد كان الشهيد واضحاً جريئاً فيما قدم من تحليل وتناول من كشف خطط ؛ بحيث سلط الأضواء على السياسة الامريكية الجديدة المتسترة برداء المعونـات للدول النامية ، والسياسة السوفيتية المتلفعة بمسوح الحرص على الطبقة العاملة ومصلحة الكادحين •

وراح يعرّي هذه وتلك بصورة واعية مدروسة وموضوعية مؤثرة •

ولم يقف عند حد كشف جرائم الاستعمار البريطاني المهترىء في كل بقعة من ديار الاسلام كما فعل الكثيرون ممن طاردوا النفوذ البريطاني في المنطقة بتخطيط من التوجيه الأمريكي ودعم من نفوذ الدولار !

لقد تناول الرجل السياسة الأمريكية الجديدة بالتحليل، وعراها من كل زخرف، حتى بدت بشاعتها القائمة على أسوأ أنواع الاستعلاء والظلم والتسلط عبر الفكر المسموم والعهر الفاضح والاقتصاد الربوي المستغل ، وكشف كثيراً من المشاريع الأمريكية في المنطقة وبيـّن ارتباط هذه المشاريع بتجار الحروب وبالرغبة الامريكية الملحة في فتح أسواق لتسويق بضائعها واستهلاك منتجاتها :

« إن أمريكا تريد أن تحارب ، ولو طاوعتها أوروبا لما صبرت عن الحرب حتى حادث كوريا ، فلقد كانت تريدها حرباً كاملة منذ أزمة برلين المعروفة(١) ، ولكن أوروبا المحطمة كانت أعجز من أن تلبي رغبة أمريكا الملحة وهي ماتزال تلعق جراحها، وتعالج مآسيها ، فضلاً عن أن للشيوعية فيها قوى مذخورة تتهيأ للحظة المنظورة ، وإغراء الدولار كان يملك أن يصنع كل شيء في أوروبا إلا أن يدفعها إلى حرب عالمية ثالثة •• ولهذا وحده صبرت أمريكا •

إن رؤوس الأموال الامريكية في حاجة ملحة إلى حرب جديدة • هذه هي المسألة • إن الفتوحات العلمية التي أسرعت خطاها في الحرب الماضية ، والتجارية

---

(١) وقد كانت تصر على حرب الهند الصينية ، وتدفع فرنسا إلى الاستمرار فيها ، وتشترك بحاملات الطائرات ، وتنذر بدخول القوات الأمريكية ، لولا ان فرنسا آثرت السلامة .

التي أفادتها الصناعة من تعبئة الموارد في أيــام هذه الحرب ؛ قد هيأت للصناعة الأمريكية فرصاً جديدة لمضاعفة الإنتاج ، في الوقت الذي أصبحت مسألة التصريف مسألة عسيرة .

ومع أن الاسواق كانت بعد الحرب خاوية، وفي حاجة ماسة إلى الإنتاج المدني، وخاوية من المنافسة الأوروبية ؛ إلا أن القدرة على الشــراء كانت ضعيفة وبخاصة في أوروبا المحطمة ، ومعنى هذا هو الكساد بالقياس إلى الانتاج الأمريكي ، ومعنى الكساد هو الخسارة المؤكدة لرؤوس الأموال الأمريكية ..

ومن هنا كان « مشروع مارشال » وكانت لهذا المشروع غايات أساسية ثلاث :

الغاية الأولى :

كانت هي تصريف الإنتاج الامريكي الفائض دون أن تدفع الدول المنتفعة به ثمنــه نقداً بالدولار الأمريكي ، فقد كانت الحكومة الأمريكية تفتح الاعتمادات للدول الأوروبية لتنفقها هذه الدول في شراء الإنتاج الأمريكي في الغالب .

وحقيقة أن رؤوس الاموال الامريكية كانت تتحمل ضرائب عالية لتمكين الحكومة من تنفيذ مشروع مارشال ، ولكنها مع هذه الضرائب العالية كانت تحقق ربحاً لا شك فيه بتنفيذ المشروع وتتقي الخسارة التي تنشأ من الكساد !

والغاية الثانية :

كانت هي اتقاء حالة التبطل بين عمال أمريكا وما يتبع التبطل من هــزات اجتماعية بعد وقف الإنتاج الحربي الذي كان يستغرق هذه الأيدي العاملة ، وكان هذا يقتضي إيجاد مصرف للإنتاج المدني يسمح بتشغيل المصانع إلى الحد الأقصى ، فكان مشروع مارشال وتغذية دول أوروبا بالآلات هو الوسيلة لتحقيق هذا الهدف الذي ينطوي بدوره على تحقيق نوع من الربح لرؤوس الأموال الأمريكية !

والغاية الثالثة :

كانت هي تعمير أوروبا ، وإعادة سير الحياة فيها ــ وبخاصة حياة العمل ــ

تحقيقاً للنشاط الاقتصادي العلمي من ناحية ، ومقاومة للشيوعية في أوساط المتعطلين من ناحية أخرى ... وكان مشروع مارشال يعاون على تحقيق هـذه الغاية .

ومن هنا يعد « مارشال » صاحب هذا المشروع ـ في نظـر الأمريكان ـ أحـد رجال التاريخ الأمريكيين ، وقد عدته مجلة (لوك) أحد « العشرين الذين صاغوا القرن العشرين لا في أمريكا وحدها بل في العالم على الإطلاق »[1] .

وهذا الكلام جزء من فصل كامل تحت عنوان « والآن ... » من كتـاب « السلام العالمي والاسلام » نقلناه مقتضباً لنشير إلى شيء مما ذكرنا من الوعي السياسي البعيد المدى ، في الوقت الذي نحيل فيه القارىء الى الفصل كله ليطلع على ما ورد وما فصّل بين ثناياه ، فيعرف أي إنسان هذا الذي كان يرى بنور الله ..

على أننا ننبه إلى أن خطورة هذا التحليل وشموله وعمقه دعت الدوائـر الاستعمارية إلى حذف الفصل كله من الطبعات التي تلت بعد عام ١٩٥٤ .. فمن أراده فليرجع إليه في الطبعة الأولى أو الثانية .. وكانت الأولى قد صدرت عـام ١٩٥١م قبل قيام الثورة المصرية وعلاقات الضباط الاحرار بالسفير الامريكي مستر جفرسون كافري الذي كان على علم بما يدور في أوساط الجيش من تدابير للوصول إلى كراسي الحكم[2] .

ويتعرض سيد قطب في الفصل نفسه لما عرفناه اليوم باسم أزمة النقد الدولية بين الدول الصناعية الكبرى فيقول :

« ولكن مشروع مارشال لم يكن يمكن امتداده إلى الأبد ، فطبائع الأشياء تقتضي وقوفه عند حد معين عندما تصل الأسواق الأوروبية إلى درجة التشبع من

---

(١) ص ١٥٨ ـ ١٦٠ من كتـاب السلام العالمي والاسلام ـ الطبعـة الثانية لسيد قطب .

(٢) من كتاب « يا ولدي هذا عمك جمال » لأنور السادات ص : ٩٥ طبع الدار القومية للطباعة والنشر وقد طبع في عهد الرئيس المصري جمال عبد الناصر .

جهة وعندما تصل أداة الانتاج الأوروبية إلى درجة الاكتمال من جهة أخرى • وقد استعادت أوروبا أوأوشكت أن تستعيد قدرتها الكاملة على الانتاج ، وعادت إلى الوقت الذي تصبح فيه مصدرة لا مستهلكة ومزاحمة للانتاج الامريكي لا في الأسواق الأوروبية وحدها بل كذلك في أسواق العالم الأخرى •

عند ذلك لعبت بريطانيا لعبتها الماكرة التي استغلت فيها سذاجة العقلية الامريكية وقلة خبرتها الدولية • تلك هي لعبة تخفيض قيمة الجنيه الاسترليني بالنسبة لقيمة الدولار • فلقد تركت أمريكا تقدم عليها تحقيقاً للقيمةالواقعيةللدولار في الاسواق لا القيمة الرسمية ، وتظاهرت بالذعر منها والاشفاق وهي تكتم عن حليفتها نية أخرى •• تلك النية التي لم تتبينها أمريكا إلا أخيراً !••

أما النتيجة فكانت هي اغلاق الاسواق في وجه البضائع الامريكية التي أصبحت أسعارها مرتفعة بالقياس إلى العملة في منطقة الاسترليني • أما في سواها فقد صارت أرخص بكثير من مثيلها الامريكاني !

وعندما تنبهت أمريكا أخيراً إلى هذه الخدعة ، أخذت ترد عليها باستنزاف الخامات في الاسواق العالمية ، ذلك كي ترفع سعر هذه الخامات في وجه الصناعة البريطانية ، وتجعلها أقل قدرة على المنافسة ، لأن ارتفاع ثمن الخامات يجبر الصناعة الانجليزية على رفع أسعار المنتجات ، وبذلك يقع شيء من التعادل بين الاسعار الاميركية والاسعار الانجليزية ، وقد ارتفع سعر خامات الصوف مثلا خمسمائة في المائة ، لان الصوف صناعة انجليزية رئيسية • وكذلك ارتفعت أسعار معظم الخامات التي تقوم على أساسها الصناعة البريطانية بتأثير هذه الخطة الامريكية التي جاءت رداً على الخدعة الانجليزية • وكان هذا سبباً رئيسياً في موجة الغلاء التي عمت العالم أخيراً ، بجانب الاسباب الطبيعية الناشئة من الاستعداد للحرب العالمية !

إلا أن هذا الاجراء الامريكي لم يكن ليزيد على أنه إجراء وقتي لمواجهة هجوم معين ، ولكن الحالة العامة فيالاسواق بالقياس إلى استقبال الانتاجالامريكي لم تتأثر تأثيراً يذكر • وقد صادف ذلك صدمة كاملة باكتساح الشيوعية لذلك

القسم الهام من أسواق العالم وهو الصين ، الصين ذات الخمسمائة مليون من السكان ، ربع سكان الأرض على وجه التقريب • وحقيقة أن الصين لم تكن سوقاً أمريكية رئيسية ، ولكن كان المرجو بعد هزيمة اليابان أن تصبح كذلك • فلما اكتسحتها الشيوعية أغلق هذا المنفذ وأحست رؤوس الأموال الامريكية بشيء من الاختناق ، كما أحست الدوائر الاجتماعية بالخطر من انتشار البطالة ، وقد بلغت الايدي المتعطلة قبيل الحرب الكورية نحو خمسة ملايين (نقصت إلى ثلاثة ملايين بعد انتهاء هذه الحرب) •

ومن هنا لم يكن بدٌ لأمريكا أن تحارب • وإذا كانت الحرب الكورية قد اجتذبت نحو مليونين من الأيدي المتعطلة ، فإنها لا تصلح وحدها علاجاً للموقف ، ولا بد من حرب شاملة تجتذب جميع الايدي العاملة من جهة وتضمن لرؤوس الاموال أرباحاً كاملة من جهة أخرى ، فالحرب بالقياس إلى أمريكا اليوم [1] هي ضرورة حياة قومية ، فضلاً على الرغبة القوية في وقف تيار الشيوعية العالمية بطبيعة الحال ، هذا التيار الزاحف الذي يغمر في كل يوم أرضاً جديدة ، ويقفل في كل يوم سوقاً جديدة •

وإذا كانت أوروبا تتلكأ في الاستجابة لأمريكا ، فتؤجل بهذا التلكؤ موعد نشوب الحرب المطلوبة ، فإنها لن تتلكأ طويلاً ، لأنها ستجد نفسها قريباً مدفوعة إلى الحرب بنفس الأسباب التي تدفع أمريكا • وفي اليوم الذي يبلغ الانتاج الأوروبي الرأسمالي ذروته ، سيواجه الموقف ذاته بالنسبة إلى الاسواق • وما دامت الشيوعية تزحف ــ وهي لابد أن تزحف ــ تملي لها تلك الاحوال الاجتماعية السيئة في معظم بلاد العالم، وفوارق الطبقات السحيقة التي تثير الحنق في الصدور ، ويغذيها ذلك الجشع الغبي الذي تتمسك به الرأسمالية والاقطاعية ، وبخاصة في مناطق الشرق •• وما دامت الشيوعية تزحف ، فهي تغلق في كل يوم سوقاً جديدة في وجه الانتاج

---

(١) ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في عام ١٩٥١م .

الرأسمالي في أوروبا أو أمريكا . وهنا تلتقي مصلحة رؤوس الاموال هنا وهناك في محاولة وقف هـذا التيار ، واسترداد الاسواق بقوة السلاح . أو على الاقـل بالاستهلاك الحربي ، واتناج الاسلحة والذخائر وأدوات الموت والدمار ، تلك التي تضمن للمصانع أن تعمل ، ولرؤوس الأموال أن تربح ، وللملايين أن تموت » ! [1].

ثم يبين الكاتب الواعي دور الكتلة الرأسمالية بقيادة أمريكا في محاولة اجتذاب شعوب الأرض إليها وزجها في أتون الحرب لاستغلال مواردها البشرية والاقتصادية معـاً :

« فأما الكتلة الرأسمالية بقيادة أمريكا فتستخدم عدة وسائل لهذه الغاية :

تستخدم أولاً عامل التخويف للرأسماليين في كل أنحاء العالم ، وبخاصة في العالم العربي الاقطاعي ، من الشيوعية التي تزحف يوماً بعد يوم ، وتناشدهم المصلحة المشتركة بين الاستعمار والرأسمالية، تلجأ في ذلك إلى المحالفة الطبيعية بين الرأسمالية المحلية والرأسمالية العالمية .

وتستخدم ثانياً الضغط السياسي والاقتصادي ، وأحياناً الضغط المسلح ، في البلاد الواقعة في ربقة الاستعمار المباشر وغير المباشر ، كما هو الشأن في مجموعة البلاد العربية .

وتستخدم ثالثاً إغراء الدولار تحت عنوانات كثيرة . منها ذلك العنوان الجديد الذي خلف مشـروع مارشال ، وهــو عنوان « المساعدات الاقتصادية » وعنوان « النقطة الرابعة » في مشروع ترومان !

وهي على العموم تخاطب الطبقات الحاكمة والمستغلة ، ولا تعتمد كثيراً على الجماهير ، لأن مصالح هــذه الطبقات معلقة بانتصار الكتلة الرأسمالية . وتبذل جهوداً جبارة في هذا السبيل ، وإن كانت لاتريد في الوقت ذاته أن تلقي بالاً إلى مطالب الشعوب القومية ، لفرط ثقتها بالطبقات الحاكمة والمستغلة ويقينها أن هذه الطبقات لن تعادي الاستعمار عــداءً حقيقياً في سبيل مطالب شعوبهـا القومية .

---

(١) ص ١٦٠ ـ ١٦٣ من كتاب السلام العالمي والاسلام .

وسيظل موقفها كذلك إلى أن تتولى هذه الشعوب قضاياها بأنفسها ، وتبرهن على أنها لاتستنيم لشعوذات المشعوذين من زعمائها وكبرائها ، وأنها معتزمة أن تسبب للاستعمار وللجبهة الرأسمالية متاعب حقيقية ، وتعرض مصالح هذه الجبهة وجيوشها لأخطار حقيقية في حالــة نشوب الحرب .. وعندئذ فقط قــد تفكر الرأسمالية الاستعمارية في الانصات لصيحات هذه الشعوب »[1] .

* * *

وفي الفصل الأخير من « العدالة الاجتماعية في الاسلام » يعلن سيد قطب منذ أكثر من ربع قرن من الزمــان ماقد تحقق اليوم من تقارب كان يبدو خيــالاً بين الكتلتين الرأسمالية والشيوعية فيقول :

« والآن فإلى أين نحن نسير ؟

يجب أن نقف لحظة لنسأل أنفسنا هذا السؤال ولنوجه حياتنا في الاتجاه الذي نريده.إن العالم بعد حربين متواليتين ينقسم اليوم إلى كتلتين كبيرتين : كتلة الشيوعية في الشرق ، وكتلة الرأسمالية في الغرب ، هذا مايبدو في ظــاهر الأمر ، وما تلوكه الألسن ، ويقر في الأذهان . فأما نحن فنعتقد أنه انقسام ظاهري لاحقيقي ، وأنــه انقسام على المصالح لاعلى المبادىء ، وأنه صراع على السلع والاسواق لاعلى العقائد والأفكار . فطبيعة التفكير الأوروبي الامريكي لاتفترق في حقيقتها عن طبيعة التفكير الروسي ؛ كلتاهما تقوم على تحكيم الفكرة المادية في الحياة . وإذا كانت روسيا والصين وما إليهما قد صارت شيوعية مادية فإن أوروبا وأمريكا لا تفترقان عنهما في التصور المادي للحياة والتاريخ !

فليس وراء التفكير المادي الذي يسود الغرب ، ويرد الأخلاق إلى المنفعة ، ويدعو إلى التناحر على الاسواق والمصالح .. ليس وراء هذا التفكير الذي ينفي العنصر الروحي من الحياة ، وينفي الايمان بغير المعمل والتجربة . ويحتقر المــثل العليا المجردة ، وينكر وجود حقائق للاشياء إلا وظيفتها ــ على نحو ماتصنع فلسفة البراجماتزم ــ ليس وراء هذا التفكير إلا المادية الماركسية في صورة أخرى !

---

(١) ص ١٦٣ ــ ١٦٤ من كتاب السلام العالمي والاسلام .

إنه لايوجد اختلاف في طبيعـة التفكير الامريكي والروسي ، لكن توجـد اختلافات في الظروف الاقتصادية والاجتماعية . والذي يمسك الامريكي العادي أن يكون شيوعياً ليس فكرة عن الحياة ترفض التفسير المادي للكون والحياة والتاريخ ؛ بل لأن الفرصة مهيأة أمامه ليصبح ثرياً ، ولأن أجر العامل مرتفع كذلك .

فلا يخدعنا أن نرى الصراع قوياً وعنيفاً بين كتلتي الشرق والغرب : فكلتاهما لاتملك إلا فكرة مادية عن الحياة ، وكلتاهما قريبة في طبيعة تفكيرها من الاخرى ، وكلتاهما لاتتنازعان على مبدأ أو فكرة ، إنما تتنازعان النفوذ في العالم ، والربح في الأسواق ، ونحن هذه الاسواق !

اما الصراع الحقيقي العميق ، فهو بين الاسلام وبين الكتلتين الغربية والشرقية جميعاً . فالاسلام هو القوة الحقيقية التي تقف لقوة الفكرة المادية التي تدين بهـا اوروبا وامريكا وروسيا والصين على السواء . الاسلام هو الذي يتضمن التصور الكلي الشامل المتناسق عن الوجود والحياة ، ويقيم التكافل الاجتماعي في المحيط الانساني مقام الصراع والتطاحن ، ويجعل للحياة قاعدة روحية تصلهـا بالخالق في السماء ، وتسيطر على اتجاهها في الارض ، ولا تنتهي بالحياة إلى تحقيق اغراض مادية بحتة ، وإن كان النشاط المادي المثمر عبادة من عبادات الاسلام » (١) .

* * *

ولقد كان الشهيد سيد قطب أول من دعا إلى الحياد والوقوف بين الكتلتين بصورة ايجابية تقوم معها الكتلة الثالثة ، يوم كان مثل هـذا التفكير يثير عجب الكثيرين من المضبوعين الذين لا يسيرون في الحياة إلا في ذيل القافلـة ولا يؤمنون بالعمل إلا أتباعاً أو عبيداً في موكب السلطان !!..

ولقد وقف الطاغية الذي تبنى يوماً دعوة الحياد الايجابي في مصر يقول في مجلس ضم عدداً من رجـال الفكر وفئة العسكر الحاكمة يـوم كان حديث عهد

---

(١) ص ٢٩٠ ــ ٢٩١ من كتاب العدالة الاجتماعية في الاسلام .

بالحكم : « حياد إيه ، وكلام فارغ إيه .. أنا قررت الوقوف مع أمريكا مهما كانت الظروف .. وخلاص ! » .

ومضى موكب السلطان .. ومضت معه الطبول تدق والهتافات تعلو.. وأمرت أمريكا الطغاة الصغار أن يرفعوا شعار الحياد .. ولكن على الطريقة الأمريكية !..

وإن أروع ما يميز الشهيد في وعيه السياسي أنه لم يخدع الجماهير كما فعل الكثير ممن حاربوا النفوذ الفرنسي في كنف الحماية الانجليزية ، أو طاردوا النفوذ الانجليزي بدعم من السياسة الامريكية ، ولكنه حارب في أكثر من جبهة وكشف أكثر من صنم ـ حين عرّى الاستعمار الأميركي الذي وطّأ لـه حكام المنطقة الأكناف ومهدوا له السبيل ، كما عرّى زيف الشيوعية وأباطيلها وقد خدعت بها بعض الشعوب المغلوبة على أمرها المتطلعة للخلاص من العدو الجاثم على صدرها ولو على يد عدو مجهول يتوثب للسيطرة من جديد .. لقد حذر سيد قطب من العدوين القائم والقادم معاً .. حتى لاتندم الأمة وهي تستقبل نيراً بدل نير ولجاماً مكان لجام !..

* * *

هذا بالنسبة للسياسة الخارجية والدولية وما يرتبط بها من خفايا وأسرار ..

أما السياسة الداخلية في مصر العهدين .. عهد فاروق وعهد الثورة فلم يسكت الرجل ولم يكف عن اطلاق صيحات النذير ، ينبه للخطر المحدق بالأمة والبلاء الذي تنتظره على أيدي هؤلاء وهؤلاء ...

تناول رأس الحكم في مصر بالنقد وألقى عليه تبعة دعم الاستعمار الغربي والاحتلال الأجنبي ، يوم كان أدعياء التحرر لا يحسنون إلاّ تدبيج المقالات في مديح « مولانا » .. أو تأدية التحية العسكرية للذات العلية !..

« وهم يدركون جيداً أن الاستعمار هو سندهم الطبيعي ، وأنه هو الذي أوجدهم وأنشأهم ، ومنحهم النفوذ والثراء ، فهو الذي كافأ الخونة الذين خدعوا جيش عرابي ، وساعدوا جيش الاحتلال في مصر ، ووهب لهم الضياع والأموال حتى

لقد أصبحوا اليوم يدعون أبناء البيوتات ويلقبون بالأسر الكريمة . والاستعمار يصنع هذا في كل مكان »[1] .

وقد ركز على خطر الاستعمار في شتى أنواعه ، وبين أسلوب « الانجليز الحمر » عندما تضطرهم الظروف لترك أرض أو التخلي عن بلاد ، كيف يحلون محلهم من يطمئنون إليهم من « الانجليز السمر » في سوق الاقتصاد ودنيا الفكر والتربية وعالم السياسة :

« ولقد كان الانجليز يعرفون أن جيوش الاحتلال ستترك مصر يوماً ما ، إن قريباً وإن بعيداً . فلم يكن لهم بدٌ من أسناد للاستعمار غير جيوش الاحتلال ، فأقاموا هذه الأسناد في الميدان الاقتصادي لاحتلال الاسواق المصرية ، ومحاولة إغلاق الأسواق العالمية الاخرى في وجه الحاصلات المصرية وأقاموها في دنيا المال بتبعية نقدنا لنقدهم أو لخزاناتهم .. إلخ . ولكن هذه الأسناد كلها لم تكن لتقوى على البقاء لولا الاستعمار الروحي الذي عني به الاستعمار في خلال القرن الماضي ، وما يزال يوليه أكبر عناية في هذه الأيام . لقد ذهب الانجليز البيض من الدواوين ليحل محلهم « الانجليز السمر » من المصريين المقربين المستعمرة أرواحهم وأفكارهم، المصنوعين على عين الاستعمار لأداء أغراض الاستعمار . وكانت عناية الانجليز البيض شديدة بوزارة المعارف بوصفها المشرفة على تكوين الأجيال ، حتى إذا تركوها اليوم للانجليز السمر تركوها مطمئنين ، فما تزال النظم والبرامج والكتب وطرائق التدريس كلها تعمل للاستعمار الروحي والفكري في نفوس الأجيال . وكلها إيحاءات بنبذ العنصر الديني وبإقصاء الاسلام لا عن الحكم وحده بل عن الحياة جميعاً .

لقد ربى الاحتلال أجيالاً متعاقبة ، ما تزال تتكاثر بحكم العقلية المشرفة على

---

(١) كتب هذه الكلمة في الطبعة الاولى من كتاب « السلام العالمي والاسلام » في عهد الملك فاروق عام ١٩٥١ م .

وزارة المعارف تنظر إلى الاسلام على أنه بقية من بقايا التأخر والانحطاط ، وتعد التجرد منه تجرداً من تهمة الجمود والجهل ، ودليلاً على « الثقافة » والتحرر .

وبرامج التاريخ في المدرسة المصرية وكتبه على وجه خاص من أمرّ مايستطيع الاستعمار أن يصنع ، ومن أفتك ما يقتل الروح القومية والروح الدينية سواء ، فالطالب الثانوي ـ بل الجامعي ـ يخرج من دراسة التاريخ ـ بما في ذلك التاريخ الاسلامي ـ لايعرف شيئاً عن فكرة الاسلام الاجتماعية ونظرته الانسانية ، وكل ما يدرسه غزوات وحروب ووقائع وأحداث . ينتهي منها إلى أن الاسلام كان حركة حربية ، ولم يكن يوماً ما معركة فكرية ولا اجتماعية ولا انسانية ! »[1] .

* * *

ثم بين دور المرتزقة ممن اصطلح الناس خطأ على تسميتهم « رجال الدين » ، كشف موقفهم القائم بين ضيق الأفق من جانب والتخلي عن روح الاسلام الحق وأصالته من جانب آخر :

« وساعد الاستعمار على تشويه الفكرة الاسلامية كلها عامل آخر ؛ عامل لم يكن الاستعمار ليجد أفتك منه ولا أفعل في تشويه الاسلام ، أولئك الذين اصطلح الناس على أن يسموهم رجال دين ، من الأشياخ والدراويش ، يمثلون جمود الفكر ، وضيق الأفق ، أو يمثلون الخرافة والجهالة ، ثم يصبغون ذلك كله بصبغة الدين ، فيظهرونه بشعاً شائهاً منفراً . ثم يرتكبون في سلوكهم الشخصي والاجتماعي جرائم وموبقات شائنة ، فيذهبون بكرامة الدين وجديته واحترامه ، وبخاصة حين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ، فيناصرون الاستغلال والطغيان باسم الاسلام ، وباسم القرآن »[2] !!



(١) ص ١٢٧ ـ ١٢٨ من كتاب معركة الاسلام والراسمالية .

(٢) ص ١٢٨ ـ ١٢٩ من كتاب معركة الاسلام والراسمالية .

ويشير سيد قطب بوعي ووضوح ويقين إلى الروح الصليبي الذي يسيطر على الاستعمار الاجنبي والشعوب الغربية ، فيؤكد أثر تلك الروح في كل تصرفات القوم وكل مواقفهم في التفكير والقول والعمل :

« إن الحروب الصليبية لم تضع أوزارها إلا في نفوس المسلمين وفي عالم المسلمين ، فأما في العالم المسيحي فهي مشبوبة الأوار ، وهي تشغل من أذهان القوم وسياستهم مكاناً بارزاً ، يبدو في شتى مناحي الحياة . ونحن بغفلة منقطعة النظير نقدم لهم العون والمساعدة في هذه الحرب المشبوبة الأوار .

إن الصليبيين الأحياء لم ينسوا يوماً أن بيت المقدس هو البقعة التي ثارت من أجلها الحروب الصليبية ، وحينما دخل الماريشال « أللنبي » بيت المقدس في الحرب العظمى الماضية تحرك لسان الصليبية الكامنة في دمه وفي دم كل صليبي ، تحرك لينفث أوار الصليبية الكامن :

« الآن انتهت الحروب الصليبية » !

وحين قضت السياسة الاستعمارية والواقع المادي أن تكون فلسطين للعرب ـ أهلها وسكانها ـ تحركت هذه الصليبية مرة أخرى بفكرة الوطن القومي لليهود، ثم انتهت إلى المأساة الاخيرة على عين انكلترا وأمريكا وبصرهما وبأسلحتهما وأموالهما ؛ تشترك معهما الشيوعية التي تطرد الدين من حسابها ، إلا أن يكون هذا الدين هو الاسلام ، فهي تحاربه باسمها لا باسم الصليبية ، تحاربه لحسابها الخاص ولمصلحتها الخاصة كما سيأتي . وقال المغفلون هنا : إن الدسائس الاستعمارية والمصالح الشخصية وحدها هي التي تحرك انكلترا وأمريكا ؛ ذلك أنهم لا يفطنون إلى أن روح الصليبية كامن وراء السياسة الاستعمارية كذلك ، يذكي العوامل الظاهرة ويقويها »[1] .

---

(١) ص ١٢١ ـ ١٢٢ من كتاب معركة الاسلام والراسمالية .

ويربط الكاتب المسلم الواعي بين تفسخ الحكم وتفسخ الخلق ، ويؤكد وجود الحلف الطبيعي بين أساطين الفساد في كل أرض وكل جانب مـن جوانب المجتمع المهترىء المريض :

« والذي أريد التنبيه إليه هنا أنَّ نصيباً عظيماً من الضجة القائمة ضد حكم الاسلام إنما ينبعث من المواخير والأوكار والجيف الطافية على وجه ذلك المستنقع الآسن الفسيح ؛ المستنقع الذي لايخوض فيه اللصوص والسكارى والنخاسون والرقيق الابيض فحسب ، بل تخوض فيـه رؤوس كبيرة كثيرة في هذا البلد ، وبيوتات فوق مستوى الشبهات !

فإذا سمع الناس هذه الضجة ضد حكم الاسلام ، ورأوا احتفالاً بمثيريها من الأقزام ، فليعرفوا أن الزفّة ليست للقزم الذي يلبس الريش ، ولكن للمستنقع الذي تخشى ديدانه من المطهِّر الفتاك ! »[1] .

* * *

ويهتك الرجل الداعية أسرار أبواق الباطـل في مصر ، فيلقي الضـوء على الصحافة المأجورة والاقلام المسعورة ، ويبين سر وقوفها أبداً مع الحكام والطغاة الظالمين رغم تبجحها المصطنع بالوقوف مـع الشعب والجماهير المظلومةالمغلوبة على أمرهـا :

« فأما الصحافة فليست في وضع يمكنها من الوقوف في صف الجماهير ضد الطغاة والمستغلين ، ولا ضد الاستعمار ووراءه الرأسمالية العالمية القوية .

إن الصحيفة مؤسسة تجارية قبل كل شيء ، وعليها أن توازن ميزانيتها على الأقل لتعيش ، وقد أصبحت المنافسة الصحفية عنيفة في دائرة القراء المحدودين ، وهذه المنافسة تقتضي تحسينات صحفية ، وتكاليف متصاعدة ، وموارد مالية كبيرة.

---

(١) ص ١٤٠ ـ ١٤١ من كتاب معركة الاسلام والراسمالية .

والرواج في التوزيع لا يقلل من نفقات الجريدة ، بل يزيد خسائرها إذا وقفت عند حدود البيع . ذلك أن تكاليف النسخة الواحدة من أية جريدة كبيرة ــ يومية أو أسبوعية ــ أكثر من السعر الذي تباع به هذه النسخة في السوق . وهذه حقيقة قوية يجب أن تكون في الحساب ، ليعرف الجمهور الفقير الكادح أنه ليس هو الذي يمول الجريدة الرائجة بقروشه وملاليمه ؛ إنما تعتمد هذه الصحف في وجودها وبقائها وربحها على موارد أخرى غير القروش والملاليم .

تعتمد أولاً على الاعلانات ، وهذه الاعلانات تملكها شركات رأسمالية ضخمة، تخدم بدورها المؤسسات الرأسمالية التي تتولى الاعلان عنها .. وتعتمد ثانياً على المصروفات السرية المؤقتة والدائمة : المؤقتة التي تدفعها الوزارات لصحافتها الحزبية أو للصحف التي تريد شراءها أو ضمان حيادها ، (وهي في العادة دفعات ضخمة) . والدائمة التي تتولى إدارة المطبوعات صرفها إما للصحف وإما للصحفيين بصفة دائمة على اختلاف العهود ، لخدمة الاغراض الحكومية الدائمة التي لاتتعلق بحزب دون حزب .. وتعتمد ثالثاً على المصروفات السرية لاقلام المخابرات الدولية ، وبخاصة انكلترا وأمريكا .. ذلك عدا نفقات الدعاية المباشرة للشركات وللبيوتات ولبعض الجهات ... » [1] .

وهذا هو سر العداوة بين الرجل الحر والمؤمن الصادق وبين المؤسسات الصحفية الكثيرة في مصر التي هللت يوم أعدم ؛ وقدمت للسلطة من التحقيقات الصحفية والصور والألوان والأكاذيب والتزوير مالم يطالب « السلطان » الأرعن إلا بجزء يسير منه يبرر فعلته ويبارك جريمته .. ولكن الصحافة متبرعة قدمت له فوق ما يريد .. لأنها تنتقم لنفسها ولأقلامها العفنة ورؤوسها الفارغة من الرجل الذي كشف سرها وعرّى سوءتها للجماهير ..



(١) ص ١٥٢ ــ ١٥٣ من كتاب معركة الاسلام والراسمالية .

ويختم الرجل الواعي والسياسي المؤمن دعوته في كشف زيف السياسة وينزع ثياب الممثلين وأقنعتهم عن وجوه المزورين ؛ فيخاطب الجماهير التي يرى أن وعيها على حقيقة الاسلام هو الخلاص من كل بلاء والانقاذ من كل كارثة :

« والآن أيتها الجماهير .. لقد تبين أن أحداً لن يمد يده إليك مالم تمدي أنت يدك إليه وأن الطرق جميعاً لاتؤدي إلى الخلاص الحق ، اللهم إلا طريقك الواحد الأصيل . أيتها الجماهير .. لقد تعين لك طريق الكرامة الانسانية ، وطريق العدالة الاجتماعية ، وطريق المجد الذي عرفته الأمة الاسلامية مرة ، والذي تملك أن تعرفه مرة أخرى لو تفيق .

أيتها الجماهير .. ها هو ذا الاسلام حاضر يلبي كل راغب في العزة والاستعلاء والسيادة ، وكل راغب في المساواة والحرية والعدالة ، وكل من يؤمن بنفسه وقومه ووطنه ، وكل من يشعر أن له مكاناً كريماً في ذلك الوجود .

أيتها الجماهير .. هذا هو الطريق .. هذا هو الطريق .. »[1] .

* * *

ولكي تتضح الصورة ويبين الخبيء من الأمــور لابد من المقارنة بين الوعي السياسي المبكر لدى الشهيد سيد قطب في معرفة خفايا السياسة الامريكية وألاعيبها من جانب ، والغفلة العجيبة ــ إن لم نقل المؤامرة الرهيبة ــ لــدى قيادة مجلس الثورة الذي قام بدعوى تخليص مصر من طغمة الحكام فيهــا والنفوذ الانكليزي المهيمن على عقلية تجار السياسة من رجال الأحزاب ...

يقول الرئيس أنور السادات في مذكراته « يا ولدي هذا عمك جمال » :

« وهكذا بدا لنا أن أمريكا تفهم الأوضاع على حقيقتها بعقلية غير تلك العقلية الاستعمارية ، وبدا لنا أيضاً أن لأمريكا سياسة أمريكية على خلاف ما كنا نعرفه من

---

(١) ص ١٥٨ من كتاب معركة الاسلام والراسمالية .

أنها تسير في ذيل السياسة البريطانية الاستعمارية ــ وخاصة في هذه المنطقة من العالم التي كان يدّعي الساسة البريطانيون الاستعماريون أنهم خبراؤها الوحيدون، ولعل هذا يلقي لك ضوءاً يا بني على ما قلته لك سابقاً من أن تصرف الثورة حيال أمريكا كان مناقضاً من أول يوم لتصرفها حيال بريطانيا ، وأن صداقة حقيقية انعقدت بيننا وبين السفير الامريكي المستر « كافري » وأن الرجل كان مخلصاً حقاً !

فمن أول يوم لبينا دعوة المستر كافري التيدعانا فيها إلى العشاء وذهبنا جميعاً إلى منزله .. قبل أن يعلم الناس في مصر والعالم من هم رجال ثورة مصر ، فيالوقت الذي قاطعنا فيه السفارة البريطانية تمام المقاطعة ، حتى إن المستشار الشرقي بها كان يبحث ويحاول أن يصل إلى معرفة أشخاصنا ، ثم بدأ بعد ذلـك يتصل ببعض أصدقائنا من الصحفيين لكي يدلوه على طريقة يتصل بها بنا ، أو يكونوا واسطة لاجتماعه بأحدنا . كان هذا في الوقت الذي كان السفير الامريكي فيه دائم الاتصال بنا ، وفي كل مرة كان يُظهِر تفهماً وإدراكاً لحقيقة أهدافنا ، مما جعلنا نحس أن أمريكا عازمة حقاً على التمسك بما تعلن عنه من أنها ضد الاستعمار .. وأنها مع حق تقرير المصير للشعوب الصغيرة التي ابتليت بالسيطرة الاجنبية . » [١] .

ويقول الأستاذ علال الفاسي العالم الداعية والقائد السياسي المغربي في صحيفة العلم المغربية :

ولقد عرفته ــ أي سيد قطب ــ في آخر هذه المرحلة (ويعني بها مرحلة ماقبل عام ١٩٤٨) حينما كان يشرف على مجلة العالم العربي ، وقد أخذ مني أحاديث عن القضية المغربية عني بنشرها والتعليق عليها في هذه المجلة . ثم كتبت بطلبٍ منه بحثاً عن السياسة الامريكية إزاء العرب نُشر في هذه المجلة ، وكان له أثر كبير في الأوساط الأجنبية ، إذ ترجمه كثير من المعلقين الانكليز والأمريكان [٢] .

---

(١) ص ٩٥ من مذكرات انور السادات « يا ولدي هذا عمك جمال » طبع الدار القومية للطباعة والنشر بتاريخ ١٩٦٥/٨/١١ ، رقم (٣١٢) .

(٢) العدد ٥٩٥٨ من صحيفة العلم الصادر في ١٩٦٦/٩/٢ م .

إن هذا الوعي العميق الذي يسبق الأحداث ويحدد معالم المعركة قبل ربع قرن من الزمان هو الذي عجَّل بنهاية الرجل كما أرى ، ودعا الدول الاستعمارية ودوائر المخابرات الأمريكية أن تفكر في الخلاص منه وقد نضج فكره ورسخت عقيدته وبان إخلاصه ، فأصبح للجيل رائداً ، وللحركة الاسلامية قائداً ، لـه من الخطورة على الاستعمار والوجود الأجنبي في ديار الاسلام ما يفوق خطورة جيش مسلح أو شعب بكامله يتوثب للحرية والخلاص .

وكان أن خططت السيكلوجية الأمريكية للتآمر الثوري أن ينفذ جريمته بعد أن ينال من سمعة الرجل ويلوث أهدافه ويسخر مما يدعو إليـه ؛ فتمّ « لثالوث العدوان المتآمر »[1] على يد صنائع كوبلاند[2] ما أراد . وحاولت صحافة الأجنبي التي تصدر في ديار العرب والاسلام بأحرف عربية أن تغمط حق الرجل بل أن تسيء إليه .. ولكن شموخ الحق ونصاعة الشهادة كانت أكبر من أن تخفيها ظلمـات الدخلاء والعملاء والجهلاء على السواء ، فعرفت الدنيا أي نجم توارى في الثرى ، وأي شهاب نكسته الأيدي الآثمة ، ولكن ليبعث من جديد شعاعاً من الفكر القرآني الخالد وقبساً من نور الله الذي لا يحور ...

مات سيد قطب جسداً .. بعد أن صار « سيـدَ » الفكر ، و « قطـبَ » الوعي الإيماني والبعث الإسلامي الجديد ! ...

لقد كان الرجل المؤمن ذا عقل نير وبصيرة واعية وقلب نابض بالخير وحب الله والناس . وكان له من الطاقة المذخورة والفكر المؤمن ما سخره لتخليص العقـل العربي من لوثة الخضوع لكل غريب وتحرير ديار الإسلام من كل غاصب .. وقد كانت أمه ـ عليها الرحمة ـ تريده « سيداً » في قريته .. يستعيد ماباعه أبوه من الأرض ، ويرد ما اقتطعه المنافسون من الحقل الذي كان يعود على الأسرة المباركة بالمال الطيب والرزق الحلال ...

* * *

---

(١) الصليبية والشيوعية والصهيونية .

(٢) ضابط المخابرات الامريكي ومؤلف كتاب « لعبة الشعوب » .

سيد قطب

الصحافي الصادق والمحدث المؤثر

سيد قطب الصحافي الصادق والمحدث المــؤثر

والصدق في نظري أهم ما يحتاجه الصحفي وما ترجوه الأمة لمن يحمل القلم في عالم التوجيه ودنيا الإعلام ٠٠ الصدق في سوق الخبر ، والصدق في تقديم التعليق ، والصدق في تصوير الواقع وقصد الخلاص مما أصاب الأمة من كوارث وما حل بها من نكبات ٠

وسيد قطب لم يكن صحفياً وهو يكتب دفاعاً عن العقــاد ولا وهو يقــدم الكتب والشخصيات أو ينقد الأعمال الأدبية المختلفة ، ولكنه صار صحفياً وبدأ يسلك طريق الصحافة الشائكة الخطرة وهو يصور آلام الأمة ويلمس مشكلاتها ويعالج قضاياها ، ويرجو لها الخلاص مما أصابها وما حل بأجيالها المتلاحقة ٠

بدأ ذلك بصورة هادفة مخطط لها في مجلة « الفكر الجديد » التي أصدرها عام ١٩٤٦ بالاشتراك مع السيد محمد حلمي المنياوي عضو مكتب الإرشاد لجماعة الاخوان المسلمين ، وكانت بداية صلة الجماعة به ــ وعرض عليه أن يكتب في المجلة ما يروق له وفق الخط الاسلامي الواضح في رفض الطغيان والعدوان والدعوة الى بناء مجتمع إسلامي أمثل ليس للاقطاع والرأسمالية والدكتاتورية والتفسخ عليه سبيل ٠

وصدر من المجلة يومئذ ستة أعداد صودر منها ثلاثة مما أدى الى توقف المجلة عن الصدور ، فأصابه من قهر الظالمين ما يصيب كل صحفي صادق لا يتاح له أن يستمر في تقديم صدقه عبر التعليق أو الخبر أو المقالة ٠ ثم مضى في طريق الصحافة يكتب المقال تلو المقال في الرسالة واللواء والاشتراكية والدعــوة وغيرها مــن الصحف[1] القليلة التي كانت تأبى أن تسبّح بحمد أصحاب السعادة والعطوفة

---

(١) اللواء : صحيفة الحزب الوطني ، والاشتراكية : صحيفة حزب مصر الفتاة الذي سمي فيما بعد بالحزب الاشتراكي ، وكان يراسه احمد حسين ، والدعوة : المجلة التي كان يصدرها الاستاذ صالح العشماوي .

والرفعة والمعالي والفخامة من « البهوات » و « البشوات » ، مما لا أحصي من ألقاب في دنيا السياسة المصرية التي كانت تهتم كثيراً بمعاطف الفرو على أكتاف سيدات المجتمع ومعاطف « التشريفة » على أكتاف القادة ورؤساء الأحزاب في الحفلات الملكية الصاخبة ، أكثر من اهتمامها بما يصيب الفلاح من كوارث دودة القطن وما ينهك جسده من « البلهارسيا » .. وما يحل بالأمة من وباء الكوليرا أو وباء الاستعمار !!

ومن هنا كان الأسلوب الذي لجأ له الشهيد بقوة وصفاء وعنف وصدق فيما نشر وأذاع على الناس من مقالات صحفية صادقة هادفة ، جمعت في كتاب واحد فيما بعد ، وصدر للناس كتابا يمثل جانباً من أعمال سيد قطب الصحفية وآرائه القلمية في الصحف الاسبوعية يتداولها الناس ، فيزرع في كل بيت فكرة وفي كل رأس ثورة عارمة على الفساد والطغيان حيثما كان .

وكانت بعد ذلك قصة كتاب « دراسات إسلامية » ...

وهو الكتاب الوحيد من كتب الشهيد الذي لا ينتظم موضوعاً واحداً أو بحثاً متصل الحلقات ، ذلك أنه مجموعة من المقالات والتعليقات والمحاضرات والأحاديث الإذاعية والأحاديث الإخوانية التوجيهية الهادفة ...

ففي الكتاب الذي صدر عام ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م مقال نشره الشهيد في الرسالة عام ١٩٥٢ ، وآخر منع الرقيب نشره ، وثالث يمثل حديثا إذاعياً عن أدب الانحلال والعبيد الذين يتبنونه ويعيشون في أفيائه ، ولم تسمح الإذاعة المصرية حتى بعد الثورة أن يذاع !

وهكذا نلمح في الكتاب حشداً من المقالات والموضوعات التي كتبها الكاتب في شتى الموضوعات ، ولكنها جميعاً تكاد تلتقي في فكرة مقال واحد من هذه المقالات بعنوان : قوة الكلمة !

وعن قوة الكلمة تكلم الشهيد كما لم ولا يتكلم الآخرون .

في كل كلمة من كلمات المقال حس عميق بأن الرجل على طريق الشهادة ، وفي كل فقرة من فقراته مايوحي أنه صادق في رغبتــه الملحة أن يلقى الله باللون لون الدم والريح ريح المسك •• وقد كان !

أليس الصدق والوفاء والقوة فيما يقول الشهيد ويدعو إليه :

« إنه ليست كل كلمة تبلغ إلى قلوب الآخرين فتحركها وتجمعها وتدفعها ، إنها الكلمات التي تقطر دماءً ، لأنها تقتات قلب إنسان حي ••!

كل كلمة عاشت قد اقتاتت قلب إنسان • إن الكلمات التي ولدت في الأفواه ، وقذفت بهــا الألسنة ، ولم تتصل بذلك النبع الإلهي الحي قد ولدت ميتة ، ولم تدفع بالبشرية شبراً واحداً إلى الامام ، إن أحداً لن يتبناها لأنها ولــدت ميتة ، والناس لا يتبنون الأموات •

إن أصحاب الأقلام يستطيعون أن يصنعوا شيئاً كثيراً ولكن بشرط واحد : أن يموتوا هم لتعيش أفكارهم • أن يطعموا أفكارهم مـــن لحومهم ودمائهم • أن يقولوا ما يعتقدون أنه حق ، ويقدموا دماءهم فداء لكلمة الحق •

إن أفكارنا وكلماتنا تظل جثثاً هامدة ، حتى إذا متنا في سبيلها ، أو غذيناها بالدماء ، انتفضت حية وعاشت بين الأحياء »[١] •

ولهذا السبب وهذا المستوى الرفيع من القــوة والصدق سمّى الكــاتب الاسلامي الكبير الأستاذ محب الدين الخطيب ــ يرحمه الله ــ كتاب الشهيد ذاك « كتاب السنّة » أو « كتاب العام » وهو يكتب له مقدمته حيث يقول :

« وبعد : فقد كان من حق هذا السِّفْر النفيس أن يتولى تصديره رجل أصلب مني عوداً ، وأشد قوة ، وأحدث سناً ، وأجرأ على مواجهة الناس بالحق •

إنه (كتاب السنّة) في أدب القوة ، ولا أعرف كتاباً صدر في هــذه السنة ليتحدث عن الحق بلسان القوة كما تحدث أخي الألمعي البليغ الأستاذ سيد قطب في هذا الكتاب •

---

(١) من مقال « قوة الكلمة » في كتاب « دراسات اسلامية » لسيد قطب .

لذلك كان من الظلم له أن يكتب مقدمته إنسان معتدل متئد وهو في العقد السابع من حياته. لقد واجه سيد قطب بكلمة الحق طوائف كثيرة في كتابه هذا، وكلمة الحق مرة ، والذين صفع وجوههم بها يتصرفون بأكثر مافي الأرض من قوى الباطل . وهم كثيرون ملء الدنيا . ولا يقف في وجوه هؤلاء إلا المؤمن القوي ، فهنيئاً للأستاذ سيد قطب ما متعه الله به من قوة الإيمان .

في هذا السِّفْر النفيس فصل عنوانه « إلى النائمين في العالم الاسلامي » ، كتبه سيد قطب ونشره قبل قيام ثورة التحرير بأسبوعين . ومقال « العبيد » حاول نشره في عهد الطغيان فحيل بينه وبين نشره ، وقد برهن سيد قطب بمواقفه في عهد الطغيان على أنه يحسن القول في تأييد الحق ، يوم يتجهم وجه الباطل القوي للحق إذا انصرف جنده عنه . وفي حملة الأقلام منا كثيرون يحسنون القول في تأييد الحق، ولكن إذا كانت له سوق يروج فيها ، أو دولة تخطب ودَّ مؤيديه ولو إلى حين . وهم على استعداد لأن يقولوا غير ذلك أيضا ، ولهم من براعة القول ما يحسنون به الاعتذار للباطل في دولته ، فأحرى أن يحسنوا القول عن الحق إذا قامت له سوق »[1] .

وفي الكتاب إشارة واضحة للذين يرتدون أزياء المسلمين وليسوا منهم ويرددون أقوالهم وليسوا معهم .. كان ذلك تحت عنوان « إسلام أمريكاني » يوضح فيه المحاولة الأمريكية الخبيثة في المنطقة والتي مازالت تحرك أصابعها لتحرك دُمى كثيرة تتحدث عن الإسلام .. دون أن يكون لديها غَيْرةٌ عليه أوحس نحو أهله وبنيه ...

وفي الكتاب صراحة ووضوح أن الرجل بات جندياً من جند دعوة الله عبر تنظيم جماعة الإخوان المسلمين الذين أحبهم وصار منهم ، وانتظم في صفوفهم يقدم العطاء تلو العطاء حتى توَّج عطاءه بدمه وختم حياته بالشهادة ...

---

(١) من كلمة الاستاذ المرحوم محب الدين الخطيب التي قدم بها كتاب سيد قطب « دراسات اسلامية » .

نلمح ذلك بل نعيه عبر مقالاته في الكتاب : « ياشباب الاخوان» و «دعوتنا»٠

ويكتب الرجل عن « حسن البنا وعبقرية البناء » ليبين ميزات الرجل الذي جمع الصفوف وألف بين القلوب بإذن الله ، ومع ذلك لم يجد في عهد الحكم الملكي البوليسي من يحمل جنازته سوى رجل وثلاث نساء كلهم من أهل بيته والأقربين !

وما كتبه سيد قطب عن حسن البنا يؤكد التقدير العميق الذي يكنه الشهيد الثاني للشهيد الأول الذي سبقه ، ويوحي أن سيداً يقر للإمام البنّا رحمه الله بمقام الأستاذية رغم ما بين الرجلين من تقارب أو تساوٍ في السن وعام الولادة !

ويحيي الشهيد شباب الدعوة بكلمات يشير فيها إلى تآمر الإعلام وتخاذل الصحافة وقد كان الشهيد واحداً من ضحاياها ــ فيقول :

« إن الصحف لتشترى بالجملة في كل مكان ، فواجبكم أنتم ــ وأنتم في كل مدينة ألوف ، وفي كل قرية مئات ــ أن تكونوا ألسنة الدعوة ضد الاستعمار كله ، وضد عملاء الاستعمار ٠ واجبكم أن تعوضوا عمل الصحف التي تشترى بالجملة في هذه الايام ، واجبكم في الجامعة في وسط الشباب المثقف ، وواجبكم في المجالس العامة ، وواجبكم في الطرقات ، وواجبكم في القرى والكفور ٠

وانتم يا شباب الاخوان ــ انتم وحدكم ــ الذين تملكون ان تكونوا منشورات حية تذهب إلى كل مكان ، وتدخل الى كل بيت ، وتسعى الى كل مدرسة ، وتنشر الوعي الشعبي ، وتفضح المؤامرات الاستعمارية ، وتكشف عن المؤامرة البشعة على سائر الشعوب المبتلاة بالاستعمار وبعملاء الاستعمار ٠

يا شباب الاخوان ٠٠ يا من تصل إليهم هذه الكلمات في مجلة الدعوة ٠٠ إن في عنق كل واحد منكم أن يقرأ هذه الكلمات لعشرة من الناس على الأقل ، عشرة من الناس في أي مكان ، فنحن في موقف فاصل مع عملاء الاستعمار ، لا في مصر وحدها ولكن في العالم كله ٠ ولا بد أن نقضي على الاستعمار ، وأن نفضح عملاء الاستعمار » ٠

❋ ❋ ❋

ولقد قدّر لقيادة الجماعة وشبابها الذين دعاهم الشهيد في مقالاته العديدة ليكونوا ألسنة الدعوة ضد الاستعمار وعملائه ، أن يدخلوا السجون ، وأن تكافئهم الثورة كما كافأهم فاروق من قبل ـ على حسن جهادهم وصدق استشهادهم ـ بالاعتقال ، في فترة كان الخلاف قد بدأ يظهر واضحاً فيها بين الضابطين اللدودين محمد نجيب وجمال عبد الناصر ، أو بين القيادة العسكرية والجماعة المؤمنة التي رفض شبابها أن يتحولوا إلى حملة مباخر للعسكر والبكباشات ، فزج بهم في السجون ، وفتحت لهم المعتقلات مكافأة لهم على دعم الثورة في أولى خطواتها على الطريق .

ثم حدث ما دعا الثورة أن تراجع نفسها أو أن تتراجع عن قرارها ، فأفرجت عن قادة الاخوان وشبابهم .. وعندها رأى الاخوان المسلمون ـ وهم الجماعة الاسلامية الجماهيرية المنظمة والحركة الاسلامية الواعية ـ أن يصدروا صحيفتهم لتحمل للناس رأيهم كل أسبوع بطريقة واضحة محددة مباشرة .. وكانت « الاخوان المسلمون »[1] الصحيفة الاسبوعية التي تسلّم الشهيد ـ عليه الرحمة والرضوان ـ رئاسة تحريرها ، يعاونه عدد من إخوانه من حَمَلة القلم الذين يتفاوتون في العطاء والمستوى والعمر الزمني[2] .

ومضى الصحفي الصادق على طريق الحق لا يحيد، وفي مستوى المسؤولية لا يهبط عنه يناقش الحكام فيما يُقدمون عليه ، ويضع النقاط على الحروف فيما يجب أن

---

(١) صدر العدد الاول منها عام ١٩٥٤ وهي امتداد لصحيفة «الاخوان المسلمون» اليومية التي صدرت في عهد الشهيد حسن البنا .

(٢) كان لكاتب هذه السطور يومئذ شرف العمل مع الشهيد في الصحيفة يكتب حينا باسمه الصريح وحينا باسم مستعار ليبتعد ـ وهو مازال طالباً ـ عن الاذى الديمقراطي والممارسات الثورية ، ثم قدّر له ان يعود إلى عمان في نفس العام وقد تخرج من الجامعة ليكون رئيساً لتحرير صحيفة الكفاح الاسلامي لسان حال الجماعة في الاردن .

تكون عليه الأمة ، ومالابد للمسؤولين أن يلتزموا به تجاهها ؛ حتى ضاق مرضى السلطة وسلاطين الحكم الفردي وفواريق مصر الجدد بما كان يكتبه ذرعاً ، وقرروا إغلاق الصحيفة الاسبوعية التي يرأس تحريرها لأنها نقدت الاتفاقية التي وقعها رجال الثورة مع الحكومة البريطانية ، وفنَّدت للناس ما فيها من مآخذ وما يبدو في بنيتها من ثغرات .

وسيق رئيس التحرير إلى المعتقل ثمناً لصدقه وتقديراً لإخلاصه في النقد البنَّاء الذي لا تحتمله إلا نفوس الرجال !..

* * *

وما دمنا هنا تتناول حديث الشهيد للشباب المسلم في لقاءاته بهم ودعوته لهم والتفافهم حوله ؛ فيجدر بنا أن نشير إلى أنه يرحمه الله كان يتمتع بموهبة في الحديث تجذب المستمعين إليه . فهو لا يعد في الخطباء إذا قصد بالمفهوم الخطابي العاطفة الثائرة ، ولكنه يعد في طليعة المتحدثين إذا قصدنا المنطق السليم والحجة الدامغة والتسلسل المنظَّم فيما يورد من أفكار وما يدلي به من آراء .

وحديث الشهيد ــ يرحمه الله ــ حين يقابل جمهوره كان يبدأ هادئاً ولكن في ثقة ، بسيطاً ولكن في عمق ، سلس العبارة ولكن في غير سوقية ولا تبذل . وقد يهاجم الاستاذ خصومه ويبكت المنحرفين عن الحق ممن يؤلِّهون المال أو الرجال أو العلم أو الآلة ؛ ولكن في أدب وعفة مقال .

ومن أروع ماعرف عن أستاذنا وما لمسناه فيه قدرته الفائقة على مهاجمة الحاكم الظالم وكشف مخازيه بصورة تثير الجمهور وتحرك فيه كوامن السخط والغضب على الطغيان ، دون أن يؤخذ على المتحدث مآخذ من سباب أو شتيمة أو خروج عن حدود اللياقة والذوق !

والذين استمعوا لأستاذنا سيد قطب عليه الرحمة وهو يتحدث على مدرَّج الجامعة أو دار العلوم أو في المركز العام للاخوان المسلمين بالقاهرة أو في اللقاءات

والمؤتمرات ـ يجمعون على أن لدى الرجل حجة قوية،وأسلوباً منطقياً،ونبرة صوتية معبرة تأخذ بالألباب وتسيطر على السامع وتحمله بأسلوب لا قسر فيه ولا رهق أن يستجيب للرجل وأن يؤمن بما يقول . ولقد لمست ذلك بنفسي وأنا أتابع محاضراته وندواته أو أحظى بلقائه في بيته بحلوان ؛ حيث كان لي شرف الحضور في كثير من أيام الجمع مع فريق من شباب الدعوة من مختلف الأقطار والأمصار والأعمار ، نأنس بحديثه ، ونستمتع بفكره الواعي ، ونفيد من علمه وأدبه وحسن معالجته لكثير مما يعرض عليه أو يثار بين يديه .



سيّد قطب
المفسّر الملهم

● التصوير الفني في القرآن

● مشاهد القيامة في القرآن

● في ظـلال القرآن

سيّد قطب
المفسّـــرُ الملهَــم

قبل الحديث عن سيد قطب المفسر للقرآن لا بد من الإشارة والبحث في الدوافع التي حركت فيه الرغبة ووجهته هذه الوجهة ؛ ليكون من أعلامها وأصحاب الرأي الواعي والفكر العميق في مجال الدراسات القرآنية الهادفة .

أحسب أن أول ما يطالعنا في هذا المجال طفولته واستماعه للقرآن يتلى في بيت أسرته في رمضان ، وأمه تشير له أن يهدأ كلما حاول الحركة وأن يصمت مصغيـاً كلما حاول الحديث والقرآن يرتل والناس في رحابه خاشعون .

ومن هنا كان إهداؤه كتابه الأول في الدراسات القرآنية لأمه حيث يقول :

« إليك يا اماه ارفع هذا الكتاب .

لطالما تسمعت من وراء « الشيش » في القرية للقراء يرتلون في دارنا القـرآن طوال شهر رمضان ، وانا معك احاول ان الغو كالاطفال ؛ فتردني منك إشارة حازمة ، وهمسة حاسمة ، فانصت معك إلى الترتيل ، وتشرب نفسي موسيقاه ، وإن لم افهم بعد معناه » .

وثاني الدوافع كما يبدو لي المدرسة الأولية التي كان يشرف عليها رجل من رجال الكتاتيب الذين ارتقوا رسمياً فأصبحوا في مدارس الحكومة الرسمية يعلمون ولكنهم ظلوا يحنون للقرآن ، فعلّموه الصغار وحفّظوه لهـم ، وكان منهم كاتبنا ــ عليه الرحمة وله من ربه الرضوان ــ حيث يقول في إهداء « التصوير الفني في القرآن » مخاطباً أمه التي يحب وبها يعجب :

« وحينما نشات بين يديك ، بعثت بي إلى المدرسة الأولية في القرية ، واولى امانيك ان يفتح الله عليّ ، فاحفظ القرآن ، وان يرزقني الصوت الرخيم ، فارتله لك كل آن ، ثم عدلت بي عن هذا الطريق في النهاية إلى الطريق الجديد الذي اسلكه الآن بعد ما تحقق لك شطر من امانيك ، فحفظت القرآن » .

ويصرّح سيد قطب في إهدائه ذاك أنه قد اتجه إلى جمال التأويل بعد أن فوّتت عليه ظروف الحياة الدراسية جمال الترتيل ؛ وأنه وإن لم يكن اليوم قارئاً مرتلاً للقرآن فهو يسعى أن يكون مفسراً لمعانيه مؤولاً لمقاصده ومراميه .

« ولقد رحلت عنا ـ يا اماه ـ وآخر صورك الشاخصة في خيالي جلستك في الدار امام المذياع ، تستمعين للترتيل الجميل ، ويبدو في قسمات وجهك النبيل انك تدركين ـ بقلبك الكبير ، وحسك البصير ـ مراميه وخفاياه .

فإليك يا اماه ثمرة توجيهك الطويل ، لطفلك الصغير ، ولفتاك الكبير . ولئن كان قد فاته جمال الترتيل ، فعسى الا يكون قد فاته جمال التاويل ، والله يرعاك عنده ويرعاه » .

وإذن فلقد اختطّ الرجل لنفسه طريقاً وحدد لمسيرته غاية : أن يكون مفسّراً للكتاب الكريم في أول عمل له اعتبره الكتاب الأول من « مكتبة القرآن الجديدة »؛ مما يؤكد لنا أن الكاتب كان له بالقرآن شغف وعلى تلاوته وتدبر معانيه إقبال أيّ إقبال .

ولقد كان لدراسة سيد قطب في دار العلوم ـ منارة الثقافة الاسلامية وحصن العربية في مصر بل والعالم العربي كله ـ أثر كبير في تذوق الرجل روح القرآن وسحر البيان . ومن هنا نراه يقول في مقدمة كتابه « التصوير الفني في القرآن » تحت عنوان :

لقد وجدت القرآن .

« لهذا الكتاب في نفسي قصة .

ولقد كان من حقي أن أحتفظ بهذه القصة لنفسي ما ظل هذا الكتاب خاطراً في ضميري ؛ أما وقد أخذ طريقه إلى المطبعة فإن قصته لم تعد ملكاً لي ولا خاصة بي.

لقد قرأت القرآن وأنا طفل صغير لا ترقى مداركي إلى آفاق معانيه ولا يحيط فهمي بجليل أغراضه . ولكنني أجد في نفسي منه شيئاً .

لقد كان خيالي الساذج الصغير يجسّم لي بعض الصور من خلال تعبير القرآن وإنها لصور ساذجة ، ولكنها كانت تشوق نفسي وتلذ حسي ، فأظل فترة غير قصيرة أتملاها ، وأنا بها فرح ، ولها نشيط .

من الصور الساذجة التي كانت ترتسم في خيالي إذ ذاك صورة كانت تتمثل لي كلما قرأت هذه الآية :

« ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأنَّ به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة » .

ولا يضحك أحد حينما أطلعه على هذه الصورة في خيالي :

لقد كان يشخص في مخيلتي رجل قائم على حافة مكان مرتفع : مصطبة — فقد كنت في القرية — أو قمة تل ضيقة — فقد رأيت التل المجاور للوادي — وهو قائم يصلي ، ولكنه لا يملك موقفه ، فهو يتأرجح في كل حركة ، ويهم بالسقوط ؛ وأنا بإزائه أتتبع حركاته في لذة وشغف عجيبين » .

ومن تلك الصور الساذجة صورة كانت تتمثل لي كلما قرأت هذه الآية :

« واتْلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخْلَد إلى الأرض واتبع هواه ، فمَثَله كمثل الكلب : إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث » .

لم أكن أدرك من معاني هذه الآية شيئاً ولا من مراميها ، ولكن صورة كانت تشخص في مخيلتي صورة رجل فاغر الفم ، متدلّي اللسان ، يلهث ويلهث في غير انقطاع ، وأنا بإزائه ، لاأحوّل نظري عنه ، ولا أفهم لِمَ يلهث ؟ ولا أجرؤ على الدنو منه .

وصور من هذه شتى ، كانت ترتسم لخيالي الصغير ، وكنت ألتذ التأمل فيها ، وأشتاق قراءة القرآن من أجلها ، وأبحث عنها — كلما قرأت — في ثناياه .

تلك أيام .. ولقد مضت بذكرياتها الحلوة ، وبخيالاتها الساذجة ، ثم تلتها أيام ، ودخلت المعاهد العلمية ، فقرأت تفسير القرآن في كتب التفسير ، وسمعت تفسيره من الأساتذة ، ولكنني لم أجد فيما أقرأ أو أسمع ذلك القرآن اللذيذ الجميل ، الذي كنت أجده في الطفولة والصبا .

وا أسفاه . لقد طمست كل معالم الجمال فيه ، وخلا من اللذة والتشويـق . ترى هما قرآنان ؟ قرآن الطفولة العذب الميّسر المشوق ، وقرآن الشباب العسـر المعقّد الممزق ؟ أم أنها جناية الطريقة المتبعة في التفسير ؟ .

وعدت إلى القرآن أقرؤه في المصحف لا في كتب التفسير ، وعدت أجد قرآني الجميل الحبيب ، وأجد صوري المشوقة اللذيذة ، إنها ليست في سذاجتها التي كانت هناك ، لقد تغيَّر فهمي لها ، فعدت الآن أجد مراميها وأغراضها ، وأعرف أنها مثل يضرب لا حادث يقع .

ولكن سحرها ما يزال . وجاذبيتها ما تزال .

الحمد لله . لقد وجدت القرآن » .

وتحرك الرجل، وقرر شيئاً ذا بال كان منطلقه نحو الدراسـة القرآنيـة ، والخطوات الأولى وهو ينج عالم القرآن ليتفيأ ظلاله ويستروح نسماته الندية :

«وخطر لي أن أعرض للناس بعض النماذج مما أجده في القرآن من صور ففعلت، ونشرت بحثاً في مجلة المقتطف عام ١٩٣٩ تحت عنوان: «التصوير الفني في القرآن». تناولت فيه عدة صور فأثبتّها ، وكشفت عما فيها من جمال فني ، وبينت القدرة القادرة التي تصّور بالألفاظ المجردة ما تعجز عن تصويره الريشة الملونة والعدسة المشخصة ، وقلت : إن هذا البحث يصلح أن يكون موضوعاً لرسالة جامعية » .

* * *

ومرت السنوات وصور القرآن تخايل لي ، وتتراءى فيها آثار الإعجاز الفني ، وكلما عدت إليها قوي في نفسي أن أتولى هذا البحث ، وان أكمله وأتوسع فيه . وظللت أعكف على القرآن بين الحين والحين ، أتملى صوره الفريدة ، فتزداد فكرة البحث في نفسي رسوخاً ، ثم تشغلني عنه الشواغل فيرتد أمنية في الضمير ، ورغبة في الشعور .

إلى أن شاء الله أن أتوفر عليه بعد خمسة أعوام كاملة من نشر البحث الأول في مجلة المقتطف .

لقد بدأت البحث ــ ومرجعي الأول فيه هو المصحف ــ لأجمع الصور الفنية في القرآن وأستعرضها ، وأبين طريقة التصوير فيها ، والتناسق الفني في إخراجها ، إذ كان همي كله موجهاً في ذلك الحين إلى الجانب الفني الخالص ، دون التعرض لغيره من مباحث القرآن الكثيرة ٠

ولكن ماذا أرى ؟

إن حقيقة جديدة تبرز لي ٠ إن الصور في القرآن ليست جزءاً منه يختلف عن سائره : إن التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل ٠ القاعدة الأساسية المتبعة في جميع الأغراض فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال ، فليس البحث إذن عن صور تجمع وترتب ، ولكن عن قاعدة تكشَف وتبرز ٠

ذلك توفيق لم أكن أتطلع إليه ، حتى التقيت به ٠

وعلى هذا الأساس قام البحث، وكل ما فيه إنما هو عرض لهذه القاعدة وتشريح لظواهرها ، وكشف عن هذه الخاصية الأصيلة في التعبير القرآني ٠

وحين انتهيت من التحضير للبحث وجدتني أشهد في نفسي مولد القرآن من جديد ؛ لقد وجدته كما لم أعهده من قبل أبداً ٠ لقد كان القرآن جميلاً في نفسي ، نعم ولكن جماله كان أجزاء وتفاريق ؛ أما اليوم فهو عندي جملة موحدة تقوم على قاعدة خاصة ــ قاعدة فيها من التناسق العجيب مالم أكن أحلم من قبل به ، وما أظن أحداً تصوَّره ٠

فلئن كنت قد وفقت في نقل هذه الصورة كما أراها في نفسي ، وفي إبرازها للناس كما أحسها في ضميري ٠ فليكونن هذا ــ بلا شك ــ نجاحاً كاملاً لهذا الكتاب » ٠

ويخلص سيد قطب إلى القول وهو يقرر حقيقة يراها وقضية يتبناها :

« التصوير هو الاداة المفضلة في أسلوب القرآن ٠ فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد

المنظور ، وعن النموذج الانساني والطبيعة البشرية ، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ؛ فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الانساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية .

فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار ، فقد استوت لها كل عناصر التخييل. فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظّارة ، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول الذي وقعت فيه أو ستقع . حيث تتوالى المناظر ، وتتجددالحركات ، وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ، ومثل يضرب ؛ ويتخيل أنه منظر يعرض ، وحادث يقع . فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ، وهذا سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف المتساوقة مع الحوادث ، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة .

إنها الحياة هنا ، وليست حكاية الحياة » .

* * *

وسيد قطب يقف موقف المدافع عن رأيه المثبت لتصوره الواثق مما يقول حيث يؤكد وجهة نظره بالإحصاء الدقيق لنصوص القرآن ، فيقول في معرض دفاعه عن الفكرة التي يتبنى والرأي الذي يرى :

« هذه القضية لدي كل ما يؤكدها من الإحصاء الدقيق لنصوص القرآن . فالقصة ، ومشاهد القيامة ، والنماذج الانسانية ، والمنطق الوجداني في القرآن ، مضافاً إليها تصوير الحالات النفسية ، وتشخيص المعاني الذهنية ، وتمثيل بعض الوقائع التي عاصرت الدعوة المحمدية ــ تؤلف على التقريب أكثر من ثلاثة أرباع القرآن من ناحية الكم . وكلها تستخدم طريقة التصوير في التعبير ، فلا يستثنى من هذه الطريقة إلا مواضع التشريع ، وبعض مواضع الجدل ، وقليل من الأغراض

الأخرى التي تقتضي طريقة التقرير الذهني المجرد ، وهي على كل حال محصورة فيما يوازي ربع القرآن .

فليس هنالك مـــن شطط حين أقول : إن « التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن » .

* * *

ومن منطلق ثقافة الرجل الداعية واطلاعه الغزير وسعة الميدان القرآني الرحب ؛ يعد الرجل بمكتبة قرآنية متكاملة ، تتناول الجانب التصويري في كل جنبات القرآن وظلاله الوارفة الحانية :

« وإذا وفقني الله فأصدرت الحلقات التالية من هــذه المكتبة ، وهـــي « القصة بين التوراة والقرآن » و « المنطق الوجداني في القرآن » و « أساليب العرض الفنية في القرآن » فسيجد الناس مصداق هذه القضية بين أيدهم ، وتستريح إليها ضمائرهم كما استراح إليها ضميري » .

ويعود الكاتب ليركز على أصالة القضية التي يطرحها ويدعو للأخذ بها ويؤكد أن « طريقة التصوير هي أجمل طرائق التعبير » ، ثم يضرب لذلك الأمثال ويعرض الحجة ويقيم البرهان :

« وطريقة التصوير هي أجمل طرائق التعبير وأفضلها في الفن والدين ، ويكفي لبيان هذا الفضل ــ كما قلت في كتاب التصوير ــ أن تتصور المعاني في صورتها الذهنية التجريدية ، وأن تتصورها بعد ذلك في صورتها التصويرية التشخيصية :

« إن المعاني في الطريقة الأولى تخاطب الذهن والوعي ، وتصل اليهما مجردة من ظلالها الجميلة . وفي الطريقة الثانية تخاطب الحس والوجدان وتصل الــى النفس من منافذ شتى : من الحواس بالتناسق والإيقاع ، ومن الحس عن طريق الحواس ، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء ، ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس ، لا منفذها المفرد الوحيد » .

« ولهذه الطريقة فضلها ولا شك في أداء الدعوة لكل عقيدة ، ولكننا إنما نظر إليها هنا من الوجهة الفنية البحتة ، وإن لها من هذه الوجهة لشأناً . فوظيفة الفن الأولى هي إثارة الانفعالات الوجدانية ، وإشاعة اللذة الفنية بهذه الاثارة ، وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات ، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه .. وكل أولئك تكفله طريقة التصوير والتشخيص للفن الجميل » .

* * *

وينطلق سيد قطب بعد قناعته بطريقة التصوير .. إلى مشاهد القيامة ليعرضها لنا ــ كما يقول ــ « ملاحم رائعة أو مناظر شاخصة أو صوراً وظلالاً » .

ومثلما أهدى كتابه « التصوير الفني في القرآن » لأمه التي أثرت في نفسه وحببت إليه القرآن وشجعته على حفظه والاستماع اليه ، فقد أهدى كتابه الثاني « مشاهد القيامة في القرآن » لأبيه الذي كان يعزو كل سلوكه الخير مع الناس من تشدّد في الحق الذي عليه أو تسامح في الحق الذي له إلى الخوف من اليوم الآخر .

« إلى روحك يا ابي اتوجه بهذا العمل .

لقد طبعت في حسي ــ وانا طفل صغير ــ مخافة اليوم الاخر . لم تعظني او تزجرني ، ولكنك كنت تعيش امامي ، واليوم الآخر في حسابك ، وذكراه في ضميرك وعلى لسانك .. كنت تعلل تشددك في الحق الذي عليك ، وتسامحك في الحق الذي لك ، بانك تخشى اليوم الاخر . وكنت تعفو عن الإساءة وانت قادر على ردها ، لتكون لك كفارة في اليوم الاخر ، وكنت تجود احياناً بما هو ضرورة لك ، لتجده ذخراً في اليوم الاخر » .

ثم هو يبين طريقته الجديدة في العرض بأن يرد القرآن في إحساسنا جديداً كما تلقاه العرب أول مرة فسحروا به أجمعين :

« وفي اعتقادي أنني لم أصنع بهذا الكتاب وبسابقه ، ولن أصنع بلواحقه ، إلا أن أرد القرآن في إحساسنا جديداً كما تلقاه العرب أول مرة فسُحروا به أجمعين ، واستوى في الإقرار بسحره المؤمنون والكافرون : هؤلاء يُسحرون

فيفرون ويقولون : « لا تسمعوا لهـذا القرآن والْغَوا فيه لعلكم تغلِبون » ، وأولئك يسحرون فيلبون ، يملأ نفوسهم الإيمان واليقين . والقرآن ـ هذا الكتاب المعجز الجميل ـ هو أنفس ما تحويه المكتبة العربية على الاطلاق ، فلا أقل من أن يعاد عرضه ، وأن ترد إليه جدّته ، وأن يستنقذ من ركام التفسيرات اللغوية والنحوية والفقهية والتاريخية والأسطورية أيضا ! وأن تبرز فيه الناحية الفنية ، وتستخلص خصائصه الأدبية ، وتنبّه المشاعر إلى مكامن الجمال فيه . وذلك هو عملي الأساسي في « مكتبة القرآن » .

وقد تناولت هذه المشاهد كما يصورها ظاهر اللفظ الواضح المشرق البسيط ، لم أحاول أن أعقّدها بالتأويلات البعيدة ، ولا أن أدخل عليها مباحث لغوية ودينية لا يقتضيها العرض الفني الجميل . وفي اعتقادي أن العرب الأولين قد تلقّوا الجمال الفني في القرآن هذا التلقّي. فتعمق إحساسهم وهزّ نفوسهم قبل أن يعقده المفسرون والمؤوّلون » .

وأحب أن أبين أن المدة الزمنية التي فصلت بين الكتابين « التصوير الفني في القرآن » و « مشاهد القيامة في القرآن » كانت عشر سنين .. مما يوحي أن الرجل قد شغلته مشاغل أخرى فكرية وأدبية واجتماعية حالت دون الاستمرار في تقديم المكتبة القرآنية الموعودة ، وإن كان قد قدّم كتابه الثاني بمزيد من النضج ومزيد من الفهم حتى جاء الكتاب رائعاً روعة تفوق حد الوصف ، حين تترك القارىء يحس لذائذ النعيم وهو يتناول آيات الجنة أو يشعر بلفح الجحيم وهو يتناول آيـات النار .. لقد كان سيدْ قطب في كتابه هذا موفقاً فيما يعرض من آيات بارعاً فيما يقدم من صور ولوحات ؛ تشد القارىء لما يقرأ ، وتجعله يحس بحرارة من يأخذ بيده ليجول به في رياض القرآن وآياته المحكمة ولوحاته الفنية الأخاذة .

* * *

وفي اعتقادي أن الكاتب قد سار في طريق القرآن وأقبل على آياته يعيش فيها ويحيا في معانيها .. مما أدى به إلى أن يكون مفسراً للكتاب الكريم ؛ رغب في ذلك بدءاً وقصده ، أم أن الله قد أراد له ذلك دون إرادة بشرية قاصرة أو توجه إنساني ضعيف !

لقد دخل سيد قطب دنيا القرآن أكثر من مرة ، وفي كل مرة كان يعيش مع الآيات ويخرج بشيء جديد :

كانت المرة الأولى :

وهو يضع أول لبنة في دراساته القرآنية حين ألف كتاب « التصوير الفني في القرآن » الذي يعتبر بحق حجر الأساس في مكتبة القرآن التي وعد بها وحاول تقديمها للمكتبة العربية الاسلامية .. وإن القارىء للظلال ليلمس أثر كتابه ذاك في كثير من المواقف والسور ، إذ يُرجع المفسر الشهيد القارىء إلى فصول وصفحات كثر من « التصوير الفني في القرآن » حتى في الطبعات الأخيرة الناضجة من « الظلال » ، مما يدل على أثر هذا الكتاب في اتجاهه نحو التفسير ودراساته القرآنية العميقة .

والثانية :

وهو يعد بمكتبة قرآنية متكاملة كما أشرنا ليثبت عبرها صحة نظريته ودقة رأيه وصواب حكمه بأن طريقة التصوير هي أجمل طرائق التعبير .

والثالثة :

وهو يكتب « مشاهد القيامة في القرآن » ويقول في هذا الكتاب :

« والقرآن : هذا الكتاب المعجز الجميل . هو أنفس ما تحويه المكتبة العربية على الاطلاق ، فلا أقل من أن يعاد عرضه ، وأن ترد إليه جدّته ، وأن يستنقذ من ركام التفسيرات اللغوية والنحوية والفقهية والتاريخية والأسطورية أيضاً » .

وكأنه قد اختط بذلك لنفسه خطة يكتب وفقها من القرآن .. وعن القرآن !

والرابعة :

وهو يعلن في ختام بيانه في « مشاهد القيامة في القرآن » حيث يقول :

« وبعد : فإني لأرجو أن أكون قد وفقت في هدفي القريب من هذا الكتاب ، كما أتمنى أن أوفق في الهدف البعيد الذي أرجوه من لواحقه : ذلك الهدف البعيد هو إعادة عرض القرآن ، واستيحاء الجمال الفني الخالص فيه ، واستنقاذه من ركام

التأويل والتعقيد ، وفرزه من سائر الأغراض الأخرى التي جاء لها القرآن . بما فيها الغرض الديني أيضاً . فهدفي هنا هدف فني خالص محض ، لا أتأثر فيه إلا بحاسة الناقد الفني المستقل ، فإذا التقت في النهاية براعة الفن بقداسة الدين ، فتلك نتيجة لم أقصد إليها ولم أتأثر بها ، إنما هو خاصية كامنة في طبيعة هذا القرآن ، تلتقي عندها دروب البحث في النهاية ، ولم يحسب السالك حسابها في الطريق ... والله ولي التوفيق » .

ولعل في قوله :

« ذلك الهدف البعيد هو إعادة عرض القرآن واستيحاء الجمال الفني الخاص فيه ، واستنقاذه من ركام التأويل والتعقيد وفرزه من سائر الأغراض الأخرى التي جاء لها القرآن ، بما فيها الغرض الديني أيضا ، فهدفي هنا هدف فني خالص محض» .

ما جعل الأستاذ حسن البنا رحمه الله يأخذ عليه المآخذ فيما قدم من دراسات قرآنية ـ في بداية عطائه ـ أغفلت عن قصد الهدف الديني لتبرز في اعتزاز الهدف الفني الخاص .. وهو مالايرضاه سيد قطب نفسه ، بعد أن دلف إلى روض القرآن يعيش في ظلاله ويقطف منه أطيب الثمرات .

والخامسة :

وهو يعلن في مقدمة تفسيره « في ظلال القرآن » أن العنوان الذي كتب في أفيائه المعاني لم يتكلفه لأنه حقيقة عاشها في الحياة :

« عنوان لم اتكلفه . فهو حقيقة عشتها في الحياة .. فبين الحين والحين كنت اجد في نفسي رغبة خفية في ان اعيش في ظل القرآن فترة . استروح فيها مالا استروحه في ظل سواه . فترة تصلني بالسماء ، وتفتح لي فيها نوافذ مضيئة وكوى مشعة ، وهي في الوقت ذاته تثبت قدمي في الأرض ، وتشعرني انني اقف على ارض صلبة ، لاتدنسها الأوحال ، ولا تزلّ فيها الأقدام .

وكانت تعنّ لي في هذه الجولات خواطر متناثرة : خواطر في العقيدة ، وخواطر في النفس ، وخواطر في الحياة ، وخواطر في الناس .. كنت أكتفي بأن أعيشها ولا أسجلها . فقد كان حسبي أن أعيش هذه اللحظات في تلك الظلال .

فلما أن صدرت « المسلمون » وكان عليّ أن أشترك في تحريرها بمقال شهري، وودّ صاحبها الصديق أن لو كان هذا المقال في موضوع مسلسل ، أو تحت عنوان دائم .. قفز إلى ذهني هذا العنوان : « في ظلال القرآن » ووددت لو سجلت هذه الخواطر التي تتوارد علي أحياناً وأنا أحيا في ظل القرآن » .

ثم تقود أستاذنا الرغبة وتستحثه المسيرة أن يمضي لما هو أبعد من الخواطر وأعمق من اللمحات ، ليقدم للمكتبة العربية الاسلامية بعد ثماني سنوات من تقديم (مشاهد القيامة في القرآن) أروع ما قدم كاتب معاصر في الفكر والأدب والرأي والتأويل في مجال الدراسات القرآنية والعقيدة الاسلامية :

« ثم طمحت الرغبة ، وامتد الأفق الى محاولة أخرى .. ماذا لو عشت فترات في ظل هذا القرآن كله . فسجلتُ كل ما يخالج نفسي ، وأنا أستروح هذا الجو العلوي الطليق ؟ إنــه ليكون كسباً لا يعدله كسب لروحي أولاً ولذاتي . وربما شاركني فيه الناس ، إذا أنا جمعته لهم في كتاب ..

ووفق الله وسرت في هذا الشوط خطوات ...

تلك هي قصة هذا الجزء الذي يصدر اليوم في هذه الصورة ، وقصة الأجزاء التي تليه بإذن الله » .

ويمنُّ الله على سيد قطب بالتوجه إلى القرآن يعيش في ظلالــه ، ويغترف من نبعه الثر الذي لا ينضب وبحره الزاخر بكل عظيم وخيّر وأصيل : أسلوباً وقيماً وحكماً وتشريعاً يتناول كل شؤون الحياة بصورة شمولية واعية ...

ويمنُّ الله عليه مرة أخرى بالمحنة والابتلاء لينقطع للقرآن أكثر ، ويتفــرغ للبحث والدراسة في أجواء من العذاب والصبر والحرمان والثبات والتجربة الصادقة التي لا يثبت لها إلا الربانيون ولا يسخر منها إلاّ الأبرار !

وتكون تنيجة تلك التجربة الرهيبة والإقبال الكلي على القرآن أن يخرج للفكر الاسلامي عمل ضخم أكبر من أن يقدمه رجلٌ واحد وعقلٌ واحد ، لو لم يؤيد ذلك العقل بإلهــام رباني وفتح إلهي كشف عن بصيرة الرجل ليرى مالم يرَ

الكثيرون ، ويكتب في مجال القرآن تفسيراً وتأويلاً وفهماً بعيداً كل البعد عن ضيق الأفق وترف الفكر وضلال الهوى !

ويحدد الأستاذ الشهيد أسلوبه في التفسير وطريقته في التأويل ، فيقول غير آبه بما يقول الناس وما يراه الباحثون الدارسون المطلعون ما دام يعيش هو في ظلال القرآن يتفيؤها وفي رحابه الطاهرة ينهل منها النور والعرفان :

« وبعد فقد يرى فريق من قراء هذه « الظلال » أنها لون من تفسير القرآن . وقد يرى فريق آخر أنها عرض للمبادىء العامة للإسلام كما جاء بها القرآن . وقد يرى فريق ثالث أنها محاولة لشرح ذلك الدستور الإلهي في الحياة والمجتمع ، وبيان الحكمة في ذلك الدستور .. أما أنا فلم أتعمد شيئاً من هذا كله ، وما جاوزت أن أسجل خواطري ، وأنا أحيا في تلك الظلال .

كل ما حاولته ألا أغرق نفسي في بحوث لغوية أو كلامية أو فقهية تحجب القرآن عن روحي وتحجب روحي عن القرآن ، وما استطردت إلى غير ما يوحيه النص القرآني ذاته ، من خاطرة روحية أو اجتماعية أو انسانية ، وما أحفل القرآن بهذه الايحاءات . كذلك حاولت أن أعبر عما خالج نفسي من إحساس بالجمال الفني العجيب في هذا الكتاب المعجز ، ومن شعور بالتناسق في التعبير والتصوير .

ولقد كانت هذي إحدى أماني منذ أن فرغت من كتاب « التصوير الفني في القرآن » قبل ثمانية أعوام ، وسجلت فيه ما بدا لي واضحاً يومذاك : إن التصوير هو القاعدة الواضحة في التعبير القرآني الجميل .. وكنت قد أدرت الكتاب كله على هذا المحور لشرح هذه القاعدة والتمثيل لها من القرآن . كانت إحدى أماني « أن يوفقني الله إلى عرض القرآن في هذا الضوء .. ثم كمنت هذه الرغبة أو توارت . حتى ظهرت مرة أخرى في هذه الظلال » .

* * *

لقد سلك الأستاذ سيد قطب في تفسيره للقرآن طريقاً واتبع أسلوباً لم يسبق إليه قط ولم يبلغ أحد من الناس مداه حتى يومنا هذا ، فجاء كما أرى إعجازاً من

روعة الإعجاز ، وتنزيلاً من فيض التنزيل ، كما وصف من قبل كتاب الرافعي الأديب : « إعجاز القرآن » .

والطريقة المثلى التي كتب وفقها أو في ظلالها الشهيد تفسيره اعتمدت ميزات عدة لم تتوفر مجتمعة في تفسير قط مما عرفته مكتبة القرآن العربية .. ولعلنا في طبعات قادمة لكتابنا عن الشهيد سيد قطب نستطيع أن نخرج بمزيد من المميزات التي ينفرد بها هذا العمل الفكري العلمي القيم ؛ فنكون بذلك قد أنصفنا الرجل في دوّامة التجني البغيض الذي واجهه به مرضى الخصومة الفاجرة . ولا بد لنا هنا من وقفة هادئة وانطلاقة تاريخية قبل المضي نحو الظلال نعرض خصائصه ونجلّي مزاياه .

كان ذلك في أواخر عام ١٩٥٠ حين أصدر الأستاذ سعيد رمضان مجلة « المسلمون » لتكون امتداداً لمجلة « الشهاب » الشهرية التي كان يصدرها الامام الشهيد حسن البنا ، وقد استكتب صاحب المجلة عدداً من الكتاب والمفكرين كان على رأسهم الشهيد سيد قطب الذي بدأ ينشر في المجلة موضوعاً ثابتاً تحت عنوان « في ظلال القرآن » ؛ مما دفع عدداً كبيراً من القراء أن يكتبوا للمجلة راغبين في أن يمضي الشهيد في موضوعه فيكتب في كل عدد ليستغرق سور القرآن جميعاً .

وتقدمت يومذاك مكتبة « دار إحياء الكتب العربية » بمصر بعرض للتعاقد مع الأستاذ سيد قطب لقاء مبلغ كبير من المال ، واشترطت لذلك أن يقدّم لها الكاتب كل شهر جزءاً من الظلال .

ومضى الشهيد بما عرف عنه من علو همة وعمق ثقافة وسعة اطّلاع وقوة جَلَد يقدم للمكتبة كل شهر ما اتفق عليه ، وما أن حل شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٥٤ حتى كان قد قدم ثمانية أجزاء ، ثم قدّر للشهيد أن يعتقل وأن يفتح السجن الحربي الرهيب له أبوابه ، فقدم منه ثلاثة أجزاء آخرها الحادي عشر حيث كان يسمح له بالكتابة قبل بدء العذاب واشتداد المحنة .

وعلى أثر ما نشب من خلاف بين رجال الثورة في صيف ١٩٥٤ أفرج عن عدد من المعتقلين السياسيين ، وكان الشهيد واحداً منهم . ثم تولى رئاسة تحرير صحيفة

الاخوان المسلمين التي صدرت في القاهرة عام ١٩٥٤ لتكون طريقاً [1] يقود الشهيد من جديد إلى « السجن الحربي » ثم « ليمان طرة » ليحل وراء جدرانه في مستشفى السجن يعالج مما أصابه من جراح التعذيب وآلام الذبحة الصدرية ، وعند ذاك حيل بينه وبين أن يستمر في عطائه ، فرفعت مكتبة دار إحياء الكتب العربية بمصر قضية ضد الحكومة لأن سجنها للمؤلف عاد على المكتبة بخسارة ضخمة لا تحتملها . وكان النظام الدكتاتوري لم يتمكن بعد ، أو أن رأس هذا النظام كان في حاجة إلى من يدعمه ويعطف عليه ، فقبل بالرضوخ مؤقتاً لقرار المحكمة ، واختار بدل دفع التعويض للمكتبة ـ التي تقاضي النظام في المحكمة ـ السماح للكاتب وهو في السجن أن يبدأ الكتابة من جديد ، ليتم الله فضله عليه ويمن الله على عباده بهذا الفكر النير والعطاء الخير للعقل المؤمن والعبد الصالح الذي أنار الله قلبه وفتح عليه .

غير أن الحكومة أصرت على تشكيل لجنة مهمتها أن تحذف مالا يروقها مما يكتبه الكاتب السجين وما يقدمه القلم المكبل بأغلال التحرر والثورية .. وكتب الشهيد بقية أجزاء كتابه تحت هذه الأوضاع الرسمية والظروف القاهرة .

وكان مما حذفته اللجنة المكلفة مقدمة سورة الفجر ، ومقدمة سورة البروج التي ضمنها المؤلف فيما بعد كتابه « معالم في الطريق » بعنوان « هذا هو الطريق ».

ومن هنا نقف لنسأل أنفسنا لم أعاد الأستاذ كتابة « الظلال » من جديد ونقح ما كتبه من قبل ، قبل أن يسجن ويمتحن بالعذاب ؟

الحقيقة التي يعرفها المقربون من الشهيد ، المحبون لفكره ، الأوفياء لذكراه ان الرجل كان قد كتب الظلال معتمداً على ثقافة حصل عليها من قبل من بطون الكتب وسطور الرجال ، فلما عاش التجربة الحقة مع القرآن وذاق المعاناة التي انارت له طريق اصحاب الدعوات ـ كان إلى القرآن اقرب وبه الصق ، فاعاد الكتابة وراجع الصفحات ليكون الكتاب من جديد متكاملاً يقدمه قلم ممتحن وقلب مصهور في بوتقة العذاب والصبر على البلاء .. فجاء « الظلال » منهاج حركة ، وتجربة حياة ، وملحمة من ملاحم الفداء والبلاء والثبات والتضحيات .

---

(١) راجع ما كتب في هذا الكتاب عن سيد قطب الصحفي الصادق .

والواقع أن تداخلاً واضحاً أو تكاملاً بيّناً يقوم بين « الظلال » و «المعالم»، فما لم يقله الشهيد في الظلال بسبب ما أوضحناه من ظروف وما بيناه من ملابسات قاله في « المعالم » ، حين كتبه وأعده كما يرى ــ لولا بعض انفعالات متطرفة سنعرض لها ــ ليكون منطلقاً لفكر حركي منظم هو خلاصة الفكر القرآني والعمل الإسلامي الهادف الذي عرضه عبر تفسيره للسور القرآنية الكريمة في ظلال القرآن.

* * *

ونعود إلى ميزات « الظلال » نعرضها ، وخصائص تفسير الشهيد نلقي عليها الضوء ؛ لتكون منطلقاً أرجو الله أن يكون منصفاً واعياً ونحن نقدم هذا العمل الفكري الإسلامي العظيم وهذا العطاء الفكري الرائد في عالم القرآن وآفاقه الفسيحة الرحبة :

الميزة الأولى :

الأسلوب الأدبي الرفيع الذي انفرد به الشهيد بين كثير من المفسرين القدامى والمحدثين ، وإنك لتحس فيما يكتب الرجل ويصور إشراقة وعذوبة وروحاً قلّما تبدو في موضوع شرعي ودراسة علمية مما يقدمه أصحاب مثل هذه الدراسات الجادة الهادفة . ولعلنا نكون موفقين ونحن نختار تفسير سورة الضحى مثالاً لما أشرنا إليه وما بدأنا به مميزات هذا التفسير الفذ الفريد :

« هذه السورة بموضوعها ، وتعبيرها ، ومشاهدها ، وظلالها وإيقاعها ،لمسة من حنان ، ونسمة من رحمة ، وطائف من ودّ،ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع وتنسّم بالروح والرضى والأمل ، وتسكب البرد والطمأنينة واليقين .

إنها كلها خالصة للنبي ــ ﷺ ــ كلها نجاء له من ربه ، وتسرية وتسلية وترويح وتطمين . كلها أنسام من الرحمة ، وأنداء من الود ، وألطاف من القربى ، وهدهدة للروح المتعب ، والخاطر المقلق ، والقلب الموجوع .

ورد في روايات كثيرة أن الوحي فتر عن رسول الله ﷺ وأبطأ عليه جبريل عليه السلام فقال المشركون : ودّع محمداً ربه ؛ فأنزل الله تعالى هذه السورة ..

والوحي ولقاء جبريل والاتصال بالله ، كانت هي زاد الرسول ﷺ في مشقة الطريق ، وسقياه في هجير الجحود ، ورروحه في لأواء التكذيب . وكان ﷺ يحيا بها في هذه الهاجرة المحرقة التي يعانيها في النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة . ويعانيها في المكر والكيد والأذى المصبوب على الدعوة ، وعلى الإيمان وعلى الهدى، من طغاة المشركين .

فلما فتر الوحي انقطع عنه الزاد ، وانحبس عنه الينبوع ، واستوحش قلبه من الحبيب ، وبقي للهاجرة وحده ، بلا زاد ، وبلا ري ، وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود .. وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه ..

وعندئذ نزلت هذه السورة . نزل هذا الفيض من الود والحب والرحمة والإيناس والقربى والأمل والرضى والطمأنينة واليقين ..

« ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » .. وما تركك ربك من قبل أبداً ، وما قلاك من قبل قط ، وما أخلاك من رحمته ورعايته وإيوائه ..

« ألم يجدك يتيماً فآوى ؟ ووجدك ضالاً فهدى ؟ ووجدك عائلاً فأغنى ؟ » ألم تجد مصداق هذا في حياتك ؟ ألا تحس مَسّ هذا في قلبك ؟ ألا ترى أثر هذا في واقعك ؟ لا . لا .. « ما ودعك ربك وما قلى » .. وما انقطع عنك بره وما ينقطع أبداً .. « وللآخرة خير لك من الأولى » .. وهناك ما هو أكثر وأوفى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » . ومع هذه الأنسام اللطيفة حقيقة الأمر وروحه .. الأنسام اللطيفة في العبارة والإيقاع .. وفي الإطار الكوني الذي وضعت فيه هذه الحقيقة :

« والضحى والليل إذا سجى » ..

[لقد أطلق التعبير جواً من الحنان اللطيف ، والرحمة الوديعة ، والرضى الشامل ، والشجى الشفيف : « ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من

الأولى • ولسوف يعطيك ربك فترضى •• ألم يجدك يتيماً فآوى ؟ ووجدك ضالاً فهدى ؟ ووجدك عائلاً فأغنى ؟ » •• ذلك الحنان ، وتلك الرحمة • وذاك الرضى • وهذا الشجى : تتسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة ، الرقيق اللفظ ، ومن هذه الموسيقى السارية في التعبير • الموسيقى الرتيبة الحركات،الوئيدة الخطوات ، الرقيقة الأصداء ، الشجية الإيقاع •• فلما أراد إطاراً لهذا الحنان اللطيف ، ولهذه الرحمة الوديعة ، ولهذا الرضى الشامل ، ولهذا الشجى الشفيف ، جعل الإطار من الضحى الرائق ، ومن الليل الساجي • أصفى آنَيْن من آونة الليل والنهار • وأشفّ آنَيْن ترى فيهما التأملات • وتتصل الروح بالوجود وخالق الوجود • وتحس بعبادة الكون كله لمبدعه ، وتوجهه لبارئه بالتسبيح والفرح والصفاء • وصورهما في اللفظ المناسب ؛ فالليل هو « الليل إذا سجى » لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه • الليل الساجي الذي يرق ويسكن ويصفى وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف ، والتأمل الوديع ؛ كجو اليتم والعَيْلة • ثم ينكشف ويُجْلَى مع الضحى الرائق الصافي •• فتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الإطار • ويتم التناسق والاتساق][1] •

إن هذا الابداع في كمال الجمال ليدل على الصنعة • صنعة الله التي لا تماثلها صنعة ولا يتلبس بها تقليد !

« والضحى • والليل إذا سجى • ما ودعك ربك وما قلى • وللآخرة خير لك من الأولى • ولسوف يعطيك ربك فترضى » ••

يقسم الله ــ سبحانه ــ بهذين الآنين الرائقين الموحيين ، فيربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس • ويوحي إلى القلب البشري بالحياة الشاعرة المتجاوبة مع هذا الوجود الجميل الحي ، المتعاطف مع كل حي • فيعيش ذلك القلب في أنس من هذا الوجود ، غير موحش ولا غريب فيه فريد •• وفي هذه السورة بالذات يكون

---

(١) من كتاب التصوير الفني في القرآن ص ١٠٥ من الطبعة الرابعة .

لهذا الأنس وقعه . فظل الأنس هو المراد مده . وكأنما يوحي الله لرسوله ﷺ منذ مطلع السورة ، أن ربه أفاض من حوله الأنس في هذا الوجود ، وأنه من ثَمَّ غير مجفو فيه ولا فريد .

وبعد هذا الايحاء الكوني يجيء التوكيد المباشر « ما ودعك ربك وما قلى ». ما تركك ربك ولا جفاك ـ كما زعم من يريدون إيذاء روحك وإيجاع قلبك وإقلاق خاطرك ـ وهو « ربك » وأنت عبده المنسوب إليه ، المضاف إلى ربوبيته ، وهو راعيك وكافلك ..

وما فاض معين فضله وفيض عطائه . فإن لك عنده في الآخرة من الحسنى خيراً مما يعطيك منها في الدنيا : « وللآخرة خير لك من الأولى » .. فهو الخير أولاً وأخيراً ..

وإنه ليدّخر لك ما يرضيك من التوفيق في دعوتك ، وإزاحة العقبات من طريقك ، وغلبة منهجك ، وظهور حقك .. وهي الأمور التي كانت تشغل باله ﷺ وهو يواجه العناد والتكذيب والأذى والكيد .. والشماتة .. « ولسوف يعطيك ربك فترضى » ..

ويمضي سياق السورة يذكّر الرسول ﷺ ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق ، ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به ، ومودته له ، وفيضه عليه ، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهي . وهو متاع فائق تحييه الذكرى على هذا النحو البديع :

« ألم يجدك يتيماً فآوى ؟ ووجدك ضالاً فهدى ؟ ووجدك عائلاً فأغنى ؟ ».

انظر في واقع حالك ، وماضي حياتك .. هل ودّعك ربك وهل قلاك ـ حتى قبل أن يعهد إليك بهذا الأمر ؟ ـ ألم تحط يتمك رعايته ؟ ألم تدرك حيرتك هدايته ؟ ألم يغمر فقرك عطاؤه ؟ لقد ولدت يتيماً فآواك إليه ، وعطّف عليك القلوب حتى قلب عمك أبي طالب وهو على غير دينك !

ولقد كنت فقيراً فأغنى الله نفسك بالقناعة ، كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك ـ خديجة رضي الله عنها ـ عن أن تحس الفقر ، أو تتطلع إلى ما حولك من ثراء !

ثم لقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد ، منحرفة السلوك والأوضاع ، فلم تطمئن روحك إليها . ولكنك لم تكن تجد لك طريقاً واضحاً مطمئناً ، لا فيما عند الجاهلية ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى الذين حرفوا وبدّلوا وانحرفوا وتاهوا .. ثم هداك الله بالأمر الذي أوحى به اليك ، وبالمنهج الذي يصلك به .

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشّعاب فيها هي المنة الكبرى التي لا تعدلها منّة ، وهي الراحة والطمأنينة من القلق الذي لا يعدله قلق ، ومن التعب الذي لايعدله تعب ، ولعلها كانت بسبب ما كان رسول الله ﷺ يعانيه في هذه الفترة ، من انقطاع الوحي وشماتة المشركين ووحشة الحبيب من الحبيب . فجاءت هذه تذكرهُ وتطمئنهُ على أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه ، وهو لم يتركه من قبل في الـحَيْرة والتيه !

وبمناسبة ما ذكّره ربه بإيوائه من اليتم ، وهدايته من الـحَيْرة وإغنائه من الـعَيْلة .. يوجهه ويوجه المسلمين من ورائه إلى رعاية كل يتيم . وإلى كفاية كل سائل . وإلى التحدث بنعمة الله الكبرى عليه وفي أولها الهداية إلى هذا الدين : « فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدّث » ..

وهذه التوجيهات إلى إكرام اليتيم والنهي عن قهره وكسر خاطره وإذلاله ، وإلى إغناء السائل مع الرفق به والكرامة ، كانت ـ كما ذكرنا مراراً ـ من أهم ايحاءات الواقع في البيئة الجاحدة المتكالبة ، التي لا ترعى حق ضعيف غير قادر على حماية حقه بسيفه ! حيث رفع الاسلام هذه البيئة بشرعة الله إلى الحق والعدل ، والتحرج والتقوى ، والوقوف عند حدود الله ، الذي يحرس حدوده ويغار عليها ، ويغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعاف الذين لا يملكون قوة ولا سيفاً يذودون به عن هذه الحقوق .

وأما التحدث بنعمة الله ـ وبخاصة نعمة الهدى والإيمان ـ فهو صورة من صور الشكر للمنعم ، يكملها البر بعباده ، وهو المظهر العملي للشكر ، والحديث الصامت النافع الكريم ..

والميزة الثانية :

اتّبع الشهيد في تفسيره خطة محدّدة واضحة حيث يمهّد للسورة التي يفسر ، ويدخل بعدها في الموضوع ، ثم يعود في النهاية إلى الختام فيربط بين البداية والنهاية إلى أن يكشف في روعة وإبداع عما بين البدء والختام من تناسق وانسجام، لا يلمحهما أو يدرك سرهما ومغزاهما إلا من فتح الله عليه وألهمه كثيراً من إشراقات العارفين .

يقول في مطلع تفسير سورة البقرة :

« في عدد قليل من الكلمات والأسطر المعدودات في أول السورة ، ترتسم ثلاث صور لثلاثة أنماط من النفوس ، كل نمط منها نموذج حي لمجموعات ضخمة من البشر ، نموذج أصيل عميق ، متكرر في كل زمان ومكان . حتى ما تكاد البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها تخرج من تلك الأنماط الثلاثة .

وفي تلك الكلمات القلائل والأسطر المعدودات ترتسم هذه الصور واضحة كاملة نابضة بالحياة ، دقيقة السمات ، مميزة الصفات . حتى ما يبلغ الوصف المطوّل والإطناب المفصّل شيئاً وراء هذه اللمسات السريعة المبينة ، الجميلة النسق، الموسيقية الإيقاع .. إنها صور : المتقين ، والكافرين ، والمنافقين » .

فإذا انتهى من عرض هذه الصور الثلاث دعا الناس كافة إلى الصورة الأولى ، وناداهم كافة أن يقبلوا إليها ، وتحدّى الذين لا يؤمنون ، وأنذرهم عذاباً مفزعاً مرهوباً ، وبشّر المؤمنين وصوّر ما ينتظرهم من نعيم عظيم .

تلك مجمل الخطوط الرئيسية في هذا الدرس الأول من سورة البقرة، فلنحاول أن نتناول هذا الإجمال بشيء من التفصيل » .

ويقول في ختام سورة البقرة :

« وبعد : فهذا ختام سورة البقرة ، السورة التي بدأت بقوله تعالى : (ألم .

ذلك الكتاب لا ريب فيه • هدى للمتقين • الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون • والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون) لتنتهي بقوله تعالى : (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) •• وهو ختام يتناسق مع البدء كأنهما دفتا كتاب!

وهي السورة التي حوت الكثير من تكاليف الأمة المسلمة ، وتشريعاتها في شتى شؤون الحياة •• وفي ختامها يجيء ذلك النص المفصح عن الحد الفاصل بين النهوض بالتكاليف والنكول عن أدائها ، ويسجل أن الله لا يريد إعنات هذه الامة ولا إثقالها : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » •

وهي السورة التي ورد فيها بعض قصص بني اسرائيل ، وما أنعم الله بـه عليهم من فضل ، وما قابلوا به هذا الفضل من جحود ، وما كلفهم به الله من كفارات بلغ بعضها حد القتل :

« فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » •• وفي ختامها يرد ذلك الدعـاء الخاشع من المؤمنين :

« ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا مالاطاقة لنا به ،واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين » •

وأخيراً فهي السورة التي بدأت بعرض نماذج للنفس المؤمنة والنفس الكافرة والنفس المنافقة • وهي تنتهي بدعاء النفوس المؤمنة الإيمان كله ، الإيمان الخالص لوجه الله ، لا رياء فيه ولا نفاق •• دعاء هـذه النفوس بالنصر « على القـوم الكافرين » •

إنه التوافق المطلق الدقيق بين البدء والختام منسقاً أبدع تنسيق » •

والميزة الثالثة :

فهمه الواعي لشمول القرآن لكل شأن من شؤون الحياة حتى جاء تفسيره في ثماني مجلدات كبيرة مبيناً ما ورد في الكتاب الكريم بصورة من الصفاء والإشراق

والعمق والوضوح تغني عن الرجوع إلى حشد من كتب الفكر والدراسات الاسلامية المتخصصة العديدة .

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن لصلة المفسر الشهيد بجماعة الاخوان المسلمين أثراً كبيراً فيما قدم وأبدع في هذا المجال الشمولي من تأويل ، حيث يتضح ذلك مما ورد في رسائل مؤسس الجماعة الاول الإمام الشهيد حسن البنا الذي ضمّنها فكراً وثقافة عامة وأسساً في العقيدة والسياسة والعمل ؛ تؤكد الفهم المتكامل للإسلام واستيعابه لكل جوانب الحياة عقيدة ونظاماً وعملاً ، بحيث يتناول شؤون السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والجندية وما إلى ذلك في صورة متكاملة .

وكان هذا الفهم الواعي لتكامل الإسلام وعمومه وشموله هو الذي ركّز عليه المفسر الشهيد ، وأكده في أكثر من موضع وهو يدعو لاستئناف الحياة الاسلامية ، ويستحث مسيرة الخير أن تمضي في طريق الجهاد لوضع شريعة الله موضع التطبيق ، لتسعد البشرية من جديد بقيادة إسلامية رشيدة وحكم إيماني يفيض على الخَلْق الرفق والرحمة والمعرفة والعافية والسكينة والكرامة :

« هذا القرآن هو كتاب هذه الدعوة . هو روحها وباعثها . وهو قوامها وكيانها . وهو حارسها وراعيها . وهو بيانها وترجمانها . وهو دستورها ومنهجها . وهو في النهاية المرجع الذي تستمد منه الدعوة ـ كما يستمد منه الدعاة ـ وسائل العمل ، ومناهج الحركة ، وزاد الطريق ..

ولكن ستظل هنالك فجوة عميقة بيننا وبين القرآن ما لم تتمثل في حسّنا ، ونستحضر في تصوّرنا أنّ هذا القرآن خوطبت به أمة حية ، ذات وجود حقيقي ، ووجهت به أحداث واقعية في حياة هذه الأمة ، ووجهت به حياة إنسانية حقيقية في هذه الارض ، وأديرت به معركة ضخمة في داخل النفس البشرية وفي رقعة من الأرض كذلك . معركة تموج بالتطورات والانفعالات والاستجابات .

وسيظل هنالك حاجز سميك بين قلوبنا وبين القرآن ، طالما نحن نتلوه أو نسمعه كأنه مجرد تراتيل تعبدية مهوّمة ، لا علاقة لها بواقعيات الحياة البشرية

اليومية التي تواجه هذا الخلق المسمى بالانسان ، والتي تواجه هذه الأمة المسماة بالمسلمين ! بينما هذه الآيات نزلت لتواجه نفوساً ووقائع وأحداثاً حية ، ذات كينونة واقعية حية ، ووجهت بالفعل تلك النفوس والوقائع والأحداث توجيهاً واقعياً حياً ، نشأ عنه وجود ذو خصائص في حياة « الانسان » بصفة عامة ، وفي حياة الأمة المسلمة بوجه خاص .

ومعجزة القرآن البارزة تكمن في أنه نزل لمواجهة واقع معين في حياة أمة معينة ، في فترة من فترات التاريخ محددة ، وخاض بهذه الأمة معركة كبرى حولت تاريخها وتاريخ البشرية كله معها ، ولكنه ــ مع هذا ــ يعايش ويواجه ويملك أن يوجه الحياة الحاضرة ، كأنما هو يتنزل اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة في شؤونها الجارية ، وفي صراعها الراهن مع الجاهلية من حولها ، وفي معركتها كذلك في داخل النفس ، وفي عالم الضمير ، بنفس الحيوية ، ونفس الواقعية التي كانت له هناك يومذاك .

ولكي نحصل نحن من القرآن على قوته الفاعلة ، وندرك حقيقة ما فيه من الحيوية الكامنة ، ونتلقى منه التوجيه المدّخر للجماعة المسلمة في كل جيل ــ ينبغي أن نستحضر في تصورنا كينونة الجماعة المسلمة الأولى التي خوطبت بهذا القرآن أول مرة .. كينونتها وهي تتحرك في واقع الحياة وتواجه الأحداث في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها ، وتتعامل مع أعدائها وأصدقائها ، وتتصارع مع شهواتها وأهوائها ، ويتنزل القرآن حينئذ ليواجه هذا كله ويوجه خطاها في أرض المعركة الكبيرة ، مع نفسها التي بين جنبيها ، ومع أعدائها المتربصين بها في المدينة وفي مكة وفيما حولهما .. وفيما وراءهما كذلك ..

أجل .. يجب أن نعيش مع تلك الجماعة الأولى،وتمثلها في بشريتها الحقيقية ، وفي حياتها الواقعية ، وفي مشكلاتها الانسانية ، ونتأمل قيادة القرآن لها قيادة مباشرة في شؤونها اليومية وفي أهدافها الكلية على السواء، ونرى كيف يأخذ القرآن بيدها خطوة خطوة وهي تعثر وتنهض ، وتحيد وتستقيم ، وتضعف وتقاوم ، وتتألم وتحتمل ، وترقى الدرج الصاعد في بطء ومشقة ، وفي صبر ومجاهدة ، تتجلى فيها كل خصائص الإنسان ، وكل ضعف الانسان ، وكل طاقات الانسان .

ومن ثَمَّ نشعر أننا نحن أيضا مخاطبون بالقرآن في مثل ما خوطبت به الجماعة الأولى ، وأن بشريتنا التي نراها ونعرفها ونحسها بكل خصائصها تملك الاستجابة للقرآن ، والانتفاع بقيادته في ذات الطريق .

إننا بهذه النظرة سنرى القرآن حياً يعمل في حياة الجماعة المسلمة الأولى ، ويملك أن يعمل في حياتنا نحن أيضاً ، وسنحس أنه معنا اليوم وغداً . وأنه ليس مجرد تراتيل تعبدية مهوّمة بعيدة عن واقعنا المحدّد ، كما أنه ليس تاريخاً مضى وانقضى وبطلت فاعليته وتفاعله مع الحياة البشرية .

إن القرآن حقيقة ذات كينونة مستمرة كهذا الكون ذاته . الكون كتاب الله المنظور ، والقرآن كتاب الله المقروء . وكلاهما شهادة ودليل على صاحبه المبدع ، كما أن كليهما كائن ليعمل .. والكون بنواميسه ما زال يتحرك ويؤدي دوره الذي قدّره له بارئه : الشمس ما زالت تجري في فلكها وتؤدي دورها ، والقمر والأرض وسائر النجوم والكواكب لا يمنعها تطاول الزمان من أداء دورها ، وجدّة هذا الدور في المحيط الكوني .. والقرآن كذلك أدّى دوره للبشرية وما يزال هو هو . فالانسان ما يزال هو هو كذلك . وما يزال هوهو في حقيقته وفي أصل فطرته . وهذا القرآن هو خطاب الله لهذا الانسان ــ فيمن خاطبهم الله به ــ خطاب لا يتغير ، لأن الانسان ذاته لم يتبدل خلقاً آخر ، مهما تكن الظروف والملابسات قد تبدلت من حوله ، ومهما يكن هو قد تأثر وأثر في هذه الظروف والملابسات .والقرآن يخاطبه في أصل فطرته وفي أصل حقيقته التي لا تبديل فيها ولا تغيير ، ويملك أن يوجه حياته اليوم وغداً ، لأنه معدٌّ لهذا ، بما أنه خطاب الله الأخير ، وبما أن طبيعته كطبيعة هذا الكون ثابتة متحركة بدون تبديل .

وإذا كان من المضحك أن يقول قائل عن الشمس مثلاً : هذا نجم قديم « رجعي » يحسن أن يستبدل به نجم جديد « تقدمي » أو أن هذا « الانسان » مخلوق قديم « رجعي » يحسن أن يستبدل به كائن آخر « تقدمي » لعمارة هذه الأرض ! ! !

إذا كان من المضحك أن يقال هذا أو ذاك ، فأولى أن يكون هذا هو الشأن في القرآن ، خطاب الله الأخير للإنسان » [١] !!

والميزة الرابعة :

دأب بعض المفسرين على تفسير القرآن تفسيراً علمياً أخضعوا معه نصوص القرآن للنظريات العلمية أو فسروا النظريات العلمية وفقاً لما ورد في القرآن ، ودأب آخرون على رفض المضمون العلمي في القرآن جملة وتفصيلاً ، فجاء المفسر الشهيد وأشار إلى ما يجوز وما لايجوز في هـذا المجال بأسلوب يدل على اطـلاع واسع وثقافة ذات شُعَب كثيرة وأبعـاد عميقة . ولقد راح يؤكد أن القرآن ليس كتاب طب أو فلك أو كيمياء ولكنه كتاب الحياة بكل شأن من شؤونها ، مع الاشارة الذكية الواعية لما حواه من إعجاز علمي وَرَدَ على هيئة لمحات وإشارات وصور تستثير العقل وتنبه الحس فيما يتناول كثيراً من مظاهر الطبيعة ونواميس الكون وأنظمة الحياة .

ولو كان العرب عند نزول القرآن أو كانت الانسانية على مستوى من النضوج العلمي ومعرفة بالتجارب المخبرية لجاءت مثل تلك الآيات معجزة أخـرى تضاف لإعجاز القرآن في أكثر من ميدان ، مما يؤكد ويوحي بروعة هذا الدين وصدق نبوة صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه .

ولقد شفى المفسر الشهيد الغليلَ وبلغ القمة في الوعي والإدراك والشفافية وهو يطرق هذا الباب بثقة ويلجه باتزان وبصيرة ويقين .

« الآن نواجه النصوص القرآنية في هذا الدرس بالتفصيل :

« يسألونك عن الأهلة . قل : هي مواقيت للناس والحج . وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها . ولكن البر من اتقى . وأتوا البيوت من أبوابها . واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

---

(١) من مقدمة سورة آل عمران ـ في ظلال القرآن الطبعة السابعة .

تقول بعض الروايات : أن النبي ﷺ سئل ذلك السؤال الذي أسلفناه عن الأهلة : ظهورها ونموها وتناقصها .. ما بالها تصنع هذا ؟ وتقول بعض الروايات : إنهم قالوا : يا رسول الله لم خُلقت الأهلة ؟ – وقد يكون هـذا السؤال في صيغته الأخيرة أقرب إلى طبيعة الجواب – فقال الله لنبيه ﷺ : « قل : هي مواقيت للناس والحج » .

مواقيت للناس في حلهم وإحرامهم، وفي صومهم وفطرهم ، وفي نكاحهم وطلاقهم وعدتهم ، وفي معاملاتهم وتجاراتهم وديونهم .. وفي أمور دينهم وأمـور دنياهم على سواء .

وسواء كان هذا الجواب رداً على السؤال الأول أو على السؤال الثـاني ، فهو في كلتا الحالتين اتجه إلى واقـع حياتهم العملي لا إلى مجرد العـلم النظري ، وحدثهم عن وظيفة الأهلة في واقعهم وفي حياتهم ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر وكيف تتم وهي داخلة في مدلول السؤال : ما بال القمر يبدو هلالاً ؟.. إلخ.

كذلك لم يحدثهم عن وظيفة القمر في المجموعة الشمسية أو في توازن حركـة الأجرام السماوية ؛ وهي داخلة في مضمون السؤال : لماذا خلق الله الأهلة ؟

فما هو الإيحاء الذي ينشئه هذا الاتجاه في الإجابة ؟

لقد كان القرآن بصدد إنشاء تصور خاص ، ونظام خاص ، ومجتمع خاص ، كان بصدد إنشاء أمة جديدة في الأرض ، ذات دور خاص في قيادة البشرية ، لتنشىء نموذجاً معيناً من المجتمعات غير مسبوق ، ولتعيش حياة نموذجية خاصة غير مسبوقة، ولتقر قواعد هذه الحياة في الأرض ، وتقود اليها الناس .

والاجابة « العلمية » عن هـذا السؤال ربما كانت تمنح السائلين علماً نظريـاً في الفلك ، إذا هم استطاعوا – بما كان لديهم من معلومات قليلة في ذلك الحين – أن يستوعبوا هذا العلم .

ولقد كان ذلك مشكوكاً فيه كل الشك ، لأن العلم النظري من هذا الطراز في حاجة إلى مقدمات طويلة ، كانت تعد بالقياس إلى عقلية العالم كله في ذلك الزمان معضلات .

من هنا عدل عن الإجابة التي لم تتهيأ لها البشرية ، ولا تفيدها كثيراً في المهمة الأولى التي جـاء القرآن من أجلهـا ، وليس مجالها على أية حال هو القرآن ؛ إذ القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية . ولم يجيء ليكون كتاب علم فلكي أو كيماوي أو طبي .. كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم ، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يتلمسوا مخالفاته لهذه العلوم .

إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله . إن مجاله هو النفس الإنسانية والحياة الانسانية . وإن وظيفته أن ينشىء تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه ، ولوضع الانسان في هذا الوجود وارتباطه بربه ، وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته .. ومن بينها طاقته العقلية ، التي تقوم هي بعد تنشئتها على استقامة ، وإطلاق المجال لها لتعمل ــ بالبحث العلمي ــ في الحدود المتاحة للإنسان وبالتجريب والتطبيق ، وتصل الى ما تصل اليه من نتائج ، ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال.

ان مادة القرآن التي يعمل فيها هي الانسان ذاته : تصوره واعتقاده ، ومشاعره ومفهوماته ، وسلوكه وأعماله ، وروابطه وعلاقاته .. أما العلوم المادية ، والإبداع في عالم المـادة بشتى وسائله وصنوفه ؛ فهي موكولة إلى عقل الإنسان وتجاربـه وكشوفه وفروضه ونظرياته . بما أنها أساس خلافته في الأرض وبما أنه مهيأ لهـا بطبيعة تكوينه .. والقرآن يصحح له فطرته كي لا تنحرف ولا تفسد ، ويصحح له النظام الذي يعيش فيه كي يسمح له باستخدام طاقاته الموهوبة له ، ويزوده بالتصور العام لطبيعة الكون وارتباطه بخالقه ، وتناسق تكوينه ، وطبيعة العلاقة القائمة بين أجزائه ، وهو ــ أي الانسان ــ أحد أجزائه ، ثم يدع له أن يعمل في إدراك الجزئيات والانتفاع بها في خلافته .. ولا يعطيه تفصيلات لأن معرفة هذه التفصيلات جزء من عمله الذاتي .

وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن ، الذين يحاولون أن يضيفوا اليه ما ليس منه ، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد اليه ، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها .. كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه .

ان القرآن كتاب كامل في موضوعه • وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها•• لأنه هو الانسان ذاته الذي يكشف هذه المعلومات وينتفع بها •• والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الانسان • والقرآن يعالج بناء هذا الانسان نفسه • بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره • كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الانسان بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه • وبعد أن يوجد الانسان السليم التصور والتفكير والشعور ، ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط ، يتركه القرآن يبحث ويجرب ، ويخطىء ويصيب في مجال العلم والبحث والتجريب وقد ضمن له موازين التصور والتدبر والتفكير الصحيح •

كذلك لايجوز أن نعلّق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن أحياناً عن الكون في طريقه لانشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه ، وطبيعة التناسق بين أجزائه •• لا يجوز أن نعلق هذه الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن ، بفروض العقل البشري ونظرياته ، ولا حتى بما يسميه « حقائق علمية » مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة في نظره •

ان الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة • أما ما يصل اليه البحث الانساني ــ أيا كانت الأدوات المتاحة له ــ فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة ، وهي مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها••فمن الخطأ المنهجي ــ بحكم المنهج العلمي الانساني ذاته ــ أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية ، وهي كل ما يصل اليه العلم البشري •

هذا بالقياس إلى « الحقائق العلمية » •• والأمر أوضح بالقياس الى النظريات والفروض التي تسمى « علمية » •• ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات الفلكية ، وكل النظريات الخاصة بنشأة الانسان وأطواره ، وكل النظريات الخاصة بنفس الانسان وسلوكه •• وكل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها •• فهذه كلها ليست « حقائق علمية » حتى بالقياس الإنساني ؛ وإنما هي نظريات وفروض • كل قيمتها أنها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحيوية أو النفسية أو الاجتماعية ، إلا أن يظهر فرض آخر يفسر قدراً أكبر من الظواهر ،

أو يفسر تلك الظواهر تفسيراً أدق • ومن ثـم فهي قابلة دائمـاً للتغيير والتعديل والنقص والإضافة ، بل قابلة لأن تنقلب رأساً على عقب ، بظهور أداة كشف جديدة ، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة •

وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من ظريات متجددة متغيرة ، أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا ـ تحتوي أولاً على خطأ منهجي أساسي • كما أنها تنطوي على معان ثلاثة ، كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم :

الاولى : هي الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع • ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم • أو الاستدلال له مـن العلم • على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه ، ونهائي في حقائقه • والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته الأمس ، وكل ما يصل اليه غـير نهائي ولا مطلق ، لأنه مقيد بوسط الانسان وعقله وأدواته ، وكلها ليس من طبيعتها أن تعطي حقيقة واحدة نهائية مطلقة •

والثانية : سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته • وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الانسان بناء يتفق ـ بقدر ما تسمح طبيعة الانسان النسبية ـ مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله ، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره ، ويستخدم بعض نواميسه في خلافته ، نواميسه التي تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق ، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة !

والثالثة : هي التأويل المستمر ـ مع التمحل والتكلف ـ لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بهـا وراء الفروض والنظريات التي لاتثبت ولا تستقر ، وكل يوم يجد فيها جديد •

وكل أولئك لايتفق وجلال القرآن ، كما أنـه يحتوي على خطأ منهجي كما أسلفنـاه •

ولكن هـذا لايعني ألا ننتفـع بما يكشفه العلم مـن ظريات ومن حقائق

عن الكون والحياة والانسان في فهم القرآن .. كلا ! إن هذا ليس هو الذي عنينا بذلك البيان . ولقد قال الله سبحانه : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .. ومن مقتضى هذه الاشارة أن نظل تتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس ، من آيات الله ، وأن نوسع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصورنا .

فكيف ، ودون أن نعلق النصوص القرآنية النهائية المطلقة بمدلولات ليست نهائية ولا مطلقة ؟ هنا ينفع المثال .

يقول القرآن الكريم مثلا : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » .. ثم تكشف الملاحظات العلمية أن هناك موافقات دقيقة وتناسقات ملحوظة بدقة في هذا الكون.. الأرض بهيئتها هذه وببعد الشمس عنها هذا البعد ، وبعد القمر عنها هذا البعد ، وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها ، وبسرعة حركتها هذه ، وبميل محورها هذا ، وبتكوين سطحها هذا .. وبآلاف من الخصائص .. هي التي تصلح للحياة وتوائمها .. فليس شيء من هذا كله فلتة عارضة ولا مصادفة غير مقصودة .. هذه الملاحظات تفيدنا في توسيع مدلول : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » وتعميقه في تصورنا .. فلا بأس من تتبع مثل هذه الملاحظات لتوسيع هذا المدلول وتعميقه.. وهكذا .

هذا جائز ومطلوب .. ولكن الذي لايجوز ولا يصح علمياً ، هذه الأمثلة الأخرى :

يقول القرآن الكريم : « خلق الانسان من سلالة من طين » .. ثم توجد نظرية في النشوء والارتقاء لوالاس وداروين تفترض أن الحياة بدأت خلية واحدة ، وأن هذه الخلية نشأت في الماء ، وأنها تطورت حتى انتهت الى خلق الانسان .. فنحمل نحن هذا النص القرآني ونلهث وراء النظرية ، لنقول : هذا هو الذي عناه القرآن !!

لا .. إن هذه النظرية أولا ليست نهائية . فقد دخل عليها من التعديل في أقل من قرن من الزمان ما يكاد يغيرها نهائياً . وقد ظهر فيها من النقص المبني

على معلومات ناقصة عن وحدات الوراثة ـ التي تحتفظ لكل نوع بخصائصه ولا تسمح بانتقال نوع إلى نوع آخر ـ ما يكاد يبطلها ، وهي معرضة غداً للنقض والبطلان .. بينما الحقيقة القرآنية نهائية ، وليس من الضروري أن يكون هـذا معناها : فهي تثبت فقط أصل نشأة الانسان ولا تذكر تفصيلات هذه النشأة ، وهي نهائيـة في النقطة التي تستهدفها وهي أصل النشأة الانسانية .. وكفى .. ولا زيادة » (1) .

ان مثل هذا العرض الواضح والبيان المشرق النير لدليل على ثقافة علميـة واسعة الآفاق لا تقف عند حد الأسلوب الادبي والدراسات النظرية فحسب بـل تمتد الى أبعد من ذلك في آفاق العلم الحديث بصورة واعية وإيمان بصير .

والميزة الخامسة :

خلو التفسير من الخلافات الفكرية ، وبعده عن الجدل الفقهي الذي تبنّـاه عدد من أنصار المذاهب ، فجاء تفسيره صافياً واضحاً هدفه فهم كتاب الله وغـايته العمل بما فيه بعيداً عن طلب الغلبة ونشدان الفوز في زحمة الحوار والجدل .

والميزة السادسة :

عدم الخوض في جدل لغوي يتحول أحياناً إلى هدف حرفي لا وسيلة نافعة لفهم القرآن ؛ مما يطمس روح البحث عن الحقيقة والوصول إلى الغاية المرجوة من فهم كتاب الله .

« كل ما حاولته ألا أغرق نفسي في بحوث لغوية أو كلامية أو فقهية ، تحجب القرآن عن روحي وتحجب روحي عن القرآن » (2) .

والميزة السابعة :

خلو التفسير من «الاسرائيليات» والأساطير التي تشكل جزءاً من بعض التفاسير المعتمدة المعروفة ، ولهذه الميزة أثر كبير في تنقية العقيدة الاسلامية مما يثار حولها

---

(1) تفسير سورة البقرة الآية « ١٨٩ » « في ظلال القرآن » ـ الطبعة السابعة .

(2) مقدمة « في ظلال القرآن » ـ الطبعة الثانية .

من الذين يحاولون الاطلاع على الدراسات القرآنية والتفاسير ، فيضيعون بين العلم والخرافة والحقائق والاوهام :

« والقرآن : هذا الكتاب المعجز الجميل ، هو أنفس ماتحويه المكتبة العربية على الإطلاق ، فلا أقل من أن يعاد عرضه وأن ترد إليه جدّته ، وأن يستنقذ من ركام التفسيرات اللغوية والنحوية والفقهية والتاريخية والأسطورية أيضاً » !!

والميزة الثامنة :

أثبت المفسر الشهيد بأسلوبه الفذ وعرضه الجيد وشرحه الواضح ؛ الترابط المتين الدقيق بين أجـزاء « السورة الواحدة » . وقد نفى بالدليل وهــدم بوعي ما كان يزعمه أدعياء الثقافة الوالغون فيما يتقيؤه الأجنبي من ضلال من أن السورة الواحدة من سور القرآن لايربط بين أجزائها رابط ولا ينتظمها إطار متكامل وإنما هي نبذ مبعثرة من هنا وهناك :

تارة تتحدث عن النبي وأصحابه ، وثانية تورد قصة مــن قصص الأولين ؛ وثالثة تسوق أحكاماً وتشريعات معينة في مواضيع عديدة .

وقد ألهم الله المفسر الشهيد أن يبين روعة الترابط بين كل جزئية من جزئيات السورة الواحدة . كما أوضح أن العلاقة الوثيقة بين مايرد مــن آيات في السورة الواحدة لاتدركها النفوس المريضة والقلوب الغلف ؛ ولكنها أمر واضح كل الوضوح لكل من يمعن النظر في تجرد عن الهوى المنحرف وبعد عن الغاية الجانحة .

ونسوق مثالاً لذلك ما بينه المفسر الشهيد من ترابط بين أجزاء سورة الاسراء والموضوعات التي تناولتها :

« هذه السورة ــ سورةالاسراء ــ مكية،وهي تبدأ بتسبيح اللهوتنتهي بحمده، وتضم موضوعات شتى معظمها عن العقيدة ، وبعضها عن قواعد السلوك الفردي والجماعي وآدابه القائمة على العقيدة ، إلى شيء من القصص عن بني إسرائيل يتعلق بالمسجد الأقصى الذي كان إليه الإسراء . وطرف من قصة آدم وإبليس وتكريم الله للانسان .

ولكن العنصر البارز في كيان السورة ومحور موضوعها الأصيل هو شخص الرسول ـ ﷺ ـ وموقف القوم منه في مكة ٠ وهذا القرآن الذي جاء به وطبيعة هذا القرآن وما يهدي إليه ، واستقبال القوم له ٠ واستطراد بهـذه المناسبة إلى طبيعة الرسالة والرسل ، وإلى امتياز الرسالة المحمدية بطابع غير طـابع الخوارق الحسية وما يتبعها من هلاك المكذبين بهـا ٠ وإلى تقرير التبعة الفردية في الهدى والضلال الاعتقادي ، والتبعة الجماعية في السلوك العملي في محيط المجتمع ٠٠ كل ذلك بعد أن يعـذر الله ـ سبحانه ـ إلى الناس ، فيرسـل إليهم الرسل بالتبشير والتحذير والبيان والتفصيل « وكل شيء فصلناه تفصيلاً » ٠

ويتكرر في سياق السورة تنزيه الله وتسبيحه وحمده وشكر آلائـه ٠ ففي مطلعهـا :

« سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى٠٠» وفي أمر بني إسرائيل بتوحيد الله يذكرهم بأنهم من ذرية المؤمنين مع نوح « إنه كان عبداً شكوراً » ٠٠ وعند ذكر دعاوى المشركين عن الآلهة يعقب بقوله : « سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ، تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » ٠٠ وفي حكاية قـول بعض أهل الكتاب حين يتلى عليهم القرآن : « ويقولون : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا » ٠٠ وتختم السورة بالآية « وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً » ٠

والميزة التاسعة :

إن للدراسات النفسية والميدان التربوي والممارسة التعليمية والاطلاع الواسع لدى المفسر الشهيد أثراً في تحليل النفس الانسانية ، وفي تبيان ذلك عبر حديثه عن الناس وتصويره للأشخاص والنمـاذج البشرية الكثيرة التي يعرض لها القرآن في آيات الدعوة والإيمان ومحيط الحث على الخير ومجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٠

يتحدث المفسر عن المحور التربوي الخالص الذي تدور عليه سورة النـور فيقـول :

« والمحور الذي تدور عليه السورة كلهـا هو محور التربية . التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود . وترق إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيقة ، التي تصل القلب بنور الله وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة . والهدف واحد في الشدة واللين . هو تربية الضمائر ، واستجاشة المشاعر ، ورفع المقاييس الأخلاقية للحياة ، حتى تشف وترف ، وتتصل بنور الله .. وتتداخل الآداب النفسية الفردية ، وآداب البيت والأسرة ، وآداب الجماعة والقيادة . بوصفها نابعة كلها من معين واحد هو العقيدة في الله ، متصلة بنور واحد هو نور الله . وهي في صميمها نور وشفافية ، وإشراق وطهارة . تربية عناصرها من مصدر النور الأول في السموات والأرض . نور الله الذي أشرقت به الظلمات ، في السموات والأرض والقلوب ، والضمائر ، والنفوس ، والأرواح » .

ثم نراه يشرح وهو يفسر سورة الفرقان جانباً تربوياً ذا أثر هام فيقول :

« ولقد جاء القرآن بمنهاج كامل شامل للحياة كلها ، وجاء في الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية عن علم بها من خالقها . فجاء لذلك منسجمـاً وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة ، وهي في طريق نشأتهـا ونموهـا . ووفق استعدادها الذي ينمو يوماً بعد يوم في ظل المنهج التربوي الإلهي الدقيق . جاء ليكون منهج تربية ومنهج حياة لاليكون كتاب ثقافة يقرأ لمجرد اللذة أو لمجرد المعرفة. جاء لينفذ حرفاً حرفاً وكلمة كلمة ، وتكليفاً تكليفاً ، جاء لتكون آيته هي « الأوامر اليومية » التي يتلقاها المسلمون في حينها ليعملوا بها فور تلقيها ، كما يتلقى الجندي في ثكنته أو في الميدان « الأمر اليومي » مع التأثر والفهم والرغبة في التنفيذ ، ومع الانطباع والتكيف وفق ما يتلقاه ..

من أجل هذا كله نزل القرآن مفصـلاً ، يبين أول ما يبين عن منهجه لقلب

الرسول – ﷺ – ويثبته على طريقه ، ويتتابع على مراحل الطريق رتلاً بعد رتل، وجزءاً بعد جـزء :

« كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » .

والتنزيل هنا هو التتابع والتوالي وفق حكمة الله وعلمه بحاجات تلك القلوب واستعدادها للتلقي ..

ولقد حقق القرآن بمنهجه ذاك خوارق في تكييف تلك النفوس التي تلقته مرتلاً متابعاً ، وتأثرت به يوماً يوماً ، وانطبعت به أثراً أثراً ، فلما غفل المسلمون عن هذا المنهج ، واتخذوا القرآن كتاب متاع للثقافة ، وكتاب تعبد للتلاوة فحسب ، لا منهج تربيـة للانطباع والتكييف ومنهج حيـاة للعمل والتنفيذ ، لم ينتفعوا من القرآن بشيء ، لأنهم خرجوا عن منهجه الذي رسمه العليم الخبير » ..

والميزة العاشرة :

اعتماده عدداً من التفاسير ورجوعه إلى عدد من كتب الحديث يأخذ عنهـا بصورة علمية موثوقة ، تنم على اطلاع واسع ومعرفـة واعية ؛ جعلت من تفسيره موسوعة علمية يمكن الرجوع إليها والاطمئنان لما فيها من آراء وما قدمه خلالها من بيان وتأويل .

والميزة الحادية عشرة :

ولقد منّ الله على الشهيد بأن منحه فسحة من الزمن خالصة انصرف فيها إلى القرآن والدراسات القرآنية ، وامتحن في عقيدته وأتيح له في مجال البحث والاطلاع والتجربة ؛ ماجعله يصحح ما يقع فيه من خطأ ويتجنب ما يقـع فيه من رأي أملته العجلـة .

ولذا نراه يعلن في أكثر من مرة في جزء بعد جزء أو سورة بعد سورة أو طبعة بعد طبعة من « الظلال » أنه كان قد شرح الآية وفسرها بمفهوم وتأويل معين ، ثم يعود عن ذلك ويقول : إلا أنه الآن يرى غير ذلـك بعد أن اتضـح له وجه الحق

واستبان له نور الحقيقة عبر إلهام رباني أكرمه الله به أو تنبيه بشري من أخ تقي أو عالم جليل [1] .

والميزة الثانية عشرة :

اطلاع المفسر الشهيد على ما ورد في كتب الديانات الأخرى وفهمه لها ؛ مما مكّنه من الرد على ما ورد فيها من تحريف ، وإبراز الوجه المشرق للاسلام في دوامة ما يُلقي به التبشير المتجني في الساحة المسلمة من غثاء لينال من عقيدة الاسلام ودين التوحيد :

« إن الرب الإله في الاسلام لايطارد عباده مطاردة الخصوم والأعداء ، كآلهة الأولمب في نزواتها وثوراتها ، ولا يدبر لهم المكائد الانتقامية كما تزعم الأساطير المزورة في « العهد القديم » من الكتاب المقدس ، لأنه خاف أن تصبح لهم القدرة على عمل كل ما يريدون ، كما جاء في أسطورة برج بابل ، في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين » [2] .

والميزة الثالثة عشرة :

دراسته لكثير من تيارات الفكر المعاصر ؛ مما جعله يلقي الضوء عليها في ثنايا تفسيره ، ويعرّيها ويدحض باطلها ، ويكشف زيفها بأسلوب فيه من وسائل الاقناع والسخرية والدمغ ما يهزم به الفكر المنحرف ويزهق الضلال .

والميزة الرابعة عشرة :

إبراز التوافق والانسجام بين الانسان والكون والحياة :

أحسب أن الشهيد ــ بين المفسرين والمفكرين المسلمين أقدمين ومعاصرين ــ

---

(١) يلاحظ مثل هذا مايجده القارىء من هوامش في الطبعات الأخيرة من الظلال يعلن فيها المفسر الشهيد عن تراجعه عن عدد من الأفكار والآراء التي كان قد رآها .

(٢) في تفسيره « الرحمن الرحيم » من سورة الفاتحة ج١ « في ظلال القرآن » ــ الطبعة السابعة .

هو أول من بحث موضوع العلاقة بين « الانسان والكون والحياة » بصورة واضحة مفصلة وتعابير محددة معلنة ؛ حيث بيَّن أن الأصل في علاقة الانسان بالانسان أن تكون مودة ورحمة وإخاء ، وأن الأصل في علاقة الانسان بالكون والحياة لابد أن تكون انسجاماً وتوافقاً لا صداماً وانتقاماً وغضباً وأحقاداً .

فالانسان يخدم الانسان ويعمل على إسعاد أخيه ، والكون مسخر للانسان مذلل المناكب موطأ الأكناف ، والحياة بكل ما فيها من حركة وسكون وتفتح تقدم للانسان كل ما يرد وتهب له الخير والبركة والعطاء .

هذه هي خلاصة الفكر الاسلامي في موضوع علاقة الانسان بالكون والحياة كما فصلها الشهيد وبيَّنها في أكثر من موضع من تفسيره ومعظم أبحاثه ، في حين أوضح فكرة الغرب الوثني والمجتمع المادي حول هذه العلاقة .

يقول المفسر الشهيد عليه الرحمة : « ولقد تأخذنا في بعض الأحيان مظاهر خادعة لافتراق السنن الكونية ، حين نرى أن اتّباع القوانين الطبيعية يؤدي إلى النجاح مع مخالفة القيم الإيمانية .. هذا الافتراق قد لاتظهر نتائجه في أول الطريق ولكنها تظهر حتماً في نهايته .. وهذا ما وقع للمجتمع الاسلامي نفسه . لقد بدأ خط هبوطه من نقطة افتراقهما . وظل يهبط ويهبط كلما انفرجت زاوية الافتراق ، حتى وصل إلى الحضيض عندما أهمل السنن الطبيعية والقيم الايمانية جميعاً .

وفي الطرف الآخر تقف الحضارة المادية اليوم تقف كالطائر الذي يرف بجناح واحد جبار ، بينما جناحه الآخر مهيض ، فيرتقي في الإبداع المادي بقدر ما نكس في المعنى الانساني ، ويعاني من القلق والحيرة والأمراض النفسية والعصبية مايصرخ منه العقلاء هناك .. لولا أنهم لايهتدون إلى منهج الله ، وهو وحده العلاج والدواء » [1] .

---

(١) ص١١ ج١ من مقدمة « في ظلال القرآن » ـ الطبعة السابعة .

ويقول كذلك يرحمه الله : « إن عقيدة المسلم توحي إليه أن الله ربه قد خلق هذه القوى كلها لتكون له صديقاً مساعداً متعاوناً ، وأن سبيله إلى كسب هذه الصداقة أن يتأمل فيها ، ويتعرف اليها ، ويتعاون وإياها ، ويتجه معها إلى الله ربه وربها ، وإذا كانت هذه القوى تؤذيه أحياناً ، فإنما تؤذيه لأنه لم يتدبرها ولم يتعرف إليها ولم يهتد إلى الناموس الذي يسيرها .

ولقد درج الغربيون ــ ورثة الجاهلية الرومانية ــ على التعبير عن استخدام قوى الطبيعة بقولهم : « قهر الطبيعة » .. ولهذا التعبير دلالته الظاهرة على نظرة الجاهلية المقطوعة الصلة بالله ، وبروح الكون المستجيب لله . فأما المسلم الموصول القلب بربه الرحمن الرحيم ، الموصول الروح بروح هذا الوجود المسبّحة لله رب العالمين .. فيؤمن بأن هنالك علاقة أخرى غير علاقة القهر والجفوة . إنه يعتقد أن الله هو مبدع هذه القوى جميعاً . خلقها كلها وفق ناموس واحد ، لتتعاون على بلوغ الأهداف المقدرة لها بحسب هذا الناموس . وأنه سخرها للانسان ابتداء ويسر له كشف أسرارها ومعرفة قوانينها . وأن على الانسان أن يشكر الله كلما هيأ له أن يظفر بمعونة من إحداها . فالله هو الذي يسخرها له ، وليس هو الذي يقهرها : « سخر لكم ما في الأرض جميعاً » .

وإذن فإن الأوهام لن تملأ حسه تجاه قوى الطبيعة ، ولن تقوم بينه وبينها المخاوف .. إنه يؤمن بالله وحده ، ويعبد الله وحده ، ويستعين بالله وحده . وهذه القوى من خلق ربه . وهو يتأملها ويألفها ويتعرف أسرارها ، فتبذل له معونتها ، وتكشف له عن أسرارها . فيعيش معها في كون مأنوس صديق ودود .. وما أروع قول الرسول ــ ﷺ ــ وهو ينظر إلى جبل أحد : « هذا الجبل يحبنا ونحبه » . ففي هذه الكلمات كل ما يحمله قلب المسلم الأول محمد ــ ﷺ ــ من ودّ وألفة وتجاوب ، بينه وبين الطبيعة في أضخم وأخشن مجاليها »[١] .

---

(١) ص٢٠ ج١ تفسير سورة الفاتحة « في ظلال القرآن » ــ الطبعة السابعة .

والميزة الخامسة عشرة :

الروح الشفيف والتجربة الصادقة التي كتب الشهيد التفسير في أفيائها : من عمق يقين ، وصدق إيمان ، وصفاء عقيدة ، وصبر على البلاء .. فجاء تفسيره تجربة رائعة رائدة .

يتحدث عن الفتنة وهو أحد ضحاياها ، ويكتب عن الصبر على البلاء وهو علم عليه ، ويشرح قسوة الطغاة والظالمين والمرضى والمنحرفين ونار أولئك جميعاً تكوي صدره وتحرق جنبيه !!

ومن هنا كانت الروعة في تفسير الشهيد القائم على المعاناة الفذة والتجربة الشخصية الصادقة .. لايتحدث عن فرعون حديث المؤرخ وإنما حديث المبتلى ، ولا يكتب عن أصحاب الأخدود ما يكتبه القاص الذي يسرد حكاية أو يروي رواية وإنما يصور بريشة المفن البارع والأديب الرائع شخوص المعذبين وهو منهم ، ولهيب الظالمين يلفح جنوبهم والصديد يتنزى من صدره وكفيه !!

ولنقف مع الرجل الصابر لحظات وهو يفسر آيات من سورة الأحزاب ويحدثنا عن الفتنة والابتلاء :

« في معترك الحياة ومصطرع الأحداث كانت الشخصية المسلمة تصاغ . ويوماً بعد يوم وحدثاً بعد حدث كانت هذه الشخصية تنضج وتنمو وتتضح سماتها . وكانت الجماعة المسلمة التي تتكون من تلك الشخصيات تبرز إلى الوجود بمقوماتها الخاصة ، وقيمها الخاصة ، وطابعها المميز بين سائر الجماعات .

وكانت الاحداث تقسو على الجماعة الناشئة حتى لتبلغ أحياناً درجة الفتنة ، وكانت فتنة كفتنة الذهب ، تفصل بين الجوهر الأصيل والزبد الزائف ، وتكشف عن حقائق النفوس ومعادنها ، فلا تعود خليطاً مجهول القيم .

وكان القرآن الكريم يتنزل ، إبان الابتلاء أو بعد انقضائه ، يصور الأحداث ، ويلقي الأضواء على منحنياته وزواياه ، فتنكشف المواقف والمشاعر ، والنوايا والضمائر . ثم يخاطب القلوب وهي مكشوفة في النور عارية من كل رداء وستار ،

ويلمس فيها مواضع التأثر والاستجابة ، ويريها يوماً بعد يوم ، وحادثاً بعد حادث ، ويرتب تأثراتها واستجاباتها وفق منهجه الذي يريد .

ولم يترك المسلمون لهذا القرآن ، يتنزل بالأوامر والنواهي ، وبالتشريعات والتوجيهات ، جملة واحدة ، إنما أخذهم الله بالتجارب والابتلاءات ، والفتن والامتحانات ، فقد علم الله أن هذه الخليقة البشرية لاتصاغ صياغة سليمة ، ولاتنضج نضجاً صحيحاً ، ولا تصح وتستقيم على منهج إلا بذاك النوع من التربية التجريبية الواقعية ، التي تحفر في القلوب ، وتنقش في الأعصاب ، وتأخذ من النفوس ، وتعطي في معترك ومصطرع الأحداث . أما القرآن فيتنزل ليكشف لهذه النفوس عن حقيقة ما يقع ودلالته ، وليوجه تلك القلوب وهي منصهرة بنار الفتنة ، ساخنة بحرارة الابتلاء ، قابلة للطرق ، مطاوعة للصياغة » !!

ولعل المنطلق الإيماني الذي بات المفسر الشهيد يمثله بوضوح ، والعصبة القرآنية التي يُعد في طليعة روادها بين المعسكرين المصطرعين يساراً مادياً ملحداً ويميناً مظلماً حاقداً ــ يعيد إلى الأذهان الصورة والإطار الذي عُرف به المعسكران المتنازعان في فارس والروم .. والاسلام بينهما متآمر عليه .

* * *

ويعتبر « في ظلال القرآن » بحق فتحاً ربانياً ألهم الله صاحبه أن يكتبه ووهبه من وعي البصيرة ما يستشف به من المعاني والمفاهيم والأفكار مالم يسبقه إليه أحد .

ومن الواضح أن صدق الايمان وسعة الاطلاع وعمق التجربة وأصالة الموهبة.. كل ذلك جعل من « ظلال القرآن » تفسيراً متفرداً يمكن أن يوضع بكل إنصاف وطمأنينة قمة على التفاسير القديمة والحديثة على حد سواء .. ذلك أنه جمع الشمول والمعرفة والعذوبة والصفاء ، والدعوة إلى استئناف حياة اسلامية ووضع شريعة الله موضع التنفيذ في قالب سهل ممتنع ، يمكّن الأديب العالم أن يستمتع به ومنه يفيد ، والباحث الدارس للقرآن أن يلقى بغيته بين دفتيه .

لقد مر « في ظلال القرآن » بمراحل ثلاث من التأليف والدراسة والبحث ؛

فكان كما قيل : أولاً كتاب تفسير ، ثم كان ثانياً كتاب مسلم مفسر ، ثم كان ثالثاً وأخيراً كتاب رجل عقيدة وداعية مفسر ...

ولعل المطلع على مقدمة الطبعات الاولى من الكتاب والطبعات الأخيرة منه يدرك الفرق بين العطاءين والعمقين في التفسير والتأويل ...

ففي مقدمة الطبعة الثانية يعلن المفسر الشهيد أنها كانت مقدمة للطبعةالاولى ، ولم يجد ما يدعو إلى تقديم جديد ، أما في الطبعة الثالثة فقد مضى يوضح ويبين بشيء من التفصيل وشيء من التوكيد كيف عاش الرجل في ظلال القرآن ، وكيف تفيأ تلك الظلال في شفافية وصفاء وعمق حتى جاء هذا العطاء الرباني وتلك المنحة الالهية عطاء خيراً فياضاً ومنحة كريمة غامرة :

« لقد عشت أسمع الله ــ سبحانه ــ يتحدث إليّ بهذا القرآن .. أنا العبد القليل الصغير .. أي تكريم للانسان هذا التكريم العلوي الجليل ؟ أي رفعة للعمر يرفعها هذا التنزيل ؟ أي مقام كريم يتفضل به على الانسان خالقه الكريم ؟

وعشت ــ في ظلال القرآن ــ أنظر من علوّ إلى الجاهلية التي تموج في الأرض ، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة .. أنظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال ، وتصورات الأطفال ، واهتمامات الأطفال .. كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال ، ومحاولات الأطفال ، ولثغة الأطفال .. وأعجب ما بال هذا الناس ؟! ما بالهم يرتكسون في الحمأة الوبيئة ، ولا يسمعون النداء العلوي الجليل . النداء الذي يرفع العمر ويباركه ويزكيه ؟

عشت أتملى ــ في ظلال القرآن ــ ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود .. لغاية الوجود كله ، وغاية الوجود الانساني .. وأقيس إليه التصورات الجاهلية التي تعيش فيها البشرية ، في شرق وغرب ، وفي شمال وجنوب..وأسأل.. كيف تعيش البشرية في المستنقع الآسن ، وفي الدرك الهابط ، وفي الظلام البهيم . وعندها ذلك المرتع الزكي ، وذلك المرتقى العالي ، وذلك النور الوضيء ؟

وعشت ــ في ظلال القرآن ــ أحس التناسق بين حركة الانسان كما يريدها الله ، وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله .. ثم أنظر .. فأرى التخبط الذي تعانيه

البشرية في انحرافها عن السنن الكونية ، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريرة التي تملى عليها وبين فطرتها التي فطرها الله عليها . وأقول في نفسي : أي شيطان لئيم هذا الذي يقود خطاها إلى هذا الجحيم ؟ يا حسرة على العباد !!!

وعشت – في ظلال القرآن – أرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود .. أكبر في حقيقته ، وأكبر في تعدد جوانبه .. إنه عالم الغيب والشهادة ، لاعالم الشهادة وحده . وإنه الدنيا والآخرة ، لا هذه الدنيا وحدها .. والنشأة الانسانية ممتدة في شعاب هذا المدى المتطاول .. والموت ليس نهاية الرحلة وإنما هو مرحلة في الطريق. وما يناله الانسان من شيء في هذه الأرض ليس نصيبه كله ، إنما هو قسط من ذلك النصيب . وما يفوته هنا من الجزاء لايفوته هناك . فلا ظلم ولا بخس ولا ضياع .. على أن المرحلة التي يقطعها على ظهر هذا الكوكب إنما هي رحلة في كون حي مأنوس ، وعالم صديق ودود » .

ويمضي المفسر الشهيد يحدد معالم تفسيره ويوضح أولى منطلقاته التي بدأ منها سيرته في أفياء الظلال حتى ينتهي به المطاف إلى دعاء حار وضراعة صادقة يقول فيها :

« هذه بعض الخواطر والانطباعات من فترة الحياة في ظلال القرآن . لعل الله ينفع بها ويهدي . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » .

ولعل من فضل الله على الشهيد وتكريمه له أن يبدأ حياته بالعيش مع القرآن يتدبر مواطن الجمال فيه عبر كتابه « التصوير الفني في القرآن » وأن ينهي حياته مع القرآن يتدبر فيه مواطن العبرة وقواعد التنظيم وأسلوب الحركة وطريق البناء ومنهاج الحياة وهو يكتب أثره القيم « في ظلال القرآن » ...

وبعد ...

فمن الانصاف الذي لايحابي والأمانة العلمية التي لايشوبها من الزيغ أو الحقد أو الهوى شائبة أن نقول :

إذا كان لكل مفكر او اديب او عالم عمل يعتز به ويشرف ؛ فإن «في ظلال القرآن» لايعتبر قمة اعمال سيد قطب وحده بل قمة ماقدم العقل المؤمن واللسان العربي في عقيدة التوحيد الخالصة والفكر الاسلامي المعاصر والأدب العربي الحديث ...

آراء الشهيد وأفكاره

بين التنزيه المتشنج والتجني المقصود

آراء الشهيد وأفكاره

بين التنزيه المتشنج والتجني المقصود

إن البدهية التي ننطلق منها عند الحديث عن آراء الشهيد وما يقدمه لنا من فكر أنه بشر يخضع لكل مقاييس البشر ، وما يتمتعون به من صفات القوة والضعف والصواب والخطأ والآمال والآلام ، ومن هنا فليس لأحد أن يفرض علينا أجواء العصمة وهالات التنزيه ونحن نناقش آراء الشهيد ونلقي الضوء عليها درساً وتمحيصاً وشرحاً وتبياناً .

والذي نرفضه بإنصاف ونحن نقدم هذه الدراسة أن يصرّ خصوم الشهيد على اتهامه بما يمليه عليهم الهوى ؛ فينسبوا له مالم يقله ، أو يؤولوا رأيه وفق ما يحقق لهم تثبيت اتهامهم وتوكيد إساءتهم له وتجنيهم عليه .

كما نرفض بإنصاف كذلك أن يصر «أدعياء محبة» الشهيد ــ ولا أقول محبيه ــ أنه لا يجوز لأحد أن يناقش فكر الشهيد وأن يمحص آراءه في إطار توقع الخطأ فيما قدم وأعطى . ذلك أننا نظلم الرجل في الحالتين : حالة التجني عليه زوراً وبهتاناً، وحالة الدفاع عنه بغير الحق والخلق العلمي الرصين .

والصواب الذي نراه والحق الذي نعتقده ــ والله أعلم ــ أن الشهيد قد قدم للتراث الفكري الإسلامي المعاصر أرقى وأسمى ما يقدمه عقل بشري ناضج وقلب مؤمن كبير ، في ظروف متباينة وأحوال عديدة مختلفة كان بعضها من القسوة والشراسة بحيث لا تحتمله النفس البشرية ولا يطيقه الإنسان السوي في معظم الأحوال .

وعليه فإن بعض ما قد نلمحه في عطاء الشهيد من آراء تبدو غير مقبولة أو غير موافقة لما قال به بعض الفقهاء والعلماء ، له فيها أجر المجتهد الذي بذل جهده للوصول إلى ما يعتقده الحق وما يحسبه الصواب ، وهو أمر لا ينقص من قدر الرجل ،

ولا يغمطه حقه أو يهبط بمستواه أنه قمة الذين قدموا من نبضات قلوبهم ودفقات دمائهم وعصارة أفكارهم ما أراد به وجه الله وحده .. ولم يقصد به أحداً سواه .

وهذا الذي نسوقه بين يدي آراء الشهيد قبل تناولها هو ما نؤمله ونرجوه ، وهو الذي نعتقده ونراه ، ونحن لا نزكي على الله أحداً من خلقه ، به الاستعانة وإليه المصير .

* * *

لقد أخذ بعض ذوي الفكر من النقّاد على سيد قطب مآخذ ، ووقعوا له على آراء رأوا أنها ليست من الحق الذي يتبع ولا من الصواب الذي يقر عليه ..

ولا أحب أن أعرض هنا لما زعموه من أن سيداً لا يقر للفقهاء وأصحاب المذاهب بالفضل فذلك محض افتراء على رجل متواضع في كل ما قدم من عطاء فكري ، وقد بدأ تلميذاً على أولئك العلماء الأفذاذ يفيد منهم وينتفع بعلمهم حتى جاءت أفكارهم وآراؤهم في ثنايا ما قدم وأعطى .. الا أن ذلك لا يعني أن يجاري الرجل كل رأي فقهي رآه السابقون في ظروف سياسية أو اجتماعية خاصة ، مما لايخدش عقيدة ولا ينال من نص يحل الحلال ويحرم الحرام .

كما لا أحب أن أتناول زعم المغرضين الذين يرون بأن ما قدمه الشهيد يعد عطاء في باب الأدب لا في باب الفكر والعقيدة ، ذلك أن هذا الزعم متهافت يرد عليه العطاء الفكري الثر المركز الذي أثرى به المكتبة الإسلامية المعاصرة ، وقد عرضت لذلك عند الحديث عن خصائص عطاء الرجل الفكري ومميزاته التي ينفرد بها .

وليس من الإنصاف أن أتناول هنا الآراء التي قال بها الرجل يوماً ثم رجع عنها عبر إشارة في هامش أو تبيانٍ في ثنايا الصفحات ...

ولكن الأمور الجديرة بالبحث والمناقشة والرد والحوار تلك التي وردت في فصول من «المعالم» أو صفحات من «الظلال» وتنحصر أو تكاد تنحصر في المواضيع الهامة التالية :

الموضوع الأول : التكفير وهوية المجتمع

يرى البعض أن الرجل قد كفر المسلمين كافة إذا لم يعملوا في صف الجماعة التي ينتمي لها والحركة التي يعمل للإسلام من خلالها ، وأنه عدّ المجتمعات المعاصرة في ديار الاسلام مجتمعات جاهلية أفراداً وحكاماً وأنظمة .

ونحن هنا نورد ما قال به الشهيد وما نراه ونفرق بين كلمتي « الكفـر » و « الجاهلية » مع ما للكفر من درجات ومراتب تبدأ بالجحود والنكران وتنتهي بالكفر البواح .

لقد وردت مادة « جهل » في القرآن الكريم عبر كلمات ومواضع أحسبها عشرين موضعاً تنقص أو تزيد ، وقد جاءت في صيغ الكلمات التالية :

« يجهلون ، وتجهلون ، والجاهل ، والجاهلون ، وجهولا ، وبجهالة »

وكلها ترد بمدلولات مختلفة تبدأ بجهل الحقيقة الكبرى بوجود خالق الكون وتتفرع إلى معاني أخرى تتناول الطيش وعدم الاتزان والعبث ، وجهل الأمر أي عدم معرفته أو عدم العلم به .

وقد وردت أحيانا بمعنى سوء السلوك .. وواضح أن ذلك كله لا يخرجها عن الإطار العام للمعنى الأول ، والمفهوم الواضح للكلمة ، جهل الحقيقة .. وعدم الوصول إليها .

١ ــ « ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون » (١) .

٢ ــ « يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون » (٢) .

٣ ــ « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » (٣) .

---

(١) الآية ١١١ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١٣٨من سورة الاعراف .

(٣) الآية ٢٧٣ من سورة البقرة .

٤ ـ « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً »[1] .

٥ ـ « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها وأشفقنَ منها وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولاً »[2] .

٦ ـ « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة »[3] .

أما كلمة الجاهلية من نفس المادة فقد وردت في أربعة مواضع من الكتاب الكريم :

١ ـ « ثم أنزل عليكم من بعد الغمّ أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟ قل إن الأمر كله لله »[4] .

٢ ـ « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون »[5].

٣ ـ « وقَرْنَ في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى »[6] .

٤ ـ « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، فأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شيء عليماً »[7] .

هذا في الوقت الذي ينتشر فيه لفظ « الجاهلية » والحديث عنها في معظم ما قدم الشهيد من عطاء فكري بحيث يصعب حصر ذلك أو معرفته عدداً وبخاصة في ثنايا فصول « المعالم » وصفحات « الظلال » .

---

(١) الآية ٦٣ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٧٢ من سورة الاحزاب .
(٣) الآية ١٧ من سورة النساء .
(٤) الآية ١٥٤ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٥٠ من سورة المائدة .
(٦) الآية ٣٣ من سورة الاحزاب .
(٧) الآية ٢٦ من سورة الفتح .

وقد أثار ذلك العرض والتوسع في أوساط الجيل المسلم الجديد معاني كثراً ، بعضها يقوده في الطريق السويّ ، وبعضها يقوده إلى تطرف يؤدي به أحياناً إلى أبعد من الضلال •• فما بالنا لا نفهم الرجل على حقيقته فيما قدم من عطاء دون زيغ ولا جنوح الى التهلكة والبوار ؟!

وما بالنا كذلك لا نرد الرجل عبر عطائه إلى الحق إن رأينا في بعض ما قدم وأعطى ملامح للخطأ أو معالم من التطرف الذي قد يقودنا الى غير ما يحب الله ويرضى عن غير قصد من الشهيد ولا غاية •

لقد وردت كلمة « الجاهلية » في عطاء سيد قطب عند الحديث عن القيم والأنظمة والاخلاق التي تهيمن على « المجتمع الجاهلي اليوم » كما سيطرت على « المجتمع الجاهلي الأول » •

ولم يورد الشهيد كلمة « الجاهلية » في حق الأفراد ما يفهم منه تكفير الناس أو إخراجهم من ربقة الإيمان •• وقد وردت كلمة « الجاهلية » في بعض المواضع لدى الشهيد بمفهوم التخلف في الفكر والخلق والقيم وأساليب الحياة حيث يقول :

« ولا بد أن نبادر فنبين أن التشريع لا ينحصر فقط في الاحكام القانونية ــ كما هو المفهوم الضيق في الأذهان اليوم لكلمة الشريعة ــ فالتصورات والمناهج والقيم والموازين والعادات والتقاليد •• كلها تشريع يخضع الأفراد لضغطه • وحين يصنع الناس ــ بعضهم لبعض ــ هذه الضغوط ، ويخضع لها البعض الآخر منهم في مجتمع لايكون هذا المجتمع متحرراً • إنما هو مجتمع بعضه أرباب وبعضه عبيد ــ كما أسلفنا ــ وهو ــ من ثَمّ ــ مجتمع متخلف •• أو بالمصطلح الاسلامي « مجتمع جاهلي »[1]

إن للجاهلية مفاهيم متعددة ومعانيَ كُثُراً فما بال قوم يحملونها على معنى الكفر البواح دون سواه ! وإن للكفر نفسه مفاهيم متعددة ومعانيَ كُثُراً فما بال قوم يصرون على أن تحمل على معنى الشرك وعبادة غير الله ؟!

---

(1) ص ١٤٤ ، ١٤٥ من معالم في الطريق لسيد قطب . الطبعة الأولى . الناشرة مكتبة وهبة ١٩٦٤ .

وهذا ما سنعرض له بالإبانة والتفصيل بما يرضي ربنا إن شاء الله ...

إن أموراً بدهية عامة لا بد من الوقوف عندها والتثبت منها ونحن نطـرق أخطر موضوع يمس « الأفراد » و « الجماعة » و « المجتمع » بأسره .. وليس من الإنصاف ولا الأمانة العلمية أن تصدر الاحكام في ثورة من العاطفة أو سورة من الغضب أو تشنج من حقد صاخب :

« فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول »[1] .

لقد وردت كلمة الكفر و « الجاهلية » على لسان النبي ﷺ بمفهوم غير الذي يذهب اليه البعض اليوم وهو يطالع الكلمتين تردان في عطاء الشهيد سيد قطب .. فلماذا نظلم الرجل حين يورد هذين اللفظين ونحملهما على معنى الكفر البواح ونحن أمام موقفين للنبي الكريم يشرح لنا فيهما معنى « الكفر » ومعنى « الجاهلية » في وضوح لااَلـبْس فيه ولا غموض حين لا تعنيان الكفر البواح :

قال ﷺ : « انى رأيت الجنة ـ أو أريت الجنة ـ فتناولت عنقوداً ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ، ورأيت النار فلم أركاليوم منظراً قط ، ورأيت أكثر أهلها النساء ، قالوا : لم يا رسول الله ؟ قال : بكفرهن . قيل يكفرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير ويكفرن الإحسان،ولو أحسنتَ إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط »[2] .

وفي موقف آخر يقول النبي ﷺ لصحابي جليل من أصحابههو أبو ذر الغفاري رضي الله عنه : « إنك امرؤ فيك جاهلية » ! وذلك حين عير بلالاً بلون أمه وقال له يا ابن السوداء... ومفهوم الجاهلية هنا يشير الى روح الاستعلاء والتفاخر بالأحساب والأنساب دون النظر إلى مقياس التقوى .. ولا يمكن لعاقل أن يقول : لقد كفر

(١) الآية ٥٩ من سورة النساء .

(٢) من حديث رواه البخاري في « باب كفران العشير » وهو الزوج ، الجزء الثالث من صحيح البخاري .

أبو ذر وخرج من ربقة الاسلام بكلمته تلك ، وبرد الرسول الكريم عليه ووصفه له بأنه امرؤ فيه جاهلية ! ..

ولقد وردت كلمة الكفر بمعاني عدة ومفاهيم كثيرة على ألسنة الصحابة والعلماء ليس من بينها مفهوم الكفر البواح الذي يصر عليه المتنطعون من « الدعاة »، وسنعرض لهذا عند الحديث عن معنى قول الله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ...

إن مرتكب الكبيرة ليس بكافر..وهذا هو رأي أهل السنة والجماعة،ولا يقول بكفره غير جماعة الخوارج المنقرضة التي قاتلت علياً ومعاوية وحاربت الإسلام باسم الحرص على أحكام الاسلام ...

هذا إذا كان مرتكب الكبيرة لايحل ــ اعتقاداً ــ ماحرم الله ؛ فإن فعل ذلك كان كافراً لا لارتكابه الكبيرة بل لإنكاره معلوماً من الدين بالضرورة .

وهناك أمور قد يقع فيها الانسان فتخرجه من الاسلام أشار لها الفقهاء والعلماء بل بحثوها بالتفصيل وأهمها :[1]

« إن أقر بكلمة الكفر ، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، أو كذب صريح القرآن أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال ، أو عمل عملاً لايحتمل تأويلاً غير الكفر »[2] . ومعنى ذلك أن المسلمين اليوم ماداموا يشهدون بـ « لا اله الا الله محمد رسول الله » مؤمنون ولو وقعوا في المحرمات وارتكبوا المعاصي ولهم من الله العقاب الذي يستحقون وفق ما يرتكبون .

ويمكن أن نصف أمثال أولئك بكثير من الصفات التي تدمغهم:ابتداءً بالمخطئين وانتهاء بالعصاة والفسقة والظلمة والفجرة والمجرمين ، وما إلى ذلك مما نلقاه في لغتنا العربية بالألفاظ الدقيقة الموحية دون أن تصل بحال الى درجة الكفر التي لا يطلقها على من لا يستحقها الا من يبوء بها جهلاً أو عناداً .

---

(١) يمكن الرجوع الى « أحكام المرتد » للدكتور نعمان السامرائي .

(٢) رسالة التعاليم للامام حسن البنا تحت عنوان « إنما أريد بالفهم » .

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً »[1] .

وبين أيدينا بعد الآية التي أشرنا إليها أحاديث نبوية شريفة تقوم معالم في الطريق ومشاعل على الدرب تحول بيننا وبين الضلال أو الزيغ في هذا المضمار الواسع والميدان الرحب :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« الإيمان بِضْع وسبعون أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »[2] .

وعن عمر بن منبِّه عن سِوار بن شبيب قال :

« جاء رجل إلى ابن عمر فقال : إن هاهنا قوماً يشهدون عليَّ بالكفر ! قال : فقال : ألا تقول لا إله إلا الله فتكذبهم »[3] .

وعن أنس أن نبي الله ﷺ قال :

« يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم قال : يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير مايزن برة ، ثم قال: يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة »[4].

وعن أبي الأسود الدِّيلي أن أبا ذر رضي الله عنه قال :

« أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض وهو نائم ، ثم أتيته وقد استيقظ فقال : ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن

---

(١) الآية ١١٦ من سورة النساء .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم ، وعمر بن منبه وسوار بن شبيب ثقتان ترجم لهما ابن ابي حاتم .

(٤) قال الألباني : موقوف ، وإسناده صحيح على شرط الشيخين وقد اخرجاه في الصحيحين .

سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ؛ على رُغم أنف أبي ذر »[1] .

وكان أبو ذر إذا حدث بهذا قال : وإن رُغم أنف أبي ذر .

قال أبو عبد الله [2] : هذا عندالموت أو قبله إذا تاب وندم وقال : لا إله إلا الله غفر الله لـه .

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحرقات من جُهَينة ، فأدركت رجلاً فقال : لا إله إلا الله فطعنته ، فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « قال لا إله إلا الله وقتلته » ؟! قال : قلت : يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح !! قال : أفلا شققتَ عن قبله حتى تعلم أقالها أو لا ؟ فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ . قال : فقال سعد : وأنا والله لا أقتل مسلماً حتى يقتله ذو البطين يعني أسامة ، قال : قال رجل : ألم يقل الله تعالى : « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله » ؟ فقال سعد : قد قاتلنا حتى لاتكون فتنة ، وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة »[3] .

وعن صفـوان بن محرز أن جندب بن عبد الله البجلي « بعث إلى عسعس بن سلامة زمن فتنة ابن الزبير فقال: اجمع لي نفراً من إخوانك حتى أحدثهم، فبعث رسولاً إليهم ، فلما اجتمعوا جاء جندب وعليه برنس أصفر فقال : تحدثوا بما كنتم تحدثون به ، حتى دار الحديث ، فلما دار الحديث إليه حسر البرنس عن رأسه فقـال : إني أتيتكم ولا أريد أن أخبركم إلا عـن نبيكم ﷺ ، وأنهم التقوا فكان رجـل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله ، وإن رجلاً مـن

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب اللباس .

(2) هو الإمام البخاري .

(3) رواه مسلم .

المسلمين قصد غفلته ، قال : وكنا نحدث أنه أسامة بن زيد ، فلما رفع عليه السيف قال : لا إله إلا الله ، فقتله ، فجاء البشير إلى النبي ﷺ فسأله فأخبره خبر الرجل كيف صنع ، فدعاه فسأله فقال : لم قتلته ؟ فقال : يا رسول الله أوجع في المسلمين فقتل فلاناً وفلاناً وسمى له نفراً ، وإني حملت عليه فلما رأى السيف قال : لا إله إلا الله . قال رسول الله ﷺ : أقتلته ؟ قال : نعم ، قال : فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ قال يا رسول الله استغفر لي ، قال : فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ، قال : فجعل لايزيده على أن يقول : فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة » ؟ (1) .

لقد أوردت هذه الأقباس المضيئة من الأدلة القوية التي تحتاج منا إلى وقفات إمعان وتدبر حرصاً منا على الهدى أن يتبع والحق أن يصان ، فلا يجنح بنا تطرف ولا يضلنا طيش أو سوء فهم لما يقال ، فنكيل للناس التّهم الباطلة ونلصق بعباد الله أبشع ما يلصق بالإنسان الذي وهب له الله العقل وميزه به عن سائر المخلوقات .

ونحب أن نقف عند بعض ما أوردنا من أحاديث شريفة هي أولى بتفسير القرآن وأوعى في فهم الكتاب لتكون دليلاً على ما أوردنا من رأي وبرهاناً على ما نقول :

ففي حديث أنس رضي الله عنه يبشر النبي ﷺ العاصي بدخول الجنة بعد أن ينال ما يستحق من عذاب الله وفق ما ارتكب من معصية ، وعلامة إسلامه أن يقول معتقداً لا إله إلا الله ، وليس للناس حق في تكذيب القائل أو الرد عليه أو وصمه بالكفر مادام في قلبه من الخير مقدار شعيرة فبُرة فذرة .. فأين هذا المعنى السامق للقول النبوي الكريم من شهوة التكفير ومرض التسلط على الناس ومنحهم صكوك الإيمان وفق ما يشتهي المتنطعون ويرغبون ؟!

ثم نرى في الحديث نفسه اصرار الرسول ﷺ على أن من قال لا إله إلا الله يخرج من النار ليدخل الجنة ، ولم يقل ابتداء يدخل الجنة مبيناً أن المسلم العاصي ينال عقاب الله وفق ما ارتكب من معصية ، ما لم تتداركه رحمة الله ويغمره رضوانه بتوبة نصوح أو عمل صالح أو شهادة مقبولة أو مغفرة من الله أكبر ...

---

(1) رواه مسلم .

وفي حديث أبي الأسود الديلي عن أبي ذر نرى إلحاح أبي ذر رضي الله عنه في سؤاله للنبي ﷺ ، وكأنه يريد أن يؤكد معنى معيناً أو يتثبت من مفهوم يخشى غموضه وهو يصر على تساؤله : وإن زنى وإن سرق ؟

ونرى كذلك إصرار رسول الله ﷺ على أن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق ؛ بعد أن ينال من العذاب ما يستحق أو أن تتداركه رحمة الله التي وسعت كل شيء .

ويختم النبي الكريم حديثه ذاك بدعابة مرحة ولكنها جادة حاسمة حازمة تتجلى في قوله : على رغم أنف أبي ذر !!

وعن أبي سفيان قال : جاورت مع جابر بن عبد الله بمكة ستة أشهر فسأله رجل : هل كنتم تسمون أحداً من أهل القبلة كافراً ؟ فقال : معاذ الله ، قال : فهل تسمونه مشركاً ؟ قال : لا [1] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :

« ثلاث من أصل الاسلام : الكف عمن قال : لا إله إلا الله لا نكفره بذنب ولا نخرجه من الاسلام بعمل ، والجهاد ماضٍ من يوم بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدّجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل ، والإيمان بالأقدار كلها » [2] .

وهكذا يتبين لنا أن كلمة الكفر في الكتاب والسنة قد وردت تحمل معاني عدة ومفاهيم شتّى ، تتفاوت بين الكفر البواح والجحود والنكران وعدم تطبيق الاسلام تطبيقاً متكاملاً ؛ فكيف يجيز قوم لأنفسهم أن يفهموا كلمة الكفر التي ترد بين حين وآخر فيما قدّم الشهيد سيد قطب من عطاء على أنها الكفر البواح دون سواه ؟!

إنني أقف في إشفاق على أمثال هؤلاء وأرثي لحالهم وأنا أطالع قولاً لابن عمر رضي الله عنهما حيث يقول عن الخوارج : شرار خلق الله ، انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين !!

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه ابو داود .

ثم أين الرفق الذي أمر به الاسلام أتباعه وجنده وحَمَلَة دعوته حتى مع الكافرين كفراً بواحاً وفي مجتمع المدينة حيث كان للمسلمين فيه القوة والمنعة :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : استأذن رهط من اليهود على النبي ﷺ فقالوا: السام [1] عليك ، فقلتُ : بل عليكم السام واللعنة . فقال : « يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله » . قلت : أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال : « يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق،ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف،ومالا يعطي على سواه»[2].

ألا ما أجدرنا أن نتخذ من حياة الرسول ﷺ قدوة لنا وهو يردّ على عائشة التي ردت لليهود ما يستحقون من لعنات ، وهم يزورون النبي ﷺ ، ويُسمعونه مالا يحب أن يسمع وهو في بيته في موقف من مواقف القوة تظله راية الدولة الاسلامية في المدينة المنورة !

ومما أوردناه من براهين وحجج يتبين لنا أن الناس قد يعملون بعض أعمال الكفار وقد يمارسون أنماطاً من سلوك الجاهلية بحيث يشبهون الكفار والجاهليين فيما يعملون ، ولكنهم مع ذلك ليسوا كفرة وليسوا مشركين .

ومن هنا يمكن للدعاة أن يسمّوا مجتمع اليوم المنحرف عن الجادة مجتمعاً جاهلياً ، على ألاّ يرد في ذهن أحد أو يخطر له على بال أن الجاهلية هنا تعني الكفر البواح الذي يلهث وراءه بعض « المتنطّعين » ليدينوا به أهلهم وذويهم ، أو كثيراً ممن يتربعون على كراسي الحكم ظلماً وعدواناً في معظم ديار الاسلام !

وعند الحديث عن المنهاج وفهمه والتطبيق وإمكانيته لابد من التفريق بين مجتمعين :

● (المجتمع الصغير) المتماسك أو مجتمع الصفوة الذي يمكن تطبيق المنهاج في

---

(١) السام : الموت .

(٢) رواه مسلم .

أرجائه وطبع أهله به لأنه من السهل إلزامهم بذلك عن رضى وطيب خاطر ... وهذا هو المجتمع الذي عناه الشهيد وهو يفسر معنى قول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » [1] .

حيث يقـول :

(إن المؤمن مكلف هداية أهله ، وإصلاح بيته ، كما هو مكلف هداية نفسه وإصلاح قلبه . إن الاسلام دين أسرة ــ كما أسلفنا في سورة الطلاق ــ ومن ثمّ يقرر تبعة المؤمن في أسرته ، وواجبه في بيته . والبيت المسلم هـو نواة الجماعـة المسلمة . وهو الخلية التي يتألف منهـا ومن الخلايا الاخرى ذلك الجسم الحي .. المجتمع الاسلامي ..

إن البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة . ولابد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها حصينة في ذاتها ، كل فرد فيها يقف على ثغرة لاينفذ إليها . وإلاّ تكن كذلك سَهُل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه ، فلا يصعب على طارق ، ولا يستعصي على مهاجم .

وواجب المؤمن أن يتجه بالدعوة أول ما يتجه إلى بيته وأهله . واجبه أن يؤمن هذه القلعة من داخلها . واجبه أن يسد الثغرات فيها قبل أن يذهب عنهـا بدعوته بعيـداً .

ولا بد من الأم المسلمة . فالأب المسلم وحده لايكفي لتأمين القلعة . لابد من أب وأم ليقوما كذلك على الأبناء والبنات . فعبثاً يحاول الرجل أن ينشيء المجتمع الاسلامي بمجموعة من الرجال . لابد من النساء في هذا المجتمع فهنّ الحارسات على النشيء . وهو بذور المستقبل وثماره .

ومن ثمّ كان القرآن يتنزل للرجال وللنساء ، وكان ينظّم البيوت ، ويقيمها على المنهج الاسلامي ، وكان يحمّل المؤمنين تبعة أهليهم كما يحمّلهم تبعة أنفسهم : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » ..

---

(١) سورة التحريم ــ الآية ٦ ــ المجلد الثامن ــ الطبعة السابعة من الظلال .

هذا أمر ينبغي أن يدركه الدعـاة إلى الاسلام وأن يدركوه جيداً . إن أول الجهد ينبغي أن يوجه إلى البيت . إلى الزوجة . إلى الأم . ثم إلى الأولاد ، وإلى الأهل بعامة . ويجب الاهتمام البالغ بتكوين المرأة المسلمة لتنشىء البيت المسلم . وينبغي لمن يريد بناء بيت مسلم أن يبحث أولاً عن الزوجة المسلمة . وإلا فسيتأخر طويلاً بناء الجماعة الاسلامية ، وسيظل البنيان متخاذلاً كثير الثغرات .

وفي الجماعة المسلمة الاولى كان الأمر أيسر مما هو في أيامنا هذه .. كان قد أنشىء مجتمع مسلم ــ في المدينة ــ يهيمن عليه الاسلام : يهيمن عليه بتصوره النظيف للحياة البشرية ، ويهيمن عليه بتشريعه المنبثق من هـذا التصور ، وكان المرجع فيه ــ مرجع الرجال والنساء جميعاً ــ إلى الله ورسوله ، وإلى حكم الله وحكم رسوله . فإذا نزل الحكم فهو القضاء الأخير .. وبحكم وجود هذا المجتمع وسيطرة تصوره وتقاليده على الحياة كان الأمر سهلاً بالنسبة للمرأة لكي تصوغ نفسها كما يريد الاسلام . وكان الأمر سهلاً بالنسبة للأزواج كي ينصحوا نساءهم ويربوا أبناءهم على منهج الاسلام » [1] .

● أما المجتمع الكبير المتفسخ ، أو مجتمع الأغلبية الذي يصعب تطبيق المنهاج في أرجائه ، لأنه ليس من اليسير إلزام أهله بذلك أو طبعهم به عن رضى وطيب خاطر ، لأن ظروفاً كثيرة تحول دون ذلك وترجع لأسباب كثيرة قد لايكون من بينها الكفر البواح للأفراد والحكّام على السواء ...

هذا المجتمع الكبير المتفسخ يقول عنه الشهيد :

« نحن الآن في موقف متغـير . نحن نعيش في جاهلية . جـاهلية مجتمع . وجاهلية تشريع . وجاهلية أخلاق . وجاهلية تقاليد . وجـاهلية نظم . وجاهلية آداب . وجاهلية ثقافة كذلك !!

والمرأة تتعامل مع هذا المجتمع الجاهلي ، وتشعر بثقل وطأته الساحقة حين تهم أن تلبي الاسلام سواء اهتدت إليه بنفسها ، أو هداها إليه رجلها . زوجها أو أخوها أو أبوهـا ...

---

(1) « في ظلال القرآن » ــ تفسير الآية « ٦ » من سورة التحريم .

هناك كان الرجل والمرأة والمجتمع كلهم يتحاكمون إلى تصور واحد ، وحكم واحد ، وطابع واحد . فأما هنا فالرجل يتحاكم إلى تصور مجرد لا وجود له في دنيا الواقع . والمرأة تنوء تحت ثقل المجتمع الذي يعادي ذلك التصور عداء الجاهلية الجامح . وما من شك أن ضغط المجتمع وتقاليده على حس المرأة أضعاف ضغطه على حس الرجل .

وهنا يتضاعف واجب المؤمن . إن عليه أن يقي نفسه النار ، ثم عليه أن يقي أهله وهم تحت هذا الضغط الساحق والجذب العنيف .

فينبغي له أن يدرك ثقل هذا الواجب ليبذل له من الجهد المباشر أضعاف ما كان يبذله أخوه في الجماعة المسلمة الاولى . ويتعين حينئذ على من يريد أن ينشىء بيتاً أن يبحث أولاً عن حارسة للقلعة ، تستمد تصورها من مصدر تصوره هو .. من الاسلام .. وسيضحي في هذا بأشياء : سيضحي بالالتماع الكاذب في المرأة . سيضحي بخضراء الدِّمَن ! سيضحي بالمظهر البراق للجيف الطافية على وجه المجتمع ليبحث عن ذات الدين ، التي تعينه على بناء بيت مسلم ، وعلى انشاء قلعة مسلمة . ويتعين على الآباء المؤمنين الذين يريدون البعث الاسلامي أن يعلموا أن الخلايا الحية لهذا البعث وديعة في أيديهم ، وأن عليهم أن يتوجهوا إليهنّ وإليهم بالدعوة والتربية والاعداد قبل أي أحد آخر . وأن يستجيبوا لله وهو يدعوهم: « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » [1] .

ويبدو لنا واضحاً مما ذكره المفكر المسلم أن العلاقة بين المجتمعين : المجتمع الصغير النظيف القدوة ، والمجتمع الكبير المنحرف المريض لابد أن تقوم لا على أساس الفرقة والتقاطع والتدابر وإنما على أساس التوجيه والتوعية والتلاحم في المسؤولية. وإلا فإن عاقلاً في الدنيا لايقول بأن يقاطع الأب أولاده والمعلم تلاميذه والطبيب مرضاه ... وهذا هو شأن المجتمع الصغير الذي يقوم بدور الطبيب ودور المعلم ودور الأب الحاني .

---

(١) الظلال ــ الجزء الثامن والعشرون ــ تفسير سورة التحريم .

هذا هو الفهم السليم لفكر الشهيد وهذه هي دعوة الاسلام التي وعاها يرحمه الله ، وما سوى ذلك فلغو وضيق أفق ومرض لايستقيم مع مفهوم الاسلام في الاصلاح ووعيه في بناء الأنفس والمجتمعات .

* * *

اما موضوع الحكم والحاكمين ونظرة الاسلام لذلك كله ؛ فقد حددها القرآن وبيَّنها العلماء واوضحها المفسرون عند الحديث عن معنى قوله تعالى : « ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون » .

لقد بينوا أن للكفر مراتب ودرجات قبل أن تبلغ مرتبة الكفر البواح الذي يهجم عليه المتنطعون يلصقونه بعباد الله ويوزعونه على الناس بلا حساب :

« قال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان وابن عباس وأبو مجلز وأبو رجاء العطاردي وعكرمة وعبيد الله بن عبد الله والحسن البصري وغيرهم : نزلت في أهل الكتاب . زاد الحسن البصري وهي علينا واجبة . وقال عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن منصور عن ابراهيم قال : نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل ورضي الله لهذه الأمة بها » . رواه ابن جرير .

وقال ابن جرير أيضاً حدثنا يعقوب حدثنا هُشَيم ، أخبرنا عبد الملك بن أبي سليمان عن سلمة بن كهيل عن علقمة ومسروق أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة فقال : من السُحْت . قال : فقالا : وفي الحكم ؟ قال : ذاك الكفر ، ثم تلا « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » [1] .

ولا يعقل أن ابن مسعود رضي الله عنه يعني الكفر البواح صفة يلصقها بمن يرتشون .. وإن كان لهم من صفات المذمة والتقريع والهبوط الاخلاقي ماهم به جديرون .

« وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ؛ قال : من جحد ما أنزل الله فقد كفر ومن أقرّ به ولم يحكم

---

(١) تفسير سورة المائدة : ابن كثير .

به فهو ظالم فاسق . رواه ابن جرير ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب . وقال عبد الرزاق عن الثوري عن زكريا عن الشعبي : « ومن لم يحكم بما أنزل الله قال : للمسلمين » [1] .

« وقال عبد الرزاق أيضاً : أخبرنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال : وسئل ابن عباس عن قوله (ومن لم يحكم) الآية ؟ قال : هي به كفر . قال ابن طاووس : وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله .

وقال الثوري عن ابن جريج عن عطاء أنه قال : كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق . رواه ابن جرير . وقال وكيع عن سعيد المكي عن طاووس : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال : ليس بكفر ينقل عن الملة.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقري حدثنا سفيان بن عيينة عن هشام بن حجير عن طاووس عن ابن عباس في قوله : « ومن لم يحكم بمآ أنزل الله فأولئك هم الكافرون » قال : ليس بالكفر الذي تذهبون إليه . ورواه الحاكم في مستدركه من حديث سفيان بن عيينة وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » [2] .

ومن هنا يتضح لنا أن تسمية المجتمع اليوم مجتمعاً جاهلياً لاتعني اعتباره مجتمعاً كافراً بأفراده أو حكامه ، غير أن هذا لايعني اعتبار أنظمته المرقعة المستوردة الدخيلة أنظمة اسلامية وقوانين إيمانية ؛ ولكنها قوانين جاهلية وأنظمة صنعها الكفر واستوردها الخانعون ليطبقوها في ديار الاسلام ، يرضون بها المستعمر المتسلط والعدو الغاصب ، ويذلون بها عباد الله من أبناء أمتهم المبتلاة باستعلائهم المنكوبة بطغيانهم ، وهم يحرمونها من إقامة العدل وتطبيق شرع الله في الأرض !!

* * *

---

(١) من تفسير سورة المائدة : ابن كثير .

(٢) المصدر السابق .

ويلحق بهذا الموضوع الذي اوضحناه موضوع آخر هو مفهوم « لا إله إلا الله » كما يراه الشهيد ويعيه وكما يحب للناس ان يفهموه ويعوه .

فالشهيد عليه الرحمة يرى أن الناس قد قصروا فهمهم للا إله إلا الله ، على توحيد « الربوبية » وهو أن الله وحده هو الخالق الرازق ، المحيي ، المميت ، بيده ملكوت كل شيء ، وهم يرون أنه لايشاركه أحد من خلقه في ذلك . ولم يتعدوا ذلك إلى توحيد « الألوهية » أي افراده بالعبادة والحاكمية والسلطان والتشريع ، ومعناه أن الناس مكلفون ديناً ، مأمورون شرعاً بضرورة تحكيم شرع الله في الأرض والعمل على ذلك والجهاد في سبيل هذه الغاية . وبمعنى آخر أكثر وضوحاً : أن الناس مطالبون عقيدة بالرجوع إلى معنى « لا إله إلا الله » في شتّى الميادين الحياتية والممارسات اليومية ، وليس في الجانب الاعتقادي الذي يؤكد توحيد « الربوبية » دون الجوانب الأخرى من جوانب التوحيد .

يقول الشهيد عليه الرحمة تحت عنوان « لا إله إلا الله منهج حياة » :

« العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الاسلامية المتمثل في شهادة : أن لا إله إلا الله . والتلقي عن رسول الله ﷺ ــ في كيفية هذه العبودية ــ هو شطرها الثاني ، المتمثل في شهادة أن محمداً رسول الله .

والقلب المؤمن المسلم هو الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها ، لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان وأركان الاسلام إنما هو مقتضى لهما . فالإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج . ثم الحدود والتعازير والحل والحرمة والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الاسلامية ... إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده ، كما أن المرجع فيها كلها هو مابلّغه لنا رسول الله ﷺ عن ربه .

والمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها جميعاً لأنه بغير تمثل تلك القاعدة ومقتضياتها فيه لايكون مسلماً ، ومن ثمّ تصبح شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة

بحذافيرها ، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة ، كما أنها لاتكون حياة اسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة ، أو قامت على قاعدة أخرى معها ، أو على قواعد أجنبية عنها :

« إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم » ... (يوسف : ٤٠) .

« ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » ... (النساء : ٨٠) [١] .

وقد أشار إلى ذلك أقرب الناس إلى الشهيد وأشدهم تأثراً به وهو شقيقه الاستاذ محمد قطب حيث بعث برسالة خاصة لأحد إخوانه في الله ومن المقربين إليه ، يوضح الموضوع الذي كانت تدور حوله كتابات الشهيد يرحمه الله .

يقول الأستاذ محمد قطب :

« إن كتابات سيد قطب قد تركزت حول موضوع معين هو بيان المعنى الحقيقي للا إله إلا الله ، شعوراً منه بأن كثيراً من الناس لايدركون هذا المعنى على حقيقته،وبيان المواصفات الحقيقية للايمان كما وردت في الكتاب والسنة ؛ شعوراً منه بأن كثيراً من هذه المواصفات قد أهمل أو غفل الناس عنه . ولكنه مع ذلك حرص حرصاً شديداً على أن يبين أن كلامه هذا ليس مقصوداً به اصدار أحكام على الناس، وإنما المقصود به تعريفهم بما غفلوا عنه من هذه الحقيقة ليتبينوا هم لأنفسهم إن كانوا مستقيمين على طريق الله كما ينبغي أم أنهم بعيدون عن هذا الطريق فينبغي عليهم أن يعودوا إليه . ولقد سمعته بنفسي أكثر من مرة يقول :

« نحن دعاة ولسنا قضاة » إن مهمتنا ليست إصدار أحكام على الناس ، ولكن

---

(١) ص ١١٤ ، ١١٥ من كتاب معالم في الطريق ــ الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ ــ ١٩٦٤ م ــ مكتبة وهبة بالقاهرة .

مهمتنا تعريفهم بحقيقة لا إله إلا الله ، لأن الناس لايعرفون مقتضاها الحقيقي وهو التحاكم إلى شريعة الله » [1] .

والمفهوم كما نرى سليم والاعتقاد به واجب لايرده مؤمن ولا يرفضه مسلم . ومع ذلك ليس من حق أحد أن يكفّر مسلماً لم يبلغ هذا الفهم العميق وهذا المعنى الدقيق . والشهيد لم يفعل ذلك فيما أعلم ، ذلك أن « لا إله إلا الله » وحدها هي منطلق التفريق بين المؤمنين وبين الكافرين والنطق بها هو الحد الفاصل بين أهل الجنة وأهل النار .

عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة » [2] .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « مفاتيح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله » [3] .

« إن « لا إله إلا الله » التي كان ينطق به الجيل القرآني الاول ومن تبعهم من المؤمنين والمجاهدين هي الأصيلة التي غيّرت وجه الكون إلى وجه مضيء ، وحياة الناس إلى مجتمع العدل والرخاء والكرامة ، أما « لا إله إلا الله » التي ينطقون بها اليوم دون أن تغيّر واقعهم السيء ، أو أن تبدل حالهم إلى أحسن ومجتمعهم إلى أفضل ؛ فهي أشبه بالعملة الزائفة التي يحملها إنسان غافل الى السوق لاتحقق له نفعاً ولا تشتري له بضاعة [4] ... » .

---

(١) من رسالة خاصة نشرتها صحيفة الشهاب اللبنانية ـ العدد الخامس ـ السنة التاسعة ، الصادر بتاريخ ٢٥ شعبان ١٣٩٥ هـ الموافق أول أيلول ١٩٧٥ م.

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه احمد بسند صحيح .

(٤) مجمل فكرة لمحاضرة للاستاذ محمد قطب القاها في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي بولاية « أو كلاهوما » بالولايات المتحدة الامريكية ، وكنت حاضراً ومدعواً للمحاضرة في ذلك المؤتمر في عام ١٣٩٧هـ الموافق ١٩٧٧م .

والقول كما أرى حق لايعترض عليه معترض .. لكن الاعتراض على أن يوقع بهذا الانسان الغافل الأذى ، وأن يوضع تحت طائلة القانون ، وأن تصدر بحقه أحكام ؛ بينما عصابات تزوير العملة أو الساكتون عنها والحامون لوجودها والمروجون لعملتها الزائفة ؛ هم المسؤولون أولاً وأخيراً عن هذا التعامل الأرعن وهذا التزوير المقصود .

ولذا كان رأي الشهيد كما أعتقد مجرد عرض لمفهوم لا إله إلا الله ، ودعوة للناس أن يرجعوا لهذا المفهوم ، وليس حكماً عليهم بالكفر أو اخراجاً لهم من الملة .

وإلى مثل هذا يشير الاستاذ محمد قطب مؤكداً ما ذهبنا إليه هنا وما فهمناه من أقوال الشهيد وكتاباته :

« كما سمعته ـ يعني سيد قطب ـ أكثر من مرة يقول : إن الحكم على الناس يستلزم وجود قرينة قاطعة لاتقبل الشك ، وهذا أمر ليس في أيدينا ، ولذلك فنحن لاتتعرض لقضية الحكم على الناس فضلاً عن كوننا دعوة ولسنا دولة ، دعوة مهمتها بيان الحقائق للناس لا إصدار الأحكام عليهم »[1] .

ويختم الاستاذ محمد قطب رسالته لصديقه المقرّب وأخيه في الله بقوله :

« تلك خلاصة كتابات سيد قطب ، ولي على هذه الخلاصة تعقيبان :

الأول : هو تأكدي الكامل ـ بإذن الله ـ من أنه ليس في هذه الكتابات ما يخالف الكتاب والسنة اللذين تقوم عليهما دعوة الاخوان المسلمين .

الثاني : هو تأكدي الكامل ـ أيضاً ـ من أنه ليس في هذه الكتابات ما يخالف أفكار الامام الشهيد حسن البنا مؤسس هذه الجماعة ، ولا ما يخالف أقواله وهو الذي نص في رسالة التعاليم في البند العشرين على « أن المسلم الذي لايجوز تكفيره هو الذي نطق بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض » . وذلك فضلاً عن كون كتابات سيد قطب كما أسلفنا لم يقصد بها إصدار الأحكام على الناس ، وإنما

---

(١) العدد الخامس من السنة التاسعة من صحيفة الشهاب اللبنانية بتاريخ ٢٥ شعبان ١٣٩٥هـ الموافق أول أيلول ١٩٧٥ م .

قصده منها كما كان قصد الامام الشهيد بالضبط،هو بيان حقيقة الاسلام ومواصفات المسلم كما وردت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ •

تلك حقائق أرى من واجبي أن أبينها وأوضحها أداء للشهادة لله فاننا لاندري متى نلقى الله • ولا ينبغي لنا أن نلقاه وقد كتمنا شهادة عندنا لله •

والله الموفق إلى ســواء السبيل » •

* * *

وأحسب أن خير مانختم به موضوعنا هذا من آراء العلماء والأئمة الأعـلام ما أورده الامام النووي في شرحه لصحيح مسلم وهو يتناول في (باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً) الأحاديث التي تشير إلى الإيمان والكفر وما يبدو بينها من تعارض أو تضاد لمن لايمعن النظر ، حيث يقول :

« هــذا الباب فيه أحــاديث كثيرة وتنتهي إلى حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه : ذاق طعم الإيمــان من رضي بالله ربــاً • واعلم أن مذهب أهــل السنة وما عليه أهــل الحق من السلف والخلف أن من مــات موحداً دخــل الجنة قطعاً على كل حــال : فإن كان سالماً من المعاصي كالصغير والمجنون والذي اتصل جنونه بالبلوغ والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي إذا لم يحدث معصية بعد توبته والموفق الذي لم يبتل بمعصية أصلاً ؛ فكل هذا الصنف يدخلون الجنة ولا يدخلون النــار أصلاً لكنهم يردونها على الخلاف المعروف في الــورود ــ والصحيح أن المراد به المرور على صراط وهو منصوب على ظهر جهنم أعاذنا الله منها ومن سائر المكروه ــ •

وأما من كانت له معصية كبيرة ومات من غير توبة فهو في مشيئة الله تعالى ؛ فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة أولاً وجعله كالقسم الأول ، وإن شــاء عذبه القدر الذي يريده سبحانه وتعالى ثم يدخله الجنة•فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد ولو عمل من المعاصي ماعمل ، كما أنه لايدخل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ماعمل •

هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع من يعتد به من الأمة على هذه القاعدة ، وتواترت بذلك نصوص تحصل العلم القطعي . فإذا تقررت هذه القاعدة حمل عليها جميع ما رود من أحاديث الباب وغيره ، فإذا ورد حديث في ظاهره مخالفة وجب تأويله عليها ليجمع بين نصوص الشرع » [1] .

الموضوع الثاني : دار الاسلام ودار الحرب

ورد في كتابات الشهيد ما يفهم منه أنه اعتبر « بلاد المسلمين » التي لا يطبق حكامها أحكام الاسلام ديار حرب لا ديار إسلام .

ولكي نضع الأمور في إطار من الوضوح لابد من تعريف دار الاسلام ودار الحرب كما يرى فقهاء الأمة وعلماء الشريعة في مختلف العصور .

ينقل الدكتور وهبة الزحيلي في كتابه « آثار الحرب في الفقه الاسلامي » آراء الفقهاء في هذا الباب فيقول عن دار الاسلام :

« نجد في تحديد هذه الدار أربعة آراء للعلماء نختار منها الرأي الأول لأنه أقرب الآراء إلى نصوص جمهور الفقهاء : وهو أنّ كل مادخل من البلاد في محيط سلطان الاسلام ، ونُفّذت فيها أحكامه ، وأقيمت شعائره قد صار من دار الاسلام، ووجب على المسلمين عند الاعتداء عليه أن يدافعوا عنه وجوباً كفائياً بقدر الحاجة ، وإلا وجوباً عينياً ، وكانوا كلهم آثمين بتركه . وإن استيلاء الأجانب عليه لا يرفع عنه وجوب القتال لإسترداده وإن طال الزمان . فمثل فلسطين والجزائر (في الامس القريب ــ ويعني في أثناء الاحتلال الفرنسي) تعتبر كل منهما دار اسلام يجب على المسلمين جميعهم تطهيرها من الداخل »[2] .

---

(1) شرح النووي على صحيح مسلم ج ١ ص ٢١٧ ــ المطبعة المصرية بالأزهر .

(2) آثار الحرب في الفقه الاسلامي لوهبة الزحيلي ص ١٥٣ نقلاً عن تفسير المنار ١٠ ص ٣١٦ ، بجيرمي الخطيب ٤ ص ٢٣٦ ، مقدمة ابن خلدون ص ١٥٦ ، مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين للأشعري ص ٤٦٣ .

أما دار الحرب فيقول عنها المصدر نفسه :

« هي الدار التي لاتطبق فيها أحكام الاسلام الدينية والسياسية لوجودها خارج نطاق السيادة الاسلامية • وتسمى عند « الأباضية » دار الشرك : وهي الدار التي أمرها للمشرك يجري فيها الأحكام الشركية لايرد عنها ، ويقابلها عندهم دار التوحيد ، وتظل الدار في رأيهم دار عدل (أي دار اسلام) ولو غلب عليها أهل الضلال مشركين أو منافقين ، ما دام يمكن لأهل العدل (الاسلام) إظهار دينهم فيها »[1] •

وهنا لابد من وقفة عند رأي الأباضية في هذا الباب وهم من أشد المذاهب الفقهية والفرق السياسية تطرفاً في هذا المجال حيث يرون أن الدار تظل دار اسلام ولو غلب عليها أهل الضلال بشركين ومنافقين •• فكيف يجوز لنا أن نطلق دار الحرب على «بلاد المسلمين» المحتلة أو المغصوبة للأعداء أو العملاء على حد سواء ؟!

فإذا كانت ديار الاسلام كما يوضح الفقهاء ابتداء هي الديار التي تحكمها شريعة الله ، ويسودها العدل الاسلامي ، ويعيش فيها المسلمون وفق أحكام شرع الله • وديار الحرب هي التي يحكمها الكافرون ويطبقون فيها شرائع الكفر ، ولم يكن المسلمون يوماً قد فتحوها ، وصاروا ومازالوا هم الغالبية العظمى من سكانها ؛ فما التسمية التي تطلق اليوم على مجتمعاتنا المعاصرة وديارنا القائمة وهي ليست ديار الحرب بالمفهوم الشرعي المتفق عليه ولا ديار اسلام بالمصطلح الفقهي المشار إليه ؟

ذلك أن فقهاء الأمة الأقدمين لم يعرفوا هذا الطراز القائم من المجتمعات وهذا النمط الذي نعرف في حياتنا المعاصرة ، إذ كانوا في ديار الاسلام التي يحكمها شرع الله في الأرض وإن وقعت فيها أخطاء وانحرافات جانبية في قضايا جزئية لاتخرج ذلك المجتمع عن اسلامه ولا تحول دار الاسلام إلى دار حرب أو دار كفر كما يقال ، وكان

---

(١) آثار الحرب في الفقه الاسلامي لوهبة الزحيلي ص ١٥٤ نقلاً عن شرح النيل وشفاء العليل ١٠ ص ٣٩٥ ، والمراجع السابقة .

يحيط بهم ديار كفر ، أهلها كفرة وحكامها كافرين بينهم وبين المسلمين حرب وقتال ، أو عهد وأمــان •

إن بلادنا التي نعيش فيها نحن المسلمين أرض اسلامية وأهلهــا مسلمون ، وهاتان حقيقتان لا سبيل إلى إنكارهما ، ولكن أنظمة الكفر وشرائع الطاغوت غلبت على جوانب كثر من حياتها ومناهج عدة من تربية أبنائها وسلوك الأسرة فيها ــ ولذا لايجوز بحال أن نعتبر بلاد المسلمين التي تسكنها الأغلبية المسلمة ويحكمها حكام لم يعلنوا كفرهم البواح أو يجاهروا به ، أو لم يعرف عنهم ذلك صراحة ، لايجوز أن تعد مثل تلك البلاد ــ ولو حكمت فيها بعض أنظمة الطواغيت ــ ديار حرب أو ديار كفر ، بل ديار اسلام لابد من اعادتها إليه أو اعــادته إليهــا ليعود الناس والحكام والأنظمة والعلاقات والعادات جميعاً في إطار الاسلام دون سواه •

ومن هنا يتضح لنا أن ديار الاسلام التي كانت تحكم بشريعة الله ثم وقعت في أيدي « كافرين » أو « ظالمين » لايحكمون بالاسلام تبقى « ديار اسلام » ولا يبدل تسميتها ولا صفتها ما جدَّ عليها من تسلط وما وقعت فيه من ضلال •

ولذا أراني وفق ما سلف لستُ مع أستاذنا الشهيد في كتابه « المعالم » حين عرف ديار الحرب ودار الاسلام بقوله :

« إن هناك داراً واحدة هي دار الاسلام ، تلك التي تقوم فيها الدولة المسلمة، فتهيمن عليها شريعة الله ، وتقام فيها حدوده ، ويتولى المسلمون فيها بعضهم بعضاً ، وما عداها فهو دار حرب ، علاقة المسلم بها إما القتال ، وإما المهادنة على عهد وأمان ، ولكنها ليست دار اسلام ، ولا ولاء بين أهلها وبين المسلمين » [١] •

فاعتبر ديار الأمة المسلمة اليوم جميعاً دار حرب لا دار اسلام وهو تعريف فيه من التطرف الذي أملته ظروف نفسية رهيبة ظـالمة لاتحتملهــا النفس البشرية ولا يطيقها الانسان السوي بحال •

---

(١) معالم في الطريق لسيد قطب ــ الطبعة الاولى ص ١٨٤ ــ ١٨٥ ــ النــاشر مكتبة وهبة ــ القاهرة ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٤ م •

إن تكفير نظام يُطبَّق أو قانون وضعي يَحْكم لايجيز بحال اعتبار الأفراد الذين يطبق عليهم قانون الطاغوت أو يحكمهم النظام الكافر كفاراً ، كما لايجوز وفق ما أوضحناه من آراء وما سقناه من أدلة شرعية تكفير من يقرون بما أنزل الله كفراً بواحاً وإن لم يحكموا به أو يضعوه موضع التنفيذ .

إن قيام نظام كافر يُطَبق أو تحكيم قانون كافر في أرض اسلامية لايجيز بحال لعالم أو مفكر مهما علا قدره وسمت منزلته في النفوس أن يعدّ ديار المسلمين ديار حرب يعامل أهلها بما يعامل به أهل دار الحرب .

ولعل من الصواب أن يوضح ما ورد على لسان الشهيد في هذا المجال بأن الديار التي يعيش فيها المسلمون تبقى ديار مسلمين وإن لم تكن ديار اسلام بالمصطلح الفقهي المتعارف عليه : وهو أن دار الاسلام ما حكم فيها الاسلام وما طبقت فيها شريعة الله .. ومع ذلك ومهما جدّ عليها من أحداث وتغيرات كالذي أشرنا إليه لاتخرج عن صفة الاسلام لتعطى صفة الحرب أو الكفر البواح .

ولئن قبل من الشهيد يرحمه الله أن يسمي المجتمع جاهلياً لما فيه من صفات الجاهلية وأفعالها ، ولما أوضحناه من أن الجاهلية لاتعني الكفر البواح كما يتبادر للأذهان ، غير أن هذا لايجيز لنا أن نقبل من أحد أن يسمي بلاد المسلمين ديار حرب لأنها بلاد اسلامية غلب عليها أهل الضلال وسكانها مسلمون بلا خلاف .

وإني لأرى أن الشهيد — يغفر الله له ويتغمده بالرحمة والرضوان — قد أورد عبارة عنيفة أملاها الانفعال لا التدبر والألم لا التمحيص حين قال : « إن هناك داراً واحدة هي دار الاسلام » ثم ساق من الشروط والأحوال مالاينطبق اليوم على بلاد المسلمين ؛ ليقول بعد ذلك : « وما عداها فهو دار حرب » — ودليلي على ذلك ماورد في ختام العبارة نفسها حيث يقول وهو يشرح معنى ديار الحرب وديار الاسلام:

« وما عداها فهو دار حرب علاقة المسلم بها إما القتال ، وإما المهادنة على عهد وأمان ، ولكنها ليست دار اسلام ، ولا ولاء بين أهلها وبين المسلمين » . فمن أهلها الذين ذكرهم .. ومن المسلمون إذا لم يكونوا هم أهلها ، ومع من يكون العهد

والأمان ، ومع من الولاء إذا لم يكن المسلمون اليوم هم المسلمين ؟ ما دام ليس في بلاد المسلمين اليوم دولة تحكم بشريعة الله ، وليس في بـلاد المسلمين اليوم مجتمع يقوم على أسس من التكامل الاسلامي في العقيدة والشريعة والمنهـاج وممارسات الحياة اليوميـة ؟!

الموضوع الثالث : العزلة والتميز والمفاصلة

لقد فهم قوم « متسرعون » ماذهب إليه الشهيد من الدعوة إلى العزلة والتميز والمفاصلة فهماً خاطئاً ، فقادهم ذلك إلى التقوقع في حجراتهم والانطواء في حلقاتهم، وتركوا الطاغوت يفسد في الأرض والخراب يستشري في المجتمع بدعوى تقويـة الصف وتربية الصفوة .

ويعجبني في هذا المقام ماصرح به رائد من رواد الفكر الاسلامي المعاصر وقائد من قادة الحركة الاسلامية في العصر الحديث وهو الاستاذ أبو الأعلى المودودي جزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيراً ، حيث أعلن يوماً أن من أخطاء الجماعة الاسلامية في باكستان التي اكتشفتها في أعقاب معركة انتخابية ما كانت تدعو له من الابتعاد عن « المجتمع الجاهلي » ، والتركيز على صفوة مختارة تربيها لتقود بها الجماهير يوماً في عمل اسلامي منظم كبير . فاكتشفت الجماعة أن الانطواء بقصد التربية ، والعزلة بقصد اعداد الصفوة المختارة أفقدت الجماعة عنصرين هامين في حياتها ووجودها وتحركها بين الجماهير : العنصر العمالي ، والسلاح الاعلامي .

وكان أن بدأت الجماعة الاسلامية تعمل من جديد في الميدانين : في أجهـزة الاعلام ، وأوساط العمال ، دون الانصراف عن إعداد الصفوة المختارة أو التخلي عن اعداد الشباب في محاضن التربية السليمة القويمة .

والشهيد سيد قطب لم يَدْعُ كما أرى إلى عزلة عملية قط ولا لمفاصلة في المعاملة والتحرك والأخذ والعطاء ، ولكنه دعـا إلى عزلة شعـورية وتميز سلوكي ومفاصلة وجدانية عميقة لئلا تذوب الحركة الاسلامية شعورياً أفراداً وجماعة فيما

يحيط بها من فكر جاهلي وآراء كافرة ، وأن يتميز المسلم الملتزم بسلوكه الاسلامي في طعامه وشرابه ولباسه وأخذه وعطائه وقوله وعمله ، وأن يعلن وجدانه المفاصلة مع ما يمليه المجتمع من عادات جاهلية وما يفرض على بيئته من تقاليد ومظاهر تستمد وجودها من الحياة المادية المنحرفة والوجود السلوكي الهابط .

إن المعاملات على اختلاف أنواعها من بيع وشراء ورهن وإجارة وحوالة ووكالة وغير ذلك ، وإن آداب السلوك على تنوعها من تحية وتزاور وتهنئة ومواساة وبشاشة ورفق ولين ومجاملة ، كل ذلك لايدخل في باب العزلة الشعورية ولا المفاصلة الوجدانية اللتين تنحصران في رفض المؤمن لسلوك هابط أو حياة جاهلية أو مجتمع مريض .

وكانت دعوة الشهيد عليه الرحمة واضحة حيث دعا إلى العزلة الشعورية المتعلقة بإحساس المسلم ومشاعره لا العزلة العملية المتعلقة بالأعضاء والجوارح في حدود ما أحل الله من حلال وما حرم من حرام .

وإلا كيف أفسر هذه الدعوة الرائعة الرائدة التي سجلها الشهيد في رسالة بعنوان « أفراح الروح » ، وقد وجهها لشقيقته الأديبة المؤمنة السيدة أمينة قطب وهو وراء القضبان ، يحث فيها الدعاة إلى الله أن يعيشوا مع الناس ، وأن يهتموا بشؤونهم ، وأن يختلطوا بوجودهم فيما لايغضب وجه الله ولو كان الآخرون على غير برّ ولا تقوى :

« عندما نلمس الجانب الطيب في نفوس الناس ، نجد أن هناك خيراً كثيراً قد لاتراه العيون أول وهلة !.. لقد جربت ذلك . جربته مع الكثيرين .. حتى الذين يبدو في أول الأمر أنهم شريرون أو فقراء الشعور .. شيء من العطف على أخطائهم وحماقاتهم ، شيء من الود الحقيقي لهم ، شيء من العناية ـ غير المتصنعة ـ باهتماماتهم وهمومهم ... ثم ينكشف لك النبع الخيّر في نفوسهم ، حين يمنحونك حبهم ومودتهم وثقتهم ، في مقابل القليل الذي أعطيتهم إياه من نفسك ، متى أعطيتهم إياه في صدق وصفاء وإخلاص . إن الشر ليس عميقاً في النفس الانسانية إلى الحد

الذي تتصوره أحياناً . إنه في تلك القشرة الصلبة التي يواجهون بها كفاح الحياة للبقاء .. فإذا أمنوا تكشفت تلك القشرة الصلبة عن ثمرة حلوة شهية .. هذه الثمرة الحلوة ، انما تتكشف لمن يستطيع أن يشعر الناس بالأمن في جانبه ، بالثقة في مودته، بالعطف الحقيقي على كفاحهم وآلامهم ، وعلى أخطائهم وعلى حماقاتهم كذلك ... وشيء من سعة الصدر في أول الأمر كفيل بتحقيق ذلـك كله ، أقرب مما يتوقـع الكثيرون .. لقد جربت ذلك ، جربته بنفسي . فلست أطلقها مجرد كلمات مجنّحة وليدة أحلام وأوهام ..! » .

« وحين نعتزل الناس لأننا نحس أننا أطهر منهم روحاً ، أو أطيب منهم قلباً ، أو أرحب منهم نفساً أو أذكى منهم عقلاً لا نكون قد صنعنا شيئاً كبيراً .. لقد اخترنا لأنفسنا أيسر السبل وأقلها مؤونة . إن العظمة الحقيقية : أن نخالط هؤلاء الناس مشبعين بروح السماحة والعطف على ضعفهم ونقصهم وخطئهم ، وروح الرغبـة الحقيقية في تطهيرهم وتثقيفهم ورفعهم إلى مستوانا بقدر ما نستطيع .

إنه ليس معنى هذا أن نتخلى عن آفاقنا العليا ومُثُلنا السامية ، أو أن نتملق هؤلاء ونثني على رذائلهم ، أو أن نشعرهم أننا أعلى منهم أفقـاً .. إن التوفيق بين هذه المتناقضات وسعة الصدر لما يتطلبه هذا التوفيق من جهد : هو العظمة الحقيقية»

أليس هذا هو الفهم الإيماني السليم والواعي الحركي الهادف لحديث سيد الخلق ﷺ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من المؤمن الذي لايخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » [1] .

ومن الخير أن أختتم هذا الموضوع برأي الشهيد عن مفهوم العزلة أو المفاصلة كما فهمه منه وسمعه أقرب الناس إليه وأشد الناس تأثراً به وهو شقيقه الأستاذ محمد قطب ؛ حيث بعث برسالة خاصة لأحد إخوانه في الله من المقربين إليه يوضح

---

(١) اخرجه احمد والترمذي وابن ماجه واللفظ له .

فيها رأي الشهيد في جملة من القضايا مما ثار حوله نقاش أو وقــع فيه اختلاف في الفهم أو الاستيعاب .

يقول الأستاذ محمد قطب موضحاً رأي الشهيد يرحمه الله :

« أما بالنسبة لقضية المفاصلة فقد بيَّن في كلامه أنهـا المفاصلة الشعورية التي لابد أن تنشأ تلقائياً في حس المسلم الملتزم تجـاه من لايلتزمون بأوامر الاسلام ، ولكنها ليست المفاصلة الحسية المادية ، فنحن نعيش في هــذا المجتمع وندعوه الى حقيقة الاسلام ولا نعتزله ، وإلا فكيف ندعوه ؟! »[1] .

الموضوع الرابع : إيمانه بوحدة الوجود كما توهم المتوهمون

يزعم بعض الواهمين أن الرجل يؤمن بوحدة الوجود التي يقول أصحابها أن الله حالٌ في خلقه ، وأنه بذاته لابآثاره موجود في كل جزء من جزئيات مخلوقاته ، وهم بذلك يجسّدون ويحدّدون الخالق بحدود من أماكن كثيرة متعددة وإن غلفوا ذلك كله برموز غامضة أو اشارات عائمة لاتقود إلا إلى ضلال .

وفي اعتقادي أن الذين فهموا أقوال الشهيد هذا الفهم واهمون ، وأنه فهم مختلق أو تصور موهوم لم يخطر ببال الشهيد ، ولم يرد في كل ماقدّم مــن آراء وأفكار عبر عطائه الثر وفكره الغزير .

لقد سرّب هذا الفهم المنحرف بعض الواهمين من السذج ، وهو فهم لايلبث أن يزول ليحل محله الانصاف والاعتراف بالفضل حين يكون محاورك مــن ذوي الخلق العلمي العف والوعي الفكري الرصين .

ويقع الوهم في أذهان الواهمين في هذا الموضوع من بابين :

الأول : تفسير الشهيد لقوله تعالى في سورة الحديد :

« هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » .

---

(١) من رسالة خاصة نشرتها الشهاب (اللبنانية) العدد ٥ السنة ٩ ص ٥ بتاريخ ٢٥ شعبان ١٣٩٥ هـ الموافق أول أيلول ١٩٧٥ م .

والثاني : تفسير الشهيد لقوله تعالى في سورة الإخلاص :
« قل هو الله أحد » .

وبالرجوع إلى الظلال فيما أورد الشهيد من أقوال نجد أنفسنا أمام الحقائق التالية التي تبدّد الشك باليقين ، وتزيل الغموض والوهم بالوضوح . والقناعة الراسخة أن الشهيد لم يخرج في كل ماكتب عما يراه السلف الصالح ، وما يراه أهل السنة والجماعة مستمداً من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

ولست أدري أي توحيد يفهمه العاقل أعمق من هذا الفهم السليم للتوحيد الخالص حيث يقول الشهيد يرحمه الله في مطلع تفسيره لسورة الحديد :

« كذلك جاءت لمسة أخرى ترد القلوب إلى حقيقة القدر المسيطرة على الوجود:
« ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكي لاتأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . والله لايحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتولّ فإن الله هو الغني الحميد » .. كي تستقر النفس وتطمئن لما يصيبها من خير أو شر ، وهي في طريقها إلى الله . فلا تطير جزعاً ، ولا تبطر فرحاً ، وهي تواجه الضراء والسراء . ولا تشرك بالله سبباً ولا ظرفاً ولا حادثاً . فكله بقدر مقسوم لأجل معلوم . ومرد الأمر كله في النهاية إلى الله » [1] .

ثم نراه يبين في غير لبس ولا غموض مفهوم تنزيه الله عن المشابهة والمشاركة والمثل كأنه يعيش في عصر السلف وفي صدر الأسلام الأول إذ يقول في تفسير مطلع سورة الحديد كذلك :

« هذا المطلع الموحي المختار يتناول القلوب ، فيهزها هزاً ، ويأخذها أخذاً ، وهو يجول بها في الوجود كله فلا تجد إلا الله ، ولا ترى إلا الله ، ولا تحس بغير الله ، ولا تعلم لها مهرباً من قدرته ولا مخبأ من علمه ، ولا مرجعاً إلا إليه ، ولا متوجهاً إلا لوجهه الكريم :

« سبح لله مافي السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

---

(١) في ظلال القرآن ـ ص ٣٤٧٧ ـ ٣٤٧٨ ـ المجلد السادس/طبعة دار الشروق .

هكذا ينطلق النص القرآني الكريم في مفتتح السورة ، فتتجاوب أرجاء الوجود كله بالتسبيح لله . ويهيم كل شيء في السماوات والأرض ، فيسمعه كل قلب مفتوح محجوب بأحجبة الفناء . ولا حاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله . فالله يقول . ونحن لانعلم شيئاً عن طبيعة هذا الوجود وخصائصه أصدق مما يقوله لنا الله عنه .. ف « سبح لله مافي السماوات والأرض » تعني «سبح لله مافي السماوات والأرض».. ولا تأويل ولا تعديل ! ولنا أن نأخذ من هذا أن كل مافي السماوات والأرض له روح يتوجه إلى خالقه بالتسبيح ، وإن هذا لهو أقرب تصور يصدقه ما وردت به الآثار الصحيحة ، كما تصدقه تجارب بعض القلوب في لحظات صفائها وإشراقها واتصالها بالحقيقة الكامنة في الأشياء وراء أشكالها ومظاهرها ..

وقد جاء في القرآن الكريم : « يا جبال أوّبي معه والطير » .. فإذا الجبال كالطير تؤوب مع داود . وجاء في الحديث : أخرج مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن بمكة حجراً كان يسلّم عليّ ليالي بعثت . إني لأعرفه الآن » .. وروى الترمذي ـ بإسناده ـ عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال : كنت مع رسول الله بمكة فخرجنا في بعض نواحيها ، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول : السلام عليك يا رسول الله » ..

ويقول الشهيد تغمده الله بالرحمة والرضوان في تفسيره لقول الله تعالى : « قل هو الله أحد » :

« وهو لفظ أدق من لفظ « واحد » لأنه يضيف إلى معنى « واحد » أن لاشيء غيره معه ، وأنه ليس كمثله شيء .

إنها أحدية الوجود فليس هناك حقيقة إلا حقيقته ـ وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده . وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية » (١) .

---

(١) تفسير سورة الاخلاص / في ظلال القرآن .

أليس هذا المعنى هو قمة التوحيد الخالص وهو المعنى الحق الذي أعجب بـه الرسول ﷺ وأثنى عليه خيراً في قول الشاعر لبيد بن ربيعة :

ألا كل شيء ما خـلا الله باطـل ...

وحين يكتب سيد قطب في ظل هـذا المعنى فهـو لايكتب للجهلة المتنطعين الذين لايفرقون بين « أحدية الوجود » ليعتبر كل وجود وجوداً غير حقيقي إلا وجود الله سبحانه ؛ وبين « وحدة الوجود » التي تدفع إلى الشرك وتقود إلى الضلال .

وفي مزيد من « التوحيد الخالص » يقول يرحمه الله عن (أحدية الوجود) :

« وهي ــ من ثَمَّ ــ أحدية الفاعلية . فليس سواه فاعلاً لشيء ، أو فاعلاً في شيء ، في هذا الوجود أصلاً . وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضاً ...

فإذا استقر هذا التفسير ، ووضح هذا التصور ، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة ، ومن كل تعلق بغير هـذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية .

خلص من التعليق بشيء من أشياء هذا الوجود ــ إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلاً ــ فـلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجـود الإلهي ، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعلية الارادة الإلهية ؛ فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته !!

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة ، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة .. فعندئذ يتحرر من جميع القيود ، وينطلق من كل الأوهاق . يتحرر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة ، ويتحرر من الرهبة وهي أصل قيود كثيرة . وفيم يرغب وهو لا يفقد شيئاً متى وجد الله ؟ ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله ؟

ومتى استقر هذا التصور الذي لايرى في الوجود إلا حقيقة الله ، فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها ــ وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه ، ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله ، لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله .

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب ، وردّ كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت ، وبه تأثرت .. وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصـــور الإيماني . ومن ثَمَّ كان ينحي الأسباب الظاهرة دائماً ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله : « ومـــا رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .. « وما النصر إلا من عند الله » .. « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » .. وغيرهـــا كثير ..

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها ، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها ، تنسكب في القلب الطمأنينة ، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب ، ويتقي عنده ما يرهب ، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لاحقيقة لهـــا ولا وجـــود .

وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة ، فجذبتهم إلى بعيد ! ذلك أن الاسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها ، ويزاولون الحياة البشرية،والخلافة الأرضية بكل مقوماتها شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله . وأن لا وجود إلا وجوده . وأن لا فاعلية إلا فاعليته .. ولا يريد طريقا غير هذا الطريق ! »[1] .

ألا ترى معي أنه يسخر من غلاة الصوفية أو المنحرفين منهم ممن يؤمن بوحدة الوجود حيث يقول :

« وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة ، فجذبتهم إلى بعيد ! » .

إذن هي محاولة لم تقدهم إلى الحق .. وهي جذبتهم إلى بعيد فلم يقتربوا من الحقيقة أو يبلغوهـــا .. لأن الفرق بين « أحدية الوجود » و « وحدة الوجـــود » كالفرق بين الإيمان والشرك ، والهدى والضلال ! ..

---

(١) تفسير سورة الاخلاص / في ظلال القرآن .

الموضوع الخامس : توهم البعض ان الشهيد قد تبرأ من جميع كتبه ماعدا (الظلال) و (المعالم) !

توهم البعض أن الشهيد قد أعلن كتابة وحديثاً فيما كان يتم بينه وبين أصدقائه وإخوانه من لقاءات أنه يتبرأ من كل ماكتب من عطاء وما قدم من كتب باستثناء كتابيه « في ظلال القرآن » و « معالم في الطريق » .

والحقيقة التي نستطيع الوصول إليها أن في الأمر وهماً أو سوء فهم لما يقال وما يكتب . ذلك أننا نلمح في كثير من هوامش الظلال إشارات كتبها الشهيد ليعيدنا إلى كتاب من كتبه أو بحث من أبحاثه في غير (الظلال) و (المعالم) . فنراه حيناً يعيدنا إلى « التصوير الفني في القرآن » وحيناً إلى « مشاهد القيامة في القرآن » وحيناً ثالثاً إلى « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » وهكذا .. مما يوحي أن الرجل يعي ما يقول بعمق ويدرك مايشير إليه ويكتبه بثقة لاحدود لها .

وأحسب أن الوهم الذي أشرت إليه جاء من مصدرين :

الأول : من حديث الشهيد عن بعض كتبه السابقة كقصة أشواك ، وقصة المدينة المسحورة ، ونقد مستقبل الثقافة في مصر ، وكتب وشخصيات ، وهي كتب المرحلة الأدبية في حياة الشهيد ؛ إذ بيّن أكثر من مرة لمن حوله من المتصلين به والمقربين إليه أنها كتب مرحلة معينة أورد فيها الشهيد بعض الآراء والأفكار مما لم يعد يؤمن به أو يراه ، أو أن ما استقر عليه الشهيد من رأي وفكر قد تجاوزها وتخطاها إلى منطلق جديد وطريق أكثر استقامة وأرحب ميداناً .

والثاني : من ملاحظة أوردها الناشر في المجلد الثامن من الطبعة السابعة حيث يقول :

« نكتفي في القائمة التالية بالكتب المتداولة دون الكتب التي نفدت وليس في النية إعادة طبعها ؛ للشعور بأنها قد أدت دورها في حينها ولم يعد لها إلا الاعتبار التاريخي ، وبعضها مما يحتوي آراء أو اتجاهات للمؤلف تبين له خطأها فعدل عنها» .

ثم أورد بعد ذلك قائمة بأسماء كتب الشهيد التي عرضناها في هذه الدراسة بأمانة وإنصاف وموضوعية .

وعليه فإن رجوعنا إلى تقسيم مراحل العطاء الفكري لدى الشهيد يبين لنا أن الرجل كان خيّراً في كل ما قدم وواعياً في معظم ماكتب ، وإن كان عطاؤه يختلف باختلاف الوعي الذي بلغه في كل مرحلة من مراحله .

ونستطيع أن نقول إن كتب : العدالة الاجتماعية في الاسلام ، والسلام العالمي والاسلام ، ومعركة الاسلام والرأسمالية تمثل فترة الحماسة النبيلة وتوقّد الغيرة الصادقة . في حين أن كتب : خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ، والاسلام ومشكلات الحضارة ، وهذا الدين ، والمستقبل لهذا الدين ؛ تمثل العطاء الثقافي المركز ، والفكر الحركي المنظم الذي ختمه بقمة ما أعطى وقدم في « الظلال » و « المعالم » .. وعليه فلا براءة من عطاء ، ولا تنكر من الشهيد لما قدم إلا في أذهان الواهمين الذين لم يتتبعوا فكره في شتى مراحل العطاء الفكري المبرور .

وأرى أنه لا يجوز للدارسين لحياة الشهيد ومدرسته وآثاره أن يتجاهلوا حتى عطاءه الأدبي الأول وكتبه النقدية التي سلفت ؛ ذلك أننا نكتب حياة رجل كان للاسلام في حياته أعمق الأثر وكان لعطائه في حياة الأجيال الاسلامية المعاصرة أعظم النتائج .

ونحن لانستطيع أن ندرك عظمة الاسلام وأثره في حياة عمر بن الخطاب مثلاً إلا إذا أدركنا ما كان الناس في صدر الاسلام الأول يرددونه عن قسوة عمر وغلظة قلبه في الجاهلية وهم يقولون : يؤمن حمار الخطاب ولا يؤمن عمر !

كما لانستطيع أن ندرك الآثار العظيمة التي سرت إبداعاً وعطاءً في شعر حسان ابن ثابت شاعر الدعوة الاسلامية إلا إذا عرفنا أن حساناً كان ثاني رجلين من رجال الخمر والخمريات في الجاهلية وكان صاحبه الأول في جاهليته الأعشى !

وأرى في هذا المقام أن يقوم المنصفون من الكتّاب أو الناشرين أو المحققين حين يطبعون للشهيد كتاباً،أن يشيروا إلى تاريخ نشر كل كتاب من كتبه ، وإلى تاريخ الطبعة الأولى من الكتاب ، وإيراد ملاحظة في أولى صفحات الكتاب تبين المرحلة

التاريخية التي قدم فيهـا الشهيد عطاءه ؛ ذلك ليعرف القارىء ماذا يقرأ للشهيد وما يمثل هذا الذي يقرأ من حياة الرجل وفكره بين أمس واليوم ..

بذلك نميز الفكر الذي استقر عليه الشهيد وبه آمن من الآراء التي مر بها مروراً في رحلته الطويلة المفعمة بالبناء والعطاء والخير والبركة والجهاد والاستشهاد.

* * *

وإذا كان لا بد من ختام لرأينا هنا فيما أورد الشهيد من آراء صائبة فهمها الناس خطأ ، أو هكذا أراد المتحاملون والمجاملون معاً أن يفهموها ، أو أنها حقيقة بحاجة إلى تصويب ورد إلى الجادة ـ فلا بد من الإشارة والإيضاح أن للشهيد يرحمه الله في بعض ما يورد من آراء عبارات أدبية فضفاضة وأسلوباً أدبياً مجازياً مشرقاً قد لايعطي الرأي الفقهي بصورة واضحة أو الحكم الشرعي في إطار دقيق محدد . وهو أمر يجب التنبه له ، مما يدفعني إلى القول بضرورة وضع تعليقات هامشية على بضع صفحات من الظلال يكتبها محب منصف للحق وللشهيد معاً في طبعات مقبلة من طبعات الظلال ؛ كي لا يفتن الناس بما ينسبونه للرجل ظلماً وتجنياً ، أو مما يمكن أن يكون الشهيد قد قاله فعلاً في لحظة من لحظات الضعف الانساني المنتظر ، أو عبارة من عبارات الأسلوب الأدبي الرفيع الذي لايحمل أحياناً المعنى الفقهي المقصود . والشهيد يرحمه الله لم يعدّ نفسه يوماً فقيهاً من فقهاء الأمـة بقدر ما هو رجل من رجال الفكر فيها ، وأصحاب الرأي الذي يستمده من الكتاب والسنة أولاً ومن اجتهاد الفقهاء ومعطيات العقل المؤمن البعيد عن الزيغ والهوى بإذن الله .

وأرى أن خير من يرشح لمثل هذا شقيق الشهيد وتلميذه الأستاذ محمد قطب ؛ على غرار مافعل في رسالته التي خص بها واحداً من أصحابه الخلص وهو يشرح له أفكار الشهيد وآراءه العديدة كما وضحها الشهيد في أكثر من موقف وأكثر مـن مقام ، وقد أشرنا لها في أكثر من موضع في هوامش هذا الكتاب .

* * *

أسلوب الدعاة في دعوة المجتمع إلى الإسلام

تواجه الحركة الاسلامية رأياً عجيباً ينتشر بين الشباب اليوم يدعو إلى الأخذ بفكرتين هامتين إحداهما متممة للأخرى مكملة لها :

تقول الأولى : لايجوز أن يقف المسلمون موقف الدفـاع عن الاسلام وإنما موقف العرض الايجابي الهادف البناء الذي يسفر عن وجه الاسلام المشرق ويظهر حقيقتـه ٠

وتقول الثانية : ولا يجوز عند هذا العرض الايجابي أن تبين الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والعسكرية وما إلى ذلك ، بل لابد من تناول جانب العقيدة دون غيره والدعوة إلى التوحيد دون سواه ٠

ويستدل أصحاب هذا الرأي على ما أورده الشهيد سيد قطب في « المعالم » وفي مقدمة تفسير سورة الأنعام في « الظلال » من أن دعوة الاسلام جاءت إلى الناس كافة لتحرر الانسان وتنقله من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، وتحرر الأرض من الطواغيت عربية وفارسية ورومية ، ليعبد الله وحده وتكون الحاكمية لله ٠٠ ولم يأتِ الاسلام ليكون حركة قومية توحد العرب على باطلهم ، أو اجتماعية فحسب تصلح مجتمعهم المهترىء المتفسخ القائم على عبادة الطاغوت من بعض ما أصابه من عوج وتفسخ وضلال ٠

ويسوق أصحاب هذا الرأي ما يقال على لسان الشهيد سيد قطب قبل أن يلقى الله ، وعلى لسان أخيه الاستاذ محمد قطب عبر أحاديث له شخصية أو مذاعة بأن « سيداً » عليه الرحمة قد تبرأ من جميع كتبه إلا « المعالم » و « الظلال » وهـو يرجو ألا يرجع إلى غيرهما أو لايؤخذ بما ورد في سواهما ٠٠ وقد أشرت من قبل

إلى جانب الخطأ في مثل هذا الفهم وبينت جانب الصواب كما أرى والله أعلم ٠

وأصحاب مثل هذا الرأي لا يفرقون ـ مع الأسف ـ بين ما ينبغي أن تقوم به أولاً الصفوة المختارة من الدعاة الملتزمين بعمل حركي منظم وهي تعمل على تربية الجيل المسلم وبناء المجتمع الاسلامي ، وبين ما يضطر الدعاة إليه وهم يرون اسلامهم موضعاً للتآمر وعرضة للهجوم عليه من كل جانب .

والذي أراه حقاً وأحسبه صواباً أنه لايجوز اعتماد أسلوب الدفاع وحده ، أو الاكتفاء بأسلوب عرض الجوانب المشرقة المتعددة الاخرى من الاسلام دون الدعوة إلى الايمان وترسيخ العقيدة الصحيحة في النفوس وتعهد بذرة التوحيد والفطرة السليمة بالرعاية والعناية والنماء . كما لايجوز إعطاء الأولوية لأي عرض أو بحث أو دراسة وتقديمها على هذه الأسس التي أشرنا إليها ، لأنها تعتبر الأصل في دعوة الاسلام القائمة أولاً على تثبيت مفهوم « لا إله إلا الله » ليتميز المجتمع الاسلامي بها عن غيره من المجتمعات .

لكن من غير الصواب كذلك أن يصر فريق من الدعاة على إلغاء كل بحث اسلامي يتناول السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والجندية وغير ذلك ، بحجة تركيز العقيدة أولاً . أو أن يصرّ فريق من الشباب على عدم ردّ اتهامات المبطلين وافتراءات المفترين بحجة أن الاسلام غير متهم لأنه فوق مستوى الشبهات .. وإن لذلك إيضاحاً لا بد أن نقف عنده ونحن نبحث آراء الشهيد وأفكاره ونتحدث عن عطائه الفكري ومنهجه الحركي .

إن الفارق كبير بين « المجتمع الجاهلي الأول » الذي بعث فيه الرسول الأعظم ﷺ و « المجتمع الجاهلي اليوم » الذي نحن بصدد دعوته إلى الاسلام وحثه على الإيمان برسالته ، ولو أن كلمة « الجاهلية » وقيمها تهيمن على المجتمعين وتقود الناس فيهما إلى مزيد من الضلال ومزيد من غضب الله وعذابه .

فأفراد « المجتمع الجاهلي الأول » كانوا كافرين لا يؤمنون بـ « لا إله إلا الله »، أما أفراد « مجتمعنا الجاهلي اليوم » في ديار الاسلام فهم مسلمون بأشخاصهم وإن كانت القيم التي تهيمن عليهم ونظم الحياة التي يحيونها جاهلية .. ولا يجوز بحال أن نساوي بين من لا يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبين من يؤمن

بذلك ولكن الجهل أو الضعف أو الاضطهاد فرضت عليه قيماً يعمل وفقها ويعيش في إطارها المحدد .

وثمة شيء آخر لابد من الاشارة إليه وهو أن أفكار « المجتمع الجاهلي الأول» كانت محصورة في عناد الجاهليين وحقد المشركين وضلال الكافرين وهم يعلنون شعارهم الصنمي الساذج : « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون»[1]

أما أفكار « المجتمع الجاهلي اليوم » فخليط من الآراء والمعتقدات التي تتناول بالتوسع والتفصيل والتطبيق في حقول علمية عملية قائمة عدداً من الأبحاث والأنظمة الاقتصادية والاجتماعية والتربوية وغيرها..وهي جميعاً تغزو بيوت المسلمين وعقول أبنائهم عبر وسائل الاعلام الحديثة العديدة في مخادعهم وأحضان أمهاتهم .. ومن هنا فلا بد أن يزودوا بالمعرفة الصحيحة والفكر النير ، سواء كان ذلك بصورة عرض ايجابي بادىء ذي بدء أم ردوداً على مفتريات وأباطيل يحاصرهم بها التبشير والاستعمار والماركسية .. على يد معلم ضال أو كاتب منحرف أو مؤسسة مأجورة.

وهنا يأتي دور الداعية المسلم لاستنقاذ الجيل حين يعرض للشباب القيم السامية والأفكار الصحيحة والأنظمة العادلة مبيناً لهم أنها جميعاً تنبثق من عقيدة التوحيد السليمة الخالدة ...

ولست أدري كيف لايجوز في عرف أصحاب هذا الرأي ألا يوضح الأمر لمسلم جاء مستفسراً عن باطل تشيعه طلائع الاستعمار من المبشرين أو فرية يذيع بها الماركسيون أو اليهود الجدد في مجتمعنا العربي المعاصر فيقال له : لاداعي لهذا البحث أو هذا الحوار .. والصواب أن نبدأ معك بغرس بذرة الايمان في نفسك وتقوية العقيدة في قلبك .. ودع أولئك المرجفين في طغيانهم يعمهون ...

إن هذا الأسلوب كما أرى انهزامي منفّر في آن .. انهزامي لأن الداعية يهرب به من مشكلة تواجهه وفرية توجه إلى دينه وأصحاب الفرية به متربصون .. ومنفّر لأنه اعتبر بادىء ذي بدء صاحب السؤال كافر وما هو بكافر بل مؤمن يحاصره الكافرون من كل جانب .

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الزخرف .

إن مثل ذلك السائل يعتبر رصيداً للدعاة مذخوراً وإن لم يكن معهم في محضن الدعوة أو لم يلتزم بتنظيمهم الحركي المبارك .. فكيف يطارد بمثل هذا الاسلوب أو ينفر بمثل تلك المماطلة مالم يصبح واحداً من الصفوة المختارة التي نذرت نفسها أن تكون « ضحية » لما آمنت به من حق وعدل .. وهو لايقوى على ذلك أو لا يرى نفسه أهلاً لذلك مع ماهو عليه من إيمان وحب للاسلام والمسلمين .

ثم ما رأي أصحاب مثل هذا الرأي في عامل أو مجموعة من العمال يأتون طائعين مؤمنين بالله ورسوله محبين لدينهم ، ولكن فرية « خلاص العامل المعذب في المجتمع الرأسمالي لايتم إلا على يد الماركسية » تنتشر بينهم .. وقد جاءت هذه الفئة الطيبة مستفسرة تنشد الحل في محضن الدعوة الاسلامية ولدى الصفوة المختارة من الدعاة ؟.

أيحال أمثال هؤلاء إلى مدرسة داخلية أو دار أرقم جديدة يربون فيها من جديد .. أم أن اطلاعهم على جوانب الحق والعدل والخير والجمال في الاسلام هو الصواب ؟! ثم يوجهون بعد ذلك وقد اطمأنت نفوسهم لما سمعوه ليُمضى بهم إلى محاضن الدعوة ودور الأرقم المعاصرة تبذر فيهم بذرة الايمان أو على الأصح تنمي فيهم بذرة الايمان المغروسة لتصبح بإذن الله طيبة الثمر وارفة الظلال ...

إننا لانسلّم مع أخينا وأستاذنا محمد قطب وهو يعلن للبعض أو يعلن البعض على لسانه بأن كتابه الذي ندم على تأليفه هو « شبهات حول الاسلام » [1] كما لانسلم مع الذين فهموا خطأً رأي استاذنا الشهيد سيد قطب بأن نهجر كل كتبه ماعدا « المعالم » و « الظلال » .. كما نقل إلينا على لسانه وكما يذاع !!

---

(١) لم يندم الأستاذ محمد قطب على تأليفه كتاب (الشبهات) وإنما غيّر موقفه من المنهج الذي رتّب فيه كتابه ، والذي يتلخص في ايراد الشبهة التي يثيرها اعداء الاسلام ، ثم الرد عليها بما يبطلها .

ذلك أن المؤلف رأى أن هذا المنهج يعطي الشبهة لوناً من الأهمية لا تستحقه ، ولوناً من الشرعية يستوجب من الدعاة الاحتفال بها والاهتمام . راجع مقدمة الطبعة الحادية عشرة لكتاب « شبهات حول الاسلام » طبعة دار الشروق . « الناشر » .

والسبب في ذلك بسيط نواجه به الجيل في حـوار موضوعي هـادىء ولو خالف رأي المفكر َيْن الاسلاميَـيْن الكبيرين إن كان صحيحاً مايقال بلسانيهما ويشاع:

إن آلاف الشباب الذين آمنوا بالدعوة وهم اليوم جندها وحملة رايتها أقبلوا على كل ما كتب الأخـَوان الكريمان في ميدان الفكر المعاصر قبل أن تولد « المعالم » ويظهر « الظلال » .. فكيف نرفض وسيلة اجتذاب كريمة نظيفة عرضت الاسلام للشباب مشرقاً وضاءً لمجرد خلط وقع في ذهن أصحاب الرأي العجيب بين ما يجب على الدعاة أن يقوموا به أولاً من تربية العقيدة في النفوس وبين مايجب أن يطرح في المكتبة العربية الاسلامية وما يقدم للجيل المسلم وسط دوامة الصراع الفكري المعـاصر ؟!.

إن المطالبة بإلغاء العطاء الفكري الاسلامي الذي سبق « الظلال » و « المعالم » مطالبة جائرة جاحدة ممن يوردها إذ أن مثل ذلك الفكر على مافيه من صـواب أو خطأ يمكن أن يقوَّم ، وحق أو باطل يمكن أن يزال ــ كان سبباً في إقبال آلاف الشباب على الثقافة الاسلامية ينهلون منها ويغترفون خير ما يتزودون به مما عرّفهم فيما بعد على الدعوة الاسلامية عقيدة وحركة ومنهاجاً .. ولولا هذا العطاء الفكري السابق لما عرف الجيل « سيداً » صاحب الظـلال وصاحب المعالم .. ومعلوم أن الدراسات الاسلامية المتعددة التي تتناول شؤون الحياة كافة هي التي قادت آلاف الشباب إلى الحق الذي ماتوا في ساحته أو عذبوا في سبيله .

صحيح أن الانتظام في الدعوات وولوج ميادين الجهاد يتم عبر الأبواب الرئيسية التي هي العقيدة والايمان في بحثنا هذا ؛ ولكن أي منطق هذا الذي يحول بـين الجيل وبين النور الذي يطل عليهم من كوى مضيئة عبر ذلك العطاء ؟!

وجميل وحق أن يقال لقد تدرج الشهيد في عطائه وظل يرتقي ويدنو من النضج والكمال الانساني فيما قدم من فكر حتى بلغ القمة في « المعالم » و « الظلال » ؛ ولكن ليس جميلاً ولا حقاً أن يلغى من عطاء الرجل كل فكر سابق وكل ثقافة مبكرة قد تكون هي المنطلق الأول نحو ماوصل إليه من عطاء فكري نير وثقافة اسلامية واعية أصيلة ...

وحتى « الظلال » الذي يعتبر قمة ما قدّم وأعطى سيد قطب في الفكر الاسلامي

جاء في كثير من صفحاته وثناياه ـ كما قلنا ـ إحالات من مؤلفه عليه الرحمة الى عدد من كتبه أن نعود الى فصول منها ، وأن نطالعها بتفصيل وعمق وروية .. ولو تصفحنا الظلال مجرد تصفح لوجدنا في هوامشه ما يحيلنا إليه من كتبه التي نذكر منها: التصوير الفني في القرآن ، ومشاهد القيامة في القرآن، وهذا الدين ، والاسلام ومشكلات الحضارة ، وخصائص التصور الاسلامي ومقوماته ، والسلام العالمي والاسلام . وحتى النقد الأدبي أصوله ومناهجه كان لـه من إحالة الشهيد إليه نصيب [١] ...

فكيف ينبري اليوم من يريد إلغاء هـذا العطاء الثر لمجرد إعجاب بالمعالم أو الظلال ، أو باسم الوقوف عند القمة التي بلغها الشهيد أو وصل إليهـا في الفكر والعطاء .. والقمة لاتقوم إلا على جبل شامخ وقاعدة أصيلة متينة ثابتة ؟..

ومن الانصاف أن نشير إلى أن الشهيد فيما قدّم وأعطى قد أفاد من عدد من كتب أخرى لغيره من العلماء والكتاب وذوي الفكر مسلمين وغير مسلمين وقـد أحالنا إليها لنتزود منها ونطلع عليها وننال مزيداً من الثقافة والمعرفة .. فكيف يجوز لفريق من المعجبين بالشهيد ـ أن يظلموه ولا يفهموه ـ فيدعو إلى حرمان العقل المؤمن من عطاء الآخرين الذي انتفع به الشهيد ومنه أفاد [٢] ؟

إننا نشك في صدور مثل هذه الدعوة الغريبة وهذا الرأي العجيب عن أحد الأخوين الكريمين ، فإن كان قد صدر مايوحي به فإني أحسب أن سوء الفهم لما قالا هو الذي يطرح اليوم بين الشباب ويشاع ، أو دعنا نعده بعض مايقع من هفوات ذوي الفضل وعثرات الأكرمين التي يمكن أن يقع فيها من لايبلغ درجة الكمال ولا يرقى إلى مستوى العصمة ـ وتلك منزلة لا يصل إليها إلا الرسل ، ولا يبلغها إلا الأنبياء.

---

(١) في هوامش الظلال : يمكن للقارىء ان يجد ذلك بكثرة وامانة ووضوح .

(٢) في هوامش الظلال احالنا الشهيد إلى بعض كتب : عبد القادر عودة، والعقاد وابي زهرة ، وابي الحسن الندوي ، وابي الأعلى المودودي ، ومحمد قطب واحمد زكي وشكيب ارسلان وغيرهم. كما احالنا إلى بعض كتب « ج.هـ.دنيسون » و « ا.كريسي موريسون » وغيرهما .

أما أن يفهم أناس أقوال الشهيد كما يروق لهم وكما يتوهمون ، ثم يحملون الناس على ذلك حملاً ، أو يصرّون على أن فهمهم - كما قيل أو كتب - هو الفهم الذي لا يرقى إليه شك أو لا يجوز أن يخضع لرد أو حوار ، فذاك لعمري غرور وضيق أفق وتزمت لا أحب أن نرمي به بعض من نحب ونقدر من الدعاة .. وأحب أن أحسن الظن فلا أمضي لأبعد من ذلك . وما زالت ترن في أذني قهقهات قضاة محاكم الثورة وهم يلصقون بالشهيد وصحبه التهمة نفسها ، ويفهمونه الفهم نفسه إذ ادّعوا يوماً وزعموا أنه يكفر كل الناس ما عدا رفاق الدرب معه وإخوان الدعوة الصابرين !.

إنني أدعو إلى الرجوع إلى القرآن نفسه نستلهم منه السداد والرشاد لنراه وهو يركز على العقيدة أولاً في المجتمع المكي ، ينبري كذلك لمناقشة بعض الأنظمة الاجتماعية المغلوطة يومذاك دون الوقوف عندها أو اعطائها الأولوية في العرض والحديث والحوار ...

إنه يناقش نظرة المشركين للمرأة .. ويأخذ عليهم وأد البنات ، ويرد عليهم في مجال تفضيل الذكر على الأنثى من الذرية بسخرية قاتلة :

« وإذا الموؤدَة سُئلت . بأي ذنب قتلت »[1] ؟!

« وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به ، أيمسكه على هُون أم يدسه في التراب آلا ساء ما يحكمون »[2] .

وفي المجتمع المكي الذي انبثق فيه نور الدعوة الاسلامية تعددت دواعي الايمان ودوافع الاسلام حتى جاءت شتى وفق الحالة النفسية أو الاجتماعية للناس الذين وجهت لهم الدعوة ...

فمن الناس من آمن لبلاغة القرآن وفصاحة التنزيل ، ومنهم من آمن إعجاباً بموقف صحابي ، أو ارتياحاً لما بلغه من أمر خلق النبي ، أو اطمئناناً لسلوك وقع

---

(١) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة التكوير .

(٢) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة النحل .

سمعه أو بصره عليه .. ومن الناس من آمن انتصاراً لقريب أو حبيب ثم حسن اسلامه وزكا إيمانه .. وحتى المال والمادة والترغيب كانت من عناصر اجتذاب بعض القلوب كما كان يفعل مع المؤلفة قلوبهم .. فإذا كان مثل هذا يقع في صدر الاسلام الأول والنبي بين أظهر المسلمين وعلى رؤوسهم يقوم ، أفيأبى فريق منا اليوم أن يدخل الايمان قلب انسان عبر فكرة تشرح أو خاطرة تقال أو بحث يعد أو دراسة تتناول مختلف شؤون الاسلام وشتى مجالاته الشاملة المتكاملة ؟

إن قبس الايمان قد يومض في قلب إنسان بسبب آية من الكتاب ، أو هدي من السنة أو عبر شخصية مجاهد ، أو روعة بحث ومقال ؛ فأي حق يمارسه هؤلاء المانعون لقبس الايمان أن يضيء جوانح الناس وأفئدة الخلق إلا إذا كان عبر طريق معين يحددونه وسبيل واحدة لا يرتضون سواها !؟

إن سيد قطب حتى في « ظلال القرآن » لم يغفل جوانب عدة من الحوار وقضايا عديدة مما يعترض طريق المسلمين في مسيرتهم الطويلة .. فهو يكشف زيف الحضارة المادية ، ويعرّي تيارات الفكر المعاصر ، ويناقش الأديان السابقة بعد تحريفها ..

ولكنه لم يقف عند هذا الحد ولم يكتف بتلك المناقشة وذلك الحوار ، ولم يجعل الأولوية لشيء من ذلك ، وإنما جعل الأولوية والتركيز على القاعدة الأولى التي يقوم عليها المجتمع الاسلامي السليم وهي أن يفهم الناس معنى « لا إله إلا الله » وأن يؤمنوا بها وأن يعملوا وفق مقتضاها .. وهذا هو الفهم السليم الذي ندعو الناس أن يقبلوا عليه وهم يطالعون عطاء الشهيد وفكره الاسلامي المستنير ..

إن ماورد على لسان الشهيد سيد قطب أو بقلمه في « المعالم » أو في مقدمة تفسير سورة الأنعام في « الظلال » حول هذا الموضوع ــ حين يفهم فهماً سليماً ويوضح جانب التطرف فيه كما أشرنا إلى ذلك في موضعه ــ يصلح أن يكون أساساً من أسس الدعوة إلى الله واطاراً عاماً لها ومنهاجاً سليماً واضح المعالم .. ولكن لا يجوز بحال أن يكون دعوة إلى منع الأساليب الأخرى والطرائق المتعددة التي تسهم في صد تيار عدائي وكشف جانب من المؤامرة الكبرى التي تحيط بالاسلام والمسلمين .. وهذا هو الذي يفهمه كل من عرف الشهيد حق المعرفة وفهم عطاءه الفكري حق الفهم دون مكابرة أو تنطع أو عناد .

بين حسن البنا وسيد قطب

ليس بالغريب على جموع الشباب المسلم أن يجري بينهم حوار كلما ضمهم مؤتمر أو جمعهم لقاء وهم يستمعون للفكر الاسلامي النيّر يعرض عليهم ويرون صفوف الشباب المؤمن تنتظم في عمل اسلامي حركي هادف .. ويدور الحوار أحياناً حول أبرز رجلين كان لهما أثر في تربية الجيل المسلم المعاصر ، أيهما كان له الأثر الأكبر والدور الأعظم : حسن البنا أم سيد قطب ؟

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن التقدير في نفوس الشباب قائم لكل من الداعيتين الشهيدين والقائدين الرائدين ، ولكن المفاضلة والمقارنة تنتهي بأن يقف كل فريق عند رأي معين يؤمن به ولا يرى سواه عن دور حسن البنا الأهم .. أو دور سيد قطب الأعظم .

ومثل هذا الحوار الذي يقوم وهذه المقارنة التي تقع أمر عادي متوقع ، ولكن المستهجن من الرأي أن يقف بعض الشباب موقفين متضاربين بحيث يصر كل فريق على تفضيل هذا أو ذاك أو تقديم ذاك على هذا ، وهما موقفان نابعان من خطأ المنطلق الذي يبدأ به الشباب شوطهم ويسلكون به طريقهم .. وحين يكون الطريق طويلاً فإن الخطوة الأولى فيه هي التي تقرر مقدار الاستقامة أو الالتواء مما يوصل أخيراً إلى الصواب أو الخطأ أو يقود في النهاية إلى الحق أو الباطل ...

لقد ولد كل من الرجلين عام ١٩٠٦ م .. وتخرج كل منهما من دار العلوم ، فاتجه كل وجهة هو موليها ، ثم التقيا أخيراً بتوفيق الله وتدبيره على العمل لبناء الجيل المسلم المؤمن وإقامة المجتمع الاسلامي المنشود ، وذلك باستئناف الحياة الاسلامية النظيفة وتطبيق شرع الله في الأرض .

وفي الوقت الذي نجزم فيه بعد الدرس والتقصي والاطلاع أن نشأة كل منهما كانت طيبة سوية ، لكنهما يفترقان في أسلوب العطاء وطريقة البناء : بدءاً بالفكر الواعي وانتهاءً بالحركة المنظمة ، أم بدءاً بالحركة المنظمة وانتهاءً بالفكر الناضج الطيب الثمرات ...

ففي الوقت الذي نشأ فيه سيد قطب في بيت ريفي ميسور ـ الى حد ما ـ تسري فيه روح من التدين الفطري السوي ، نشأ حسن البنا في بيت عالم جليل هو والده المرحوم أحمد عبد الرحمن البنا الذي كان من علماء مصر الأتقياء الذين يعنون أكثر ما يعنون بعلم الحديث رواية ودراية وشرحاً وتبياناً .

ويمضي سيد قطب على طريق الأدب أولاً والفكر ثانياً والالتزام بأمور الدين والفرائض ثالثاً ، بينما يبدأ حسن البنا حياته ملتزماً بروح الدين وتكاليف الشرع حتى إنه أنشأ وهـو ما زال على مقاعد الدرس جمعية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد وجه كثيراً ممن يكبرونه سناً ونبههم إلى بعض المخالفات الشرعية التي لايجوز للمسلمين أن يقعوا فيها فاستجابوا له شاكرين معجبين ، وكان يكثر مـن الصلاة والصوم فرائض ونوافل تطوعية حينما كان فتى صبياً لمّا يدخل مرحلةالشباب بعد أو يبلغ سن الرجال .

وإذا كان حسن البنا قد انصرف إلى الأنفس يدعوهاإلىالتطهر والقلوب يدعوها إلى التآلف ، فقد انصرف سيد قطب ابتداءً إلى العقول يدعوها إلى الاستنـارة والتبصر والتدبر والنظر فيما حولها وما يراد بها من مكر الأعداء ، وتآمر الدخلاء ، الذين يحملون اسماءنا وينطقون الحروف العربية كما ننطقها في حياتنا اليومية صباح مسـاء ...

وفي الوقت الذي انصرف فيه حسن البنا إلى تأليف الصف وجمع الكلمة وبناء الأجيال وتنظيم الحركة ، انصرف سيد قطب إلى الكتب ووضـع المنهـاج وعرض الفكر الناضج حتى يعيه الشباب فيعملوا به ويضعوه موضـع التنفيذ في حياتهم الخاصة والعامة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً في قناعة عقلية ورضى نفسي وطمأنينة وجدانية غامرة .

وإذا قدّر لحسن البنا أن يبدأ بالنواة الصغيرة من العمال البسطاء والمستضعفين من الناس يدعوهم إلى ضرورة العمل المتواصل الدؤوب لإعادة مجد الاسلام ووضع شريعة الله موضع التنفيذ في البيت فالمجتمع فالدولة ، فقد وجد سيد قطب أمامه حركة منظمة معدة وصفوفاً قوية متراصة وجماهير من الشباب تتطلع إلى بعث مجد الاسلام من جديد واستئناف حياة اسلامية نظيفة يسعد بها الخلق ويتحقق بها رضوان الله على عباده .

ومن هنا كان حسن البنا مدرسة فكرية بدأت بالحركة المنظمة ، وكان سيد قطب مدرسة حركية بدأت بالفكر الناضج تيسره و « تبرمجه » وتلقي عليه الضوء وتغرسه بذوراً خيرة أو ترسله دماً حاراً يجري في عروق الحياة .

ويتخذ الشهيد سيد قطب أسلوباً في تقديم الاسلام وعرضه عرضاً ايجابياً يخرس به الملاحدة والماركسيين والوجوديين والرأسماليين والمستعمرين وغير هؤلاء من المبتورين عن صفاء الفطرة الانسانية أو أولئك المجتثين عن جذور أمتهم وتراثها الأصيل ، بينما يعمل الشهيد حسن البنا على جمع فئات العاملين في الحقل الاسلامي الكبير ليلتقوا على الله والعمل في سبيل مرضاته .

ومن هنا ترى حوله جموعاً من الشباب : السلفي والصوفي والرياضي والعلمي ، حيث يبين لهم بوضوح وحدة العمل الاسلامي الكبير في تكامل فردي شامل ، يجعل الجميع جنوداً لله دعاة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة والجهاد الصادق والتضحيات الجسام في صفوف متراصة عرفتها حركة « جماعة الاخوان المسلمين » التي أسسها الشهيد ، وأنشأها للعمل على تطهير ديار الاسلام من الطغاة والغاصبين ، وتحكيم شرع الله في الأرض ليطمئن الخلق وتسعد به الانسانية .

إن السلفية لدى الامام البنا تعني العودة بالجيل المسلم إلى طريق السلف الصالح صفاء عقيدة وصحة عبادة ومنهاج حياة ، وإن الصوفية في مفهومه وتصوره أن تصفو النفس الانسانية ويطهر القلب المؤمن في تجرد روحي غامر بين يدي الله .. وما عدا

ذلك من رموز وإشارات ومصطلحات فأمور لاتعنيه كثيراً لأنها وسائل تعقيد وأساليب تشتيت قد لا تقود إلى طريق الله التي ارتضاها لحركته وبيّنها للأجيال من بعده .. ومن هنا كانت عبقرية الرجل الملهم وقدرته على أن يجمع بين السلفي والصوفي معاً في حركة اسلامية عالمية واحدة وعمل اسلامي حركي منظم صار ملء السمع والبصر في كل المجالات العالمية وشتى الآفاق الدولية .

بقي أن نقول للذين يفضلون سيد قطب في حماسة وانفعال على حسن البنا فيما ألف من كتب وما قدّم من فكر .. لقد لقي حسن البنا ربه وله من العمر اثنان وأربعون عاماً فلم ينل من فسحة الأجل وهو في عمل دؤوب متواصل من أعمال البناء والتنظيم ليقدم كتباً كثيرة وعطاء فكرياً ثراً كالذي كتبه الشهيد سيد قطب ، ومع ذلك فقد كتب الشهيد البنا للجماعة التي أسس والشباب الذي نظم رسائل فيها خلاصة مبادىء الفكر الاسلامي الواعي الأصيل الذي قامت على أساسه الجماعة وانطلقت صفوفها منظمة تدعو إلى الحق وترفض الباطل . في حين عاش الشهيد سيد قطب بعده سبعة عشر عاماً عانى خلالها ما عانى ، وأعطى خلالها ما أعطى من ثمرات الفكر الاسلامي الناضج النابع من تجربة الرجل عمراً مديداً وعذاباً رهيباً وآلاماً مبرحة واطلاعاً واسعاً وتطلعات مستقبلية ذات أبعاد وآمال كانت تلازمه حتى وهو وراء القضبان أو في ظلال حبال المشانق !

ونخرج بعد هذا الذي عرضناه في مقارنة هادفة واعية بين الرجلين لنقول : لقد انصرف حسن البنا لجمع الشباب وتوعيتهم وتنظيمهم حول صفاء العقيدة وشمول الاسلام وصلاحيته للحكم ومعالجة شؤون الحياة مستمداً من الكتاب والسنة قواعد أساسية عامة أقيم عليها تنظيم الجماعة .

أما سيد قطب فقد لقي الجيل المنظم والشباب المتوثب والجماعة الواعية فراح يعمّق في منهاجها ، ويبلور أهدافها وغاياتها وفق أحكام الاسلام ، متخذاً من القرآن الكريم منطلق منهاجه ذاك ، حتى صار رجل الفكر الاسلامي الاول ليس في الجماعة وحدها بل في العالم الاسلامي كله .

كان البنا مهندس الجماعة وبانيها •• وكان سيد قطب نبعها الثر بزخم فكري نيِّر وعطاء من نور الايمان يقدمه منهـاج حركة ومنهاج حياة لجماعة عملت منذ وجدت لتطبيق شرع الله في الأرض واستئناف الحياة الاسلامية رغم كل الظروف القاسية والمؤامرات المريبة التي لاترحم •

لقد كان حسن البنا البذرة الصالحة للفكر الاسلامي المعاصر •• وكان سيد قطب الثمرة الناضجة لذلك الفكر المستنير •

وعلى الرغم من ذلك فقد كان الشهيد سيد قطب يقر للامام البنا يرحمهما الله بمقام الأستاذية ، ويعترف له بفضل السبق إلى ميدان العمل والبناء ،وما خطر بباله يومـاً ـ وهذا ما نعرفه عن قرب لما كنا نسمع منه ونرى ـ أن يأتي يوم يرضى فيه الرجل لنفسه أن يقدّم على الامام الشهيد والبنّاء العبقري [1] في أي مجال من مجالات البنـاء والعطاء •

ولئن كان الشهيد سيد قطب قـد زرع في كل بيت كتاباً ينير العقول وفكراً تهتدي به الأجيال ، فقد زرع الشهيد حسن البنا في كل ميدان رجلاً وفي كل حقل داعية يعطي المثل الحي على أن الاسـلام حين تحمله القلوب الصادقة في الصدور العامرة يحيلها أقباساً وضيئة ، ومشاعل على الدرب ، وعناوين على البذل والعطاء ، لتكون كلمة الله هي العليا أبداً ، وجند الشيطان الخاسرون إلى بوار •

لقد قدّر للرجلين أن يلتقيا في عام الولادة •• وأن يلتقيا في ساح الشهادة بأن يسقط كل منهما شهيداً على يد طاغية أرعن وجندي من جند الشيطان ، والرجاء في رحمة الله كبير بأن يغمرهما بفضل منه وأن يجمعهما في مستقر رحمته في مقعد صدق عند مليك مقتدر •



(١) راجع مقال « حسن البنا وعبقرية البناء » في « دراسات اسلامية » للشهيد سيد قطب .

رجـــاء

إلى كـل من لـه علاقـة واطـلاع

ينوي مؤلف هـذا الكتاب تاليف كتابه الثاني ـ وقـد بـدا بـه ـ عن « القائد الرشيـد والعالم الشهيد عبد القادر عودة » .. كمـا عرفه ولقيـه واستمع إليه ...

وهـو يرجو إخوانه واصـدقاءه الذين يعرفـون جوانب من حياته وصوراً من نزاهته وعفته وجهاده ان يبعثوا بهـا إليه على العنـوان التالي :

عمـان ـ الاردن . ص.ب ١٨٥٨

سواء كان ذلـك في صورة رسالة موثقة ، او تاريخ محدد ، او قصاصـة صحيفـة ، او نشـرة ، او كتـاب .. لعـل بعض الواجب نحو الشهداء يؤدى ، وجانباً من تـاريخ الدعوة الاسلامية المعاصرة يحفظ ويصان ، في دوامة عمليات التزوير الرهيبة القائمة على قدم وســاق .

فهرس